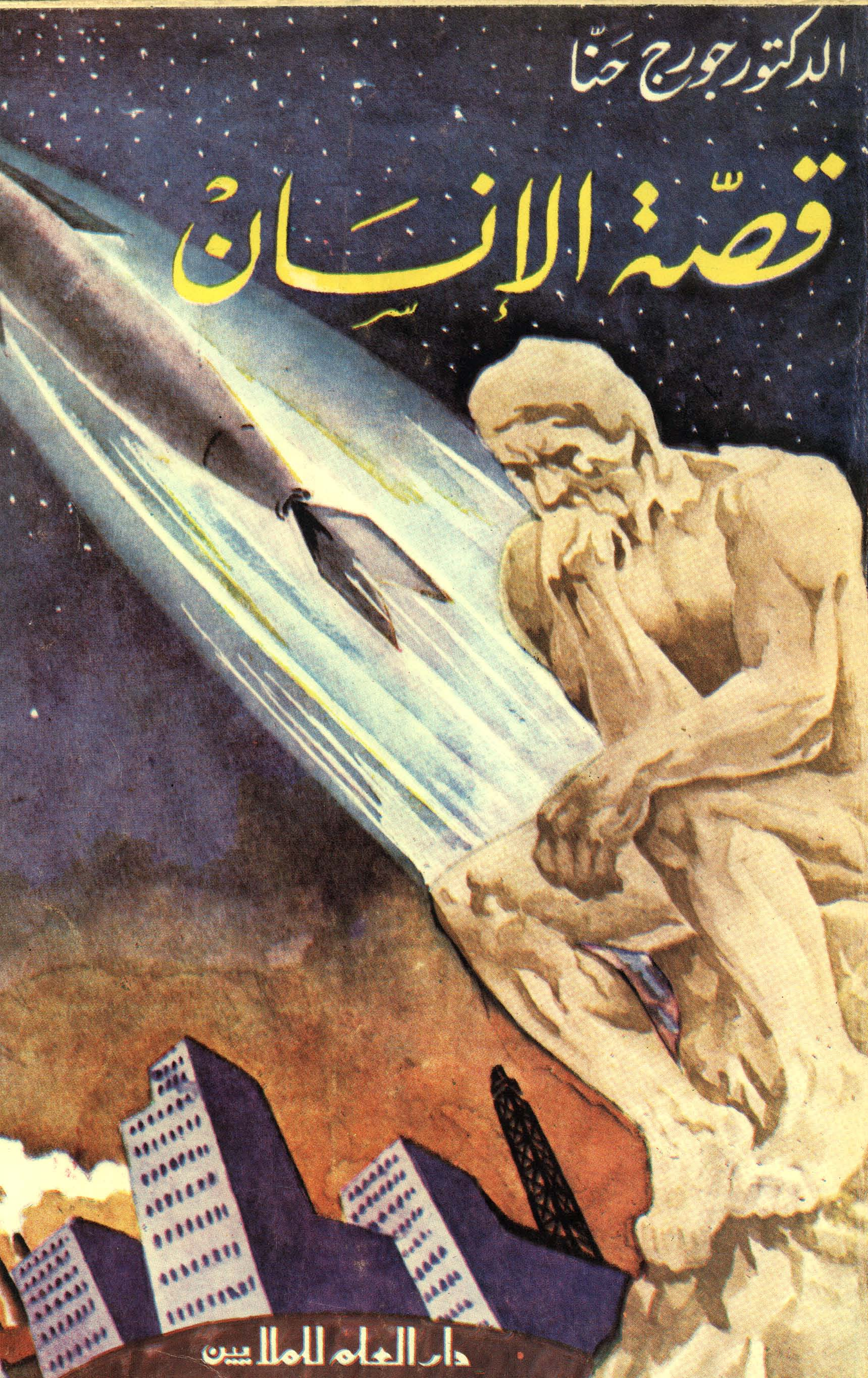


الدكتور جورج حنّا
قصّة الإنسان
دار العلم للملايين

قصة الانسان

قصة الانسان

بقلم
الدكتور جورج حنا

دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢-٢٩١٠٢٧

الطبعة السادسة
أيَّار (مايو) ١٩٧٩

مقدمة الطبعة الثالثة

يجب عليّ أن أعتذر لقراء الطبعتين الأولى والثانية من كتابي « قصة الانسان » إذ اني توسعت في هذه الطبعة أكثر مما توسعت في سابقتيها. عذري ان قصة الانسان ليس لها نهاية لأن الحياة ليس لها نهاية. فحاضرها متعلق بماضيها، ومستقبلها متعلق بحاضرها. وعلى كاتب قصة الانسان ان يلملم من ماضيها ما يعينه على تفهم حاضرها، وما يعينه على التكهن بمستقبلها.

وتاريخ الانسان خزانة مليئة بالاشياء، المكدّس بعضها فوق بعض. فكلما نبشتها وجدت فيها شيئاً جديداً لم تجده في المرة التي سبقتها، ويزوّدك هذا الشيء بزاد جديد في سفرتك مع الانسان، ويفتح لك أفقاً جديداً لاستكشاف حقيقته وأسراره، ومعرفة مدى تقدمه وتطوراته.

وحكايتي في كتابة قصة الانسان حكاية من يستهويه أمرٌ ما ولا يشبع من استطلاع ظواهره وخوافيه، فينكب على التفتيش عما يأخذه عنه من عبر ودروس، تساعده على فهمه وتفهيمه بالقدر الذي يستطيعه توخياً للنفع الذي يرجوه من تعريفه إلى الغير.

ليس في هذه الطبعة تغييرات عن الطبعتين الاولين، وإنما فيها بعض الزيادات والشروحات التوضيحية وتوسع في بعض البحوث. ألم يسبق لي ان قلت ان قصة الانسان إذا كان لها بداية فليس لها نهاية ؟

جورج حنا

١ . نشوء الحياة

•

نحن في حقبة من التاريخ تعود إلى ألفي مليون سنة إلى الوراء ... الفضاء كتلة من الهيولى الملتهبة .. شهب وضّاءة ومستقلة تحوم بسرعة لا يحدّها البصر ، حول محور يزيد في لمعانها واشتعالها .. أعمدة نارية ، وبراكين متفجّرة ، تتصادم .. ثم تمرّ ملايين السنين ، وتتباعد الاجرام النارية شيئاً فشيئاً .. ثم تنفصل وتغدو أجراماً متفرقة .. وإذا بالأرض كتلة غير مجزّأة ، تشتعل كالأتون .. وإذا بالأرض والقمر وبقية الاجرام، تدور حول الشمس ، ويخف لهيبها كلما ابتعدت عنها .. وإذا بالقمر ، يتوسط المسافة بين الأرض والشمس ، ويخفّف من حدّة اللهب الممتد اليها منها .. وإذا بالبخار يتحوّل إلى غيوم ، تتساقط أمطاراً على صخور الارض الملتهبة .. وإذا بأنهار تسيل ، وبحار تقطع اوصال الصخور الصلبة ، وتحولها إلى تراب مستنقع ، في مجار وبحيرات حارّة ، ليس فيه أيما أثر من الحياة ، لأن الحياة لا تقوى على مغالبة اللهب والاشتعال والسكنى فيهما .

ومرّ من هذا الزمن التقريبي نصفه أو أكثر .. فانطفأت إلى حدّ ما درجة الحرارة في كوكبنا . على انه لم يتبين أيما أثر يدل على وجود حياة في تلك الحقبة الطويلة .. فلا بقايا عضوية حفريّة ، ولا جذور كلسية ،

ولا شيء مثل هذا يلمح إلى وجودها .. غير ان اكتشاف بعض بقايا كربونية في صخور ذلك العهد ، جعل علماء الآثار ، يرجعون عمر الحياة إلى ذلك التاريخ البعيد ، اعتقاداً منهم بأن تلك البقايا الكربونية مصدرها تفاعل كيماوي بين ذرات ذات حياة .

ويجزم علماء الآثار ، ان ظهور الحياة كان في المياه المستنقعة .. كان ذلك قبل أن تبرد حرارة اليابسة .. ولكن المياه ، بحكم حركة المدّ والجزر ، تقذف ما يعيش فيها من ذرات الحياة المائية إلى اليابسة المحيطة بها ، فلا تلبث الذرّات الحياتية أن تموت . على ان من بين نواميس الطبيعة ، ناموساً اسمه ناموس التكيّف .. وبموجب هذا الناموس ، استطاعت الذرات الحيّة ان تركّز نفسها في اليابسة ، مستعينة على البقاء والنموّ برطوبة الأرض القريبة من المستنقعات ، فتنمو جذورها في طيات هذه الأرض ، وتنقل رطوبتها إلى الجذوع النامية فوقها ، مقاومة بها الحرارة .. ذلك كان شأن الحياة النباتية .. أما الحياة الحيوانية ، وهي ليس لها جذور تستمد منها الرطوبة ، فقد كان عليها أن تكيّف نفسها بطريقة أخرى في معركتها من أجل البقاء . وكانت هذه الطريقة تغليف نفسها بصدف كلسي للوقاية من الحرارة .

ولكن الحياة ، لكي تبقى حيّة ، تحتاج إلى أكثر من رطوبة وغلاف، يقيانها خطر الحرارة والجفاف .. إنها تحتاج إلى الغذاء ووسائل البحث عنه .. ولذلك كان طبيعياً ومحتماً أن ينشأ لهذه القبيلة المائية ، الزاحفة إلى اليابسة ، فم لتأكل ، وعين لتنظر ، ومخالب لتقضم ، وأعضاء تمكنها من الحركة ومصارعة الاحوال الطبيعية وهلمجرّا .. هذا ما كان على الناموس الطبيعي ونظام التكيّف ، ان يؤمناه لبقاء الحياة ، طبقاً لنظرية « دارون » في النشوء والتحوّل والارتقاء .

* * *

كانت نظرية دارون ، لقرن مضى ، موضوعاً للنزاع والمساجلة ..

كان الدين ينكرها .. وكانت الكنيسة تكفّرها ، باعتبارها إنكاراً لوجود الخالق .. غير ان النظرية الداروينية لا تنفي وجود الخالق ، كما انها لا تتعرض لاثبات وجوده .. ما تنكره هذه النظرية ، كون الانسان خلق انساناً على الشكل الذي هو عليه الآن .. وتقول ان الانسان صار إلى ما هو عليه ، عن طريق النمو والتحوّل والارتقاء ، بمقتضى ناموس الاصطفاء النوعي الطبيعي .. وهو الناموس الذي تحقق داروين من وجوده ، أثناء دروس قام بها في جولته الدراسية في انحاء امبركا الجنوبية ، واختباره طريقة الاصطفاء النوعي الاصطناعي التي يستعملها النباتيون في تطعيم الانواع النباتية ، وتحويلها من نوع إلى نوع آخر .. من هذا الاصطفاء النوعي الاصطناعي ، انبثقت نظرية داروين في الاصطفاء النوعي الطبيعي ، باعتبار ان في الطبيعة عناصر تستطيع ان تعمل ما يعمله الانسان .. بل ان عمل الانسان ، ليس إلا متمماً لعمل الطبيعة واشتقاقاً منه .

أما داروين فلم يتطرق إلى السؤال : من أين نشأت الحياة أو كيف نشأت .. ولم يتعرض إلى البحث فيما إذا كانت الحياة هي خلق من قوة فوق الطبيعة أم هي حصيلة تفاعل بين مواد غير ذات حياة .. فنظرية داروين انطلقت من كون الحياة وُجدت في البيئة المائية ، بطريقة ما ، ثم تدرجت على ممر الاجيال إلى حياة نباتية حول المستنقعات التي ظهرت فيها ، وبعدئذ تدرجت ارتقاء إلى حياة حيوانية بدائية ، فإلى حيوانات أكبر فأكبر ريشية ومجنّحة .. فحيوانات أعلى ذات فقرات ، فقرود فيها شبه بالانسان .. فانسان أول لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلّم .. فالانسان الحاضر بعقله وإدراكه وتفكيره .. وهو المرحلة الأخيرة ، ولربما ليست النهائية التي يوصل اليها التطور الحياتي . غير ان نظرية داروين ، بعد أن وطّدت البحوث العلمية ثبوتيتها ، أهابت بالعلماء البيولوجيين للبحث عن نشأة الحياة الأولى ، مما حوّل نقمة فلاسفة

الميتافيزية والروح عن داروں إلى هؤلاء العلماء الجدد .. وكانت الواقعة بين هؤلاء واولئك ، أي بين فلاسفة اللاهوت والميتافيزية من جهة وفلاسفة العلم والمادة من جهة ثانية .. ولا بدّ لهذه الواقعة ان تنتهي كما انتهت واقعة داروں ، ما دام العلم سائراً في مجراه ١ .

---

١ — إن العالم السوفياتي « اوبارين » بعد تجارب علمية طوال ثلاثين سنة في مختبره بموسكو أثبت امكانية استخراج مادة البروتين بواسطة التفاعل بين مادة عضوية ومادة غير عضوية . وهذه المادة البروتينية ، التي هي لب كل حياة ، تخضع لناموس النمو والتحول والارتقاء . وبمقتضى هذا الناموس أصبحت ، على مر الاجيال وملايين السنين ، قادرة على الاستحالة الغذائية **Metabolism** . ويقول « اوبارين » ان ما يستطيع الانسان أن يأتيه في المختبر من الاولى ان تستطيعه النواميس الطبيعية . من هنا يخلص « اوبارين » إلى الجزم ان الحياة الاولى انبثقت من التفاعل بين مواد عضوية ومواد غير عضوية ليست بذات حياة ، ما دامت المادة دائمة التحرك والتحول والتدرج . على ان « اوبارين » عندما يسأل عما إذا كان هذا التفاعل الكيمي والبيولوجي الذي أظهر الحياة الأولى إلى الوجود من ملايين السنين ، لا يزال قادراً الآن على بعث الحياة في أرضنا هذه يجيب ، إذا كان بعث الحياة عن طريق التفاعل المادي الطويل الامد ، لا يزال ممكناً في كواكب أخرى غير كوكبنا ، يعني الارض ، ففي هذا الكوكب لم يعد له مكان ، ما دام هذا البعث أصبح يحدث عن طريق أسرع وأقرب ، وهو طريق التوالد البشري الزواجي . ذلك لأن التفاعل الجديد حل محل التفاعل البدائي البيولوجي والكيمي ، وجعله غير ذي لزوم ، شأن كل شيء لا لزوم له . ويقول « اوبارين » إذا كان هناك كواكب لا نعرفها ، ليس فيها حياة ، ويجري فيها تفاعلات عضوية كالتي كانت في كوكبنا الارضي قبل ملايين من السنين ، فلا يستبعد أن تنبعث الحياة من هذه التفاعلات كما انبعثت في أرضنا ، التي قطعت مرحلة التفاعل البدائي ووصلت إلى مرحلة التفاعل الاعلى ، وهي مرحلة بعث الحياة بواسطة التزاوج بين الجنسين .

(للاستزادة من هذا البحث تراجع بحوث البروفسور « اوبارين » في مجلة فوكس العلمية عدد يناير ١٩٥٤) .

ومهما كانت الطريقة التي نشأت فيها الحياة فالعنصر الحياتي يفرض التوالد والتكاثر ، ويفسح مجالاً للصراع بين الاحياء في سبيل البقاء والنمو والازدياد . فعندما غزت القبيلة المائية اليابسة ، وجدت نفسها في محيط يختلف كل الاختلاف عن المحيط الذي كانت فيه من قبل ، وكان على أفرادها ان يصارعوا الاحوال الطبيعية من أجل بقائهم ، مما سمّاه داروين تنازع البقاء وبقاء الأنسب ، على نحو يفسّر تغيّر الانواع وتحوّلها من نوعٍ إلى نوعٍ آخر . فالتوالد من شأنه ان ينقل الخصائص من الآباء إلى الأبناء . وحيث ان الخصائص الموروثة ، قابلة للتكيّف بالمحيط الخارجي ، وبعضها غير قابل ، كان من الطبيعي أن تبرز في الابناء خصائص تختلف إلى حدّ كبير أو صغير عن خصائص الآباء . وفي هذه الخصائص الموروثة والمكتسبة ، ومقدرتها على التكيّف وفق الاحوال الطبيعية ، امتحان لبقاء القابلية في الحيوان . ولما كانت شروط الحياة في تغيّر مستمر كان تغيّر الخصائص في النوع عن طريق الاكتساب والتكيّف سبباً لتحول النوع نفسه ، وتحوّل الفصيلة النوعية من فصيلة غير فقرية مثلاً إلى فصيلة فقرية ، أو من فصيلة مريّشة مجنّحة إلى فصيلة ذات ثدي وهلمجرا .

إن نظرية التحول والارتقاء لم تكن من وحي داروين . فقد قال بها علماء قبله ، أهمهم « لامارك » الفرنسي . غير ان لامارك كان يرجع ذلك إلى المصادفات والزمن ، دون أن يضع لها تفسيراً علمياً . فجاء داروين يعطي لها تفسيراً علمياً ، هو الاصطفاء النوعي الطبيعي ، الذي لولا وجوده في الطبيعة ، لما أعطى الاصطفاء النوعي الاصطناعي ، كما يجريه المزارعون ، أيما نتيجة ، إذ ان هذا الثاني هو اشتقاق من الاول وبرهان عملي على وجوده .

وإذا أخذنا بالنظرية الداروينية ، التي أصبحت في نظر العلم حقيقة لا يُشك بصحتها ، وجب علينا في هذا البحث أن نعود إلى الوراء ،

لنرى كيف تطورت الحياة منذ ظهورها إلى يومنا هذا ، كيف انتقل الاحياء من طور إلى طور ، وكيف تحول المجتمع الانساني ، وكيف انبثقت الشرائع والانظمة والحضارات ، وما هو انسان اليوم بالنسبة إلى انسان التاريخ ، وما هي القيم الانسانية ، وماذا كانت نتيجة التحول العضوي ، وماذا كان تأثيره في حياة الانسان وأوضاعه الاجتماعية والنظامية . إن ما يتمتع به انسان اليوم من حضارات وعمران وتقدم ، ليس وليد العفوية ، بل هو وليد سلسلة من التفاعل العضوي والطبيعي ، ووليد سلسلة من التفاعل العقلي والادراكي . هي قصة بدأت منذ ملايين السنين ، ولما تنته بعد ، وليس طبيعياً ان تنتهي أو تقف عند حدّ .

٢ . هذا الانسان

•

اختلفت آراء العلماء في تأريخ نشوء الانسان ، الذي هو آخر مرحلة وصل اليها التطور النوعي الحياتي . فبعضهم ارجع هـذا التاريـخ إلى أربعين ألف سنة أو أكثر قليلاً ، مدللاً على ذلك باكتشاف آثـار لجمجمة انسانية في « النياندرتال١ » مما حمل على الظن انهـا جمجمة الانسان الاول .. وقد عاش هذا الانسان في العصر الجليدي ، عندما كانت أوروبا رقعة من الجليد ، وعندما لم يكن هناك فاصل مائي بـين انكلترا وفرنسا ، المعروف اليوم باسم بحر المانش ، وعندما كان البحر المتوسط والبحر الاحمر ، عبارة عن واد سحيق ، تنتثر فيه هنا وهناك بحيرات صغيرة ومتفرقة ، وعندما كان الصقيع يكتسح كل الاراضي الواقعة في شمالي افريقيا .

كان هذا الانسان يختلف عن انسان اليوم .. كانت جبهته ضيقة ، وفكّه ناتئاً ، وعنقه لا يلتوي ، بحيث لا يمكّن صـاحبه من الالتفات إلى الوراء ، ورأسه كبير الحجم من الوراء وصغيره من الامام ، ممـا يدلّ على عدم اكتمال تطوره الدماغي ، كما يـدل على النقص العقلي

---

١ – النياندرتال **Neanderthal** واد على أحد روافد نهر الرين في أوروبا .

والادراكي فيه .

ومرت آلاف السنين ، فزحف على هذا الانسان زميله « الروديسي ٢»
حيث المناخ أكثر حرارة من الشمال .. وكان هذا الانسان الزاحف شمالاً
أكثر شبهاً من زميله النياندرتالي بانسان اليوم ، تركيباً وادراكاً وتفهماً .
على ان بعض العلماء الآثاريين يُرجعون تاريخ الانسان الروديسي إلى
عهد أقدم من عهد الانسان النياندرتالي .

ولا يزال علماء الآثار يعملون حتّى الآن على اكتشاف بقايا الانسان
الأول .. وإذا كان هؤلاء العلماء قد اكتشفوا أول ما اكتشفوا ، آثار
الانسان النياندرتالي ، فلعل مرجع ذلك إلى أن أكثرهم من الاوروبيين
الذين حصروا جهودهم في أوروبا وفي البلدان التابعة لها والواقعة تحت
نفوذها . فقد اكتشف حديثاً هيكل عظمي انساني وأدوات للاستعمال
المعيشي في جوار انطلياس من اعمال لبنان ، ترجع إلى حوالي سبعين
ألف سنة . كما اكتشفت أيضاً آثار مثل ذلك في منطقة مدينة حلب في
سوريا ، ترجع هي أيضاً ، حسب تقديرات مكتشفيها ، إلى حوالي ذلك
التاريخ . وما دام علماء الآثار ناشطين في أعمالهم ، فقد تظهر اكتشافات
أخرى تدلّل على ان عمر الانسان أبعد قدميّة مما هو معروف حتّى الآن،
إذ ان أكثر العلماء يقدرون ، نظريّاً ، ان الانسان الاول وجد قبل
مئات الالوف من السنين ، وهم في دأبٍ حثيث بالتنقيب عن اكتشافات
أثرية تثبت نظريتهم هذه .

على ان علماء الآثار يرجحون ان الانسان الاعلى ، كما نعرفه اليوم ،
شكلاً وادراكاً ، إنما يرجع تاريخه إلى ثلاثين ألف سنة أو ما حواليها .
إذ أن زميله الذي عاش قبل هذا التاريخ ، وان كان مقارباً في شكله
للانسان الحالي ، فقد كان أقرب إلى المعيشة الحيوانية منه إلى المعيشة

---

٢ – نسبة إلى روديسيا وهي مستعمرة بريطانية في جنوبي افريقيا .

الانسانية ، لا يعرف في حياته نظاماً ولا قاعدة ، يسكن الادغال ، ويعيش على صيد الوحوش ، ويلتهم لحومها نيئة ، ويأوي في البراري والمغاور ، وينزع إلى القتال ، متخذاً من الحجارة سلاحاً له .. فعصره كان عصر الحجر ، ليس فيه من الآلات غير الآلات الحجرية .. ولم يكن جدنا هذا لسناً ، إذ ان اللغات لم تكن موجودة في ذلك الحين . كان يتفاهم ، أو يتخاصم ، مع اقرانه بمقاطع ونبرات صوتية واشارات . وعلى الجملة ، فلم تكن ثمة انسانية في الانسان الاول ذاك .

على ان هذا الانسان ، على قلة ادراكه ، لم يكن محروماً حرماناً كلياً من الشهوات والمقدرة على التصور ، بل كان له منها ما يقوده في مسلكه واعماله وعلاقته مع رفاقه ، إلى نوع بدائي في الحياة الجماعية.. وإذا كانت هذه الحياة لا تشبه بشيء الانظمة الاجتماعية المعروفة ، فقد كانت على كل حال ملازمة للمقتضيات الطبيعية ومأخوذة عنها .. فالذكر كانت تجتذبه الأنثى ، والأنثى يجتذبها الذكر ، ناموس الطبيعة في التوالد والتكاثر . والتآلف والقتال كانا تبعاً للشهوات ، والتمازج بين هؤلاء الناس كان رهناً بالصلة الغريزية بينهم .. كانت الأم صاحبة المقام الاول في العائلة ، وكانت الألاهة في القبيلة ، إذ لم يكن عند اولئك الناس آلهة غيرها . ومن الوهية الأم انبثقت فكرة التأليه والعبادة والاحترام .

وعندما أخذ الانسان يتحول من المعيشة الجماعية البدائية إلى المعيشة الجماعية الاجتماعية ، على ما في هذه الاجتماعية من فروق بينها وبين الاجتماعية الحقة ، كان لا بد من قيام أفراد يتولون السلطة والسلطان ، محافظة على كيان القبيلة ، أو محافظة على ما نسميه اليوم السلامة العامة والنظام .. فكان يتزعم القوم أكثرهم قوة وشجاعة وبأساً ، فيقضي فيهم ويكتسب طاعتهم وثقتهم .

في ذلك الحين ، لم يكن للدين أيما أثر في حياة الجماعة البشرية .. ولم يكن عندهم آلهة يعبدونها غير الأم ، ولكن كانت تطرأ عليهم أحياناً طوارئ غريبة تزعج ذهنيتهم الفطرية ، ولا يعرفون لها تفسيراً .. من هذه الطوارئ مثلاً ، أشباحٌ كانت تتراءى لهم في الاحلام ، وتخيل لهم انها صادرة عن قوة خارقة ، لا يدركونها ، ولكنها قادرة على أن تتحكم بهم وتسيطر على أعمالهم وحياتهم . كما كان يخيل اليهم ان هذه القوى ، قد تكون متجسدة في شكل انسان أو حيوان أو شجرة أو أيما شيء آخر ، فيفزعون إلى هذه القوى في كروبهم ، ويستنجدون بها في محنهم ، وينسجون حولها الأساطير والخرافات . ثم أخذت هذه الأساطير والخرافات تستحيل إلى عقائد غيبية ، مما وطد فيهم فكرة الالوهية والدين والعبادة .. وأصبح مفسرو الاحلام والمشعوذون كهاناً ، وأصبحت الاماكن التي كانت تظهر فيها الاشباح مزارات وهياكل ، يؤمونها للتبرك أو لتقديم الذبائح لآلهتها ، تجنباً لما قد يصيبهم من نقمتها عليهم إذا غضبت .

هكذا بقي الانسان الأول أجيالاً وقروناً ، يعيش في الأدغال ، ويقتات من الصيد وأكل الأعشاب البرية ، إلى ان أدرك بالاختبار ، ان الارض تنبت العشب في بعض فصولها السنوية ، بينما تجدب في فصول أخرى .. وعلمته الحاجة أن يلجأ إلى زرع الاعشاب في الفصول المخصبة مدفوعاً إلى ذلك بغريزة حب البقاء .. ثم علّمه الاختبار أيضاً ، ان خصب الارض وجدبها رهينان بحالة الطقس والجو . وألهبت القوم نشوة الفرح لهذا الاكتشاف الاختباري ، فكانوا يقيمون الاعياد في بدء المواسم الخصبة ، ويقدمون الضحايا قرباناً لها ، مختارين من بينهم أحسن شبابهم وأجمل فتياتهم ، ويذبحونه تكريماً لآلهة الموسم .. فاذا أخصب الموسم ، ولو مصادفة ، كانوا ينسبون هذا الخصب إلى فعالية القوة الخفية ،

وتزداد رسوخاً في أذهانهم فكرة الآلهة القادرة . وقـد بقيت هـذه العادة آلاف السنين ، وفي بعض المجاهل الغارقة في بدائيتها لا تزال باقية حتى الآن ، إذ أن الانسان في هذه المجاهل ، لم يدرك بعد ، ان العلوم الطبيعية لا الآلهة ، هي التي تخصب الارض ، وتعالج جدبها ، وهي بالتالي التي يجب ان يستجير بها الانسان في معرفته لأزمنة الخصب والجدب .

٣ . نشوء الحضارات والممالك

●

يجهل المنقبون ما كانت عليه حياة أجدادنا الاقدمين قبل عشرة آلاف سنة ، وكيف كانت مدنيّتهم – إذا جازت الكلمة – إذ لا يوجد من الآثار الدالة على ذلك غير ما يستنتجه الباحثون في العلوم الطبيعية والبيولوجيّة .. وقد أجمع المؤرخون على ان يبدأوا ابحاثهم ودروسهم التاريخية من عشرة آلاف سنة ... والجدير بالذكر ، ان معالم هذا التاريخ تبدأ في عالمنا الشرقي العربي . ففي البلاد الواقعة بين النهرين دجلة والفرات ، المعروفة باسم العراق ، وفي وادي النيل ظهرت أول مدنية عرفها التاريخ .. ولقد كان لخصب التربة في هذه الاقطار ، الفضل في ظهور هذه المدنية لأن خصب التربة أفسح المجال لامكان المعيشة في الاراضي التي تستقي من الانهر الثلاثة ، أي دجلة والفرات والنيل ، وتخصب تربتها ، وتقيت العائشين فيها .. من أجل هذا كان الناس يتواردون على هذه الاقطار ، يسكنونها ، ويشتغلونها ، ويستثمرون مواردها الطبيعية ، ويعيشون فيها عيشة جماعية ، يتعاونون ويتبادلون ، ويحرثون الأرض ، ويأكلون من خيراتها ، ويساكنون بعضهم بعضاً ، ويتزاوجون ، ويتوالدون ، ويؤلفون أول مجتمع انساني في التاريخ المعروف .

* * *

كانت هذه المجموعة البشرية ، النازلة في الاقطار المحيطة بأودية دجلة والفرات والنيل ، أوّل من كوّن حضارة ، يجوز ان تسمى بهذا الاسم .. وقد أدرك أفرادها فائدة الزراعة والحراثة ، وقيمة الأرض ، وألفوا الحياة الاجتماعية .. مما جعلهم ينظمون مجتمعهم وينشئون المدن ويقيمون الصلات بينهم ، على طريقتهم البدائية .. كانت كل مدينة مستقلة عن غيرها ، لها هياكلها وآلهتها وكهانها . وكان الكهان يتمتعون بصفات دينية ، كما يتمتعون بصلاحيات مدنية ، يقضون بين الناس ويفسرون الاحلام ، ويعالجون المرضى بالتعاويذ والشعوذة ، بغية طرد الارواح الشريرة ، التي كانوا يزعمون انها سبب الامراض .. وكانت العامة تلجأ اليهم ، وتستشيرهم في جميع شؤونها ، وتحترمهم أو تخافهم لاعتبارهم أكثر منها تفوقاً بالخبرة ، وأقوى منها سطوة وأشد منها بأساً . كان الكهان هم الملوك ، وهم الزعماء وهم الفلاسفة ... كانت كلمتهم مسموعة ومقبولة دونما جدل ، وكان أمرهم مطاعاً ، وحكمهم قانوناً . ولعل الزعامة الزمنية التي يتمتع بها رؤساء الأديان في الشرق أكثر من زملائهم في الغرب ، لعلها ارثٌ لعادات وتقاليد وعقائد درج عليها اولئك الاجداد .

* * *

وعندما تعددت القبائل ، وازداد عدد المدن ، وكثر الكهان والملوك والآلهة ، كان طبيعياً ان يحدث بين هؤلاء تزاحم على الزعامة ، وبين الناس الذين يتبعونهم تزاحمٌ على المغانم ووفرة العيش .. وإذ لم يكن عندهم وسيلة للمزاحمة غير التقاتل فيما بينهم ، فقد كانت هذه الوسيلة الوحشية الحكم الوحيد في الفصل بشؤون الجماعات .

كانت المدينة الواحدة ، بأمر الكاهن الملك أو الملك الكاهن ، تغزو جاراتها ، حتى إذا تغلبت عليها ، استعبدت سكانها ، وهدّمت هياكلها ، وأسرت كهانها وملوكها ، أو قتلتهم ، وضمت المدينة

المغلوبة إلى ممتلكاتها .. ومنذ ذلك العهد ، ابتدأ الناس يستعبدون بعضهم بعضاً ، وينقسمون إلى طبقات متفاوتة ، في المجد والسؤدد والكرامة ووفرة المعيشة .. وأخذت تتشكل في البشر طبقات وفئات .. فئة الملوك وفئة الكهان ، وفئة المقاتلين ، وفئة الاحرار ، وفئة العبيد وهلمجرّا . وكانت نتيجة الغزو والتقاتل والتحارب ، تغلّب ملك على ملك ، وتوسع مدينة على حساب مدينة أخرى ، واستعمار مملكة لمملكة ، وكانت المدينة المنتصرة تحتل مقام الزعامة على المدن المغلوبة ، وتؤلف امبراطورية هي عاصمتها ، وملكها سيّد عليها وعلى أهل المدن التابعة لها .

* * *

وهكذا نرى ان الحياة جعلت تأخذ صفتها الجماعية منذ ذلك الحين . وكانت الامبراطورية الأولى التي عرفها التاريخ ، هي تلك التي امتدت من خليج العجم إلى البحر الأحمر .. فنشرت هذه الامبراطورية مدنيتها في الأقطار المجاورة لها .. وعرفت فيها الكتابة لأول مرة .. وإذ لم تكن الحروف الهجائية قد وضعت بعد ، فالكتابة في تلك الامبراطورية كانت كناية عن صور ورسوم ترمز للاشياء المعناة ... وكانت هذه الرسوم والصور تُنقش على قطع من الطين ، حتى إذا جفّ هذا ، ظهرت عليه الرسوم كأنها محفورة فيه .. وكانت هذه القطع المنقوشة تقوم مقام الكتب ، وتتداولها الأيدي لمعرفة ما كان يقصده النقاشون . على انه مع قيام الامبراطورية المصرية في وادي النيل ، عني سادتها بايجاد طريقة جديدة للكتابة ، فكانت الهيروغليفية في شكلها التصويري الاوضح من الكتابة النقشية القديمة ، هي التي سهلت شؤون التعامل بين الناس . وبقيت الكتابة الهيروغليفية ، الوسيلة الفضلى للتفاهم، إلى أن اخترع الفينيقيون حروفهم الابجدية ، التي كانت أساساً لكل اللغات التي ظهرت بعدها . ومع ان الفينيقيين وجدوا مفتاح حروفهم الجديدة في الهيروغليفية ، فلم يتنازل المصريون عن كتابتهم ، وبقو

مصرّين عليها مدة طويلة ، تدليلاً على مكانة امبراطوريتهم الزعاميّة . وكانت الايام وحدها هي التي قرضت الكتابة المصرية الهيروغليفية ، وأبقت على الكتابة الجديدة ، لكونها الأنسب والاصلح والافيد .

* * *

والفينيقيون قبيلة سامية زحفت من شواطئ خليج فارس واستوطنت شواطىء المتوسط ١ منذ خمسة آلاف سنة . وقد امتازت هـذه القبيلة بالمغامرات والاسفار وحب التجارة . وقد توسعت مـن على شواطئ المتوسط إلى النواحي الداخلية في لبنـان على حدود سوريا ، وذلك بعد الفتح الروماني ، بحيث صار يطلق عـلى القسم البحري اسم فينيقيـا الساحلية للتمييز بينه وبين فينيقيا الداخلية . وكان الفينيقيون يشيّدون المدن المستقلة واحدتها عن الأخرى ، بملوكها وآلهتها وأساطيرها . وكانت أهم هذه المدن جبيل صاحبة عشتروت وأدونيس ، وصور وصيـدا وأرواد وبيروت . وبلغ حب المغـامرة في الفينيقيين ، ان قطعوا البحار على مراكبهم إلى شواطئ افريقيا ، حيث أسسوا مدينة قرطاجة ، وتابعوا أسفارهم إلى البحر الشمالي ، وإلى ما وراء الاطلنطي ، حسب روايـة بعض المؤرخين . على ان مـا امتاز بـه الفينيقيون أكثر من كل شيء مهارتهم التجارية والصناعية واختراعهم للحروف الابجدية ، التي كانت الاساس لكتابة الحرف فيما بعـد . وممـا لا شك فيـه ان طغيان العقلية التجارية على الفينيقيين جعلهم عديمي الاهتمام بالسيادة القبلية . فباستثناء حروبهم مع روما الـتي برز فيهـا قائدهم « هانيبال » كانت سياسـة الفينيقيين سياسة تجارية بحتة ، يتجهون فيهـا شطر الجهة التي يأتيهم منها

١ – من المؤرخين من يقول ان الفينيقيين لم يأتوا إلى لبنان من شواطئ خليج فـارس بل بالعكس . فالكنعانيون ، حسب قول هؤلاء المؤرخيـن ذهبوا من شـواطئ لبنان إلى الخليج الفارسي في اسفارهم التجـارية ، قبل ان يسموا بالفينيقيين ، إذ ان هذا الاسم اطلق عليهم فيما بعد عندمـا استعمل الاغريق هذه الشواطئ ودعوها فينيقيا .

الربح أكثر من غيرها ، ومثلهم الاعلى ، الكسب عن أيما طريق كان . ولعل العبقرية التجارية التي يمتاز بها سكان لبنان المحدثين وأحفاد الفينيقيين هي من الارث الذي أخذه هؤلاء عن أجدادهم القدماء .

* * *

كان ازدهار الحياة في « المدن الممالك » مثيراً لطمع القبائل الرحّل ومطمحاً لغزوها . فغزا أرض الفرات قوم من الرعاة اشتهروا بالبأس ، واستعمروا البلاد ، وحكموا أهلها ، وأسسوا المملكة البابلية . واستعمر وادي النيل فرعٌ ثان من الساميين ، وأسسوا المملكة المصرية . وكانت هاتان المملكتان باكورة الحكومات التي شرعت الانظمة وسنّت القوانين. في ذلك العهد الذي يرجع إلى أربعة آلاف سنة ، سنّ الملك حمورابي البابليّ الشريعة المعروفة باسمه ، وهي أول شريعة حكومية عرفها التاريخ ، فكان الناس يتقاضون على أساسها ، وكانت النظام الوحيد لتوزيع الحقوق وفرض الواجبات .

ومن ذلك الحين أخذت تتعاظم سلطة الملوك ، واشتد بأس الغزاة والفاتحين ، وكانت الحروب هي الحكم الوحيد بين القبائل . وكان الشعب المنتصر يستعبد الشعب المغلوب ، ويفرض عليه العقوبات ، ويبيد آلهته ، ويجمع منه الجزية والغرامات العينية ، إذ ان النقد لم يكن قد ظهر بعد إلى الوجود . وكان التعامل بين الناس يجري على أساس المقايضة .

والمظنون ان النقد لم يكن موجوداً قبل قيام الامبراطورية الفارسية العظمى ، التي حكمت بلاد فارس ، واستعمرت آسيا الصغرى ، وسوريا ، ومملكتي اشور وبابل ، ومصر ، وقسماً من الهند ، ووصلت في غزواتها إلى اليونان . وكان الفضل في ايجاد النقد للامبراطور داريوس بقصد تسهيل التعامل والتجارة في ارجاء امبراطوريته الشاسعة . وكان لايجاد النقد أثرٌ هام في المعاملة بين مختلف الشعوب ، مما جعل التجارة

تحتل المقام الأول في مدنية ذلك العصر ، لكونها صلة الوصل بين مختلف الممالك والشعوب .

وبقيت الممالك في حروب مستمرة ، كما بقيت الشعوب رازحة تحت وطأة المطامع والفتوحات . كان الملوك في أكثر الاحيان ينتحلون صفة الألوهية ، فيعبدهم الشعب ، ويخلص لهم ، ويستميت في المحافظة عليهم والدفاع عنهم . وكان الناس ، إلى جانب عبادتهم للملك الإله ، يجسّدون آلهة أخرى ، إما بظاهرات طبيعية : كالرعد والبرق ، أو بسيارات واجرام فلكية ، كالشمس والقمر ، أو بحيوانات تدبّ على الاربع ، كالعجل والبقرة . كانوا يقيمون من هذه الآلهة ، واحداً للحرب ، وواحداً للحب ، وواحداً للانتقام وهلمجرا .. وكانوا يبنون لها الهياكل ، ويسخرون الجماهير المستعبدة لتشييدها ، ويذبحون فيها الذبائح ، الحيوانية والانسانية ، تقديساً لآلهتها . كان العمال يُساقون بالسلاسل ، ويُضرَبون بالسوط . وكان هؤلاء يكدحون تحت التعذيب ، إما خوفاً من بطش الرؤساء ، وإما خشية غضب الآلهة ، أو طمعاً بعطفها ورضاها . هكذا شيدت هياكل بعلبك ، واكروبول اليونان ، وأهرام مصر . وإذا أردنا تسمية الاشياء بأسمائها ، فليس من اسم يصحّ اطلاقه على تلك العصور ، أكثر من اسم عصور الاستعباد . على هذه الصورة كان يعيش الناس في تلك الازمان : قطيع من الغنم ، يسوقه رعاته ، يوماً إلى المرعى ، ويوماً إلى الذبح ، والقطيع يمشي وراء مايكه ويشكر الآلهة .

* * *

كانت مصر في ذلك التاريخ البعيد أكثر الممالك خصباً وغنى بفضل النيل السعيد . وكانت القبائل السامية النازلة في أراضيها ، في تنازع مستمر على السلطان والسيادة ، دون أن توفّق واحدة منها إلى توحيد السلطة . وإذا بقادة من سكان مصر الاصليين ، ينتفضون على القبائل

الغازية ، وينتزعون منها السيادة على بلادهم ، ويؤسسون الامبراطورية الفرعونية . حدث ذلك حوالى عام ١٦٠٠ ق. م. ولم تقتصر انتفاضة اولئك القادة على انتزاع السلطة من الغزاة الساميين وتأسيس الامبراطورية للفرعونية وحسب ، بل كانت فاتحة لمدنية جديدة ، مدنية الفراعنة . وبعد ان استقر الأمر للأمبراطورية الجديدة ، عمدت إلى نشر مدنيتها في الاقطار التي استعمرتها في سلسلة من الحروب والغزوات . وحالفها الفينيقيون ، إذ وجدوا في التحالف معها ، أو في الخضوع لها بدون قتال ، فرصة سهلة لتوسيع تجارتهم ، فقويت شوكة الامبراطورية الفرعونية ، وبسطت هذه الامبراطورية نفوذها على الكثير من الأقطار والاصقاع ، وخطبت ودها الممالك ، وخضع لأباطرتها الملوك ، مما أثار حسد الممالك الأخرى . فتوالت الحروب بين مصر وأشور تارة ، وبينها وبين بابل وسوريا تارة أخرى . وبين مدّ وجزر ، كانت مصر تسود مرة ، وتُغلب مرة ، إلى ان تغلب عليها الامبراطور الفارسي داريوس ، وأخضعها كما أخضع غيرها من الممالك ، وأنشأ امبراطورية شاسعة واسعة ، لم يعرف تاريخ تلك العهود أعظم منها . وكانت الضربة الحاسمة التي نزلت بالشعوب السامية ، على يد هذا الشعب الآري ، الزاحف من شواطئ بحر قزوين ، ومؤسس الامبراطورية الفارسية العظمى ، ومخضع الامبراطوريات المصرية والبابلية والاشورية ، وناشر حضارته فيها ، منتزعاً منها السيادة والسلطان ، بانتظار انتزاعهما منه ، على يد الاغريقيين ، كما سيأتي في فصل لاحق .

٤ . اليهودية على مسرح التاريخ

•

من الشعوب السامية التي هبطت أرض مصر ، شعب تميّز بجدّه وايمانه وعبقريته ، وانتهاجه فلسفة جديدة في الحياة ، هي فلسفة الروح.

لقد نشأ هذا الشعب في الصحراء ، كما نشأ غيره من الشعوب .

وإذ رأى انه ليس في الصحراء ما يشبع مطامعه ، شدّ رحاله إلى وادي النيل الخصيب قصد الارتزاق ، حيث جعل ينمو ويتوالد ويتكاثر مما أهاب بفرعون أن يخشاه ، ويضرب عليه نطاقاً محكماً ، وينزل به أقصى ضروب التنكيل والاضطهاد .

هذا ما جعل اليهود يهربون من أرض فرعون تخلصاً من حكمه ، ميمّمين شطر الصحراء ، وقبلتهم فلسطين ، الأرض التي أقنعهم قائدهم موسى بانها الأرض التي وعدهم بها ربهم على لسانه ، وأطلق عليها اسم أرض الميعاد .

كانت هجرة اليهود من أرض مصر ، بداية النشاط اليهودي عبر التاريخ ، هذا النشاط الذي لم يتحدث التاريخ عن نشاطٍ أقوى منه عند أي شعب آخر .

لقد دام تيه الشعب اليهودي في الصحراء أربعين سنة ، كما تقول الكتب المقدسة . وكان في تيهه كل هذه المدة ، عرضةً للعذاب والآلام

وشتى المصاعب .

كان هؤلاء التائهون ، في زحفهم نحو أرض الميعاد ، يصارعون الحياة بإيمانهم ان الربّ معهم ، وأنه لا بدّ موصلهم إلى الارض التي تفيض لبناً وعسلاً .. على ان ايمانهم هذا كان يضعف عندما تضيق عليهم سبل العيش ، فيتنكّرون لربّهم ، ويعودون عن عبادته إلى عبادة الاصنام .. ولطالما ثاروا على قائدهم موسى ، وعصوا أوامره وسفّهوا تعاليمه ، ونسبوا اليه الخيانة والخداع . .

ولكن موسى كان عبقريّاً حقاً ، وفيلسوفاً حقاً ، فاستطاع أن يقنعهم بأنه نبيّ الله ، وكليم الله .. وكان كلما حمي الصراع بينه وبينهم ، يفزع إلى خلوة ما ، ليعود اليهم برسالة يدعي انه أخذها من الله رأساً ، فيشدّد عزائمهم ، وينفخ فيهم روح الصمود على المصاعب بانتظار الأمل الموعود . وكان أعظم ما تجلّت فيه عبقرية هذا القائد ، اقناعه الشعب التائه ، انه هو الشعب الذي اختاره الرب الجبّار من بين كل الشعوب ، ليحكمها ويخضعها لمشيئته وأغراضه .

وقد رسخت هذه الفكرة في عقول اليهود ، وأضرمت فيهم شعلة الحماسة للجهاد في تحقيقها ، كما أدخل في عقولهم ، وحي من الاله الواحد الجبّار ، أنزل على نبيّهم وقائدهم موسى ، أثناء مناجاة بينه وبين ملاك الرب .

* * *

ليس هنا مجال البحث في الاساطير التي حيكت عن الشعب اليهودي أثناء تيهه في الصحراء .. ولكن من الانصاف ان نقول ، ان هذه الاساطير فعلت فعلها في الشعب التائه ، وجعلته يصمد على عذاباته ، كما ان من الانصاف أيضاً ان نعترف بأن الفلسفة التي تشرّبها موسى ، كانت موفقة جد التوفيق في نتيجتها .

لقد ابتكر موسى فكرة الاله الواحد غير المنظور وسحر بها شعبه .

قال موسى لليهود .. ويحكم أيها الناس ، ان الآلهة التي تعبدها الشعوب المتعددة هي من صنع البشر ، وهي عرضة للتحقر .. انها أصنام من صنع الناس ، وبمقدور الناس ان يكفروا بها ويحطّموها . كان يضرب لهم الامثلة عن شعوب حاربت شعوباً أخرى ، وتغلبت عليها فحطّمت أصنامها ، وأبادت آلهتها ، وأقامت محلهـا آلهة من صنعها هي . ثم يخلص إلى اقناعهم ، بأن إلـهَهم هم ، هو وحده إلـه الحقّ والقوة والصلاح ، ذو المهابة والوقار والسؤدد ، يضرب بيده الخفية جماعة الظالمين ، ويقود شعبه المؤمن إلى النصر على أعدائه . وقـد ادخل موسى في عقول اليهود ونفوسهم ، ان هذا الآله الجبّار قد اختارهم دون سائر الشعوب لكي يسودوا ويتحكموا بالاقطار والأمصار ، ويجلسوا سعداء في أرض الميعاد .

هكذا استطاع موسى وأخوه هارون ، الذي خلفه في القيادة بعد موته ، أن يثبتا في شعبهما فكرة الآله غير المنظور ، الذي لا تطاله يد ، ولا تراه عين ، حتى وصلا به إلى أرض فلسطين .

* * *

على ان اليهود بعد أن وصلوا إلى أرض فلسطين ، لم يتمكنوا من الاستيلاء إلا على قسمٍ صغير منها في الجبال ، حيث عاشوا قبـائل متفرقة يحكمها قضاة من أسباطهم الاثني عشر ... وما انشأوا مملكتهم إلا بعد وصولهم إلى فلسطين بخمسة قرون ، عندما جمعهم الملك شاوول في مملكة واحدة ، وأقام لهم مليكهم الثالث سليمان هيكل أورشليم . ثم لم يلبثوا بعد موته ان انقسموا إلى مملكتين : مملكة اليهودية ومملكـة اسرائيل .

إن التاريخ لا يروي أبداً ، ان اليهود امتلكوا أرض فلسطين كلهـا في أية حقبة من حقبات التاريخ . فالسواحل الفلسطينية كانت دائماً في حوزة قبـائل نزحت من جزر ايجـه ومـن أرض الفينيقيين والمؤابيين

والميديّين . وكانت هذه القبائل في حروب دائمة بينها وبين اليهود في الداخل . ولم يستطع اليهود ان يتغلبوا عليها ، بل على العكس كانوا دائماً خاسرين . فادعاء اليهود بأن فلسطين كانت كلها تحت سلطتهم ، ادعاءٌ يكذبه التاريخ .

* * *

لم يشتهر عن اليهود انهم كانوا في يوم من الأيام ذوي قوة عسكرية وحربية . وتاريخهم من هذه الجهة كان مجموعة من الانكسارات والاضطهادات والسبي والذلّ . وليست الاساطير التي ترويها كتبهم غير دعاوات اشتهر بها هذا الشعب القويّ الايمان بعقيدته الآلهية .

على ان ما اشتهر به هذا الشعب حدّة الذكاء ، وقوة المناعة المعنوية، وتعصبه للعقيدة التي بشره بها أنبياؤه وفلاسفته ، إذ كان هؤلاء حقاً عباقرة ، ووضعوا عبقريتهم كلها في خدمة شعبهم واذكاء روح الأثرة فيهم ، وروح الحقد على سائر الشعوب .

ومما يدلّ على مناعة الشعب اليهودي وأهليته ، انه لم يفقد ايمانه بعقيدته ، ولا تراجع عنها ، على الرغم مما حلّ به من اضطهادات وتشريد وسبي ، بل بقي شديد التمسك بفلسفته وتعاليم أنبيائه وقضاته وكهّانه ، ولم يتحوّل عنه طمعه بالاستيلاء ، ليس على أرض فلسطين وحسب ، بل على الأراضي المجاورة ، من حول الفرات إلى أرز لبنان ، كما تنبأ له نبيّه وقائده يشوع بن نون قبل العهد المسيحي بألف وستمائة سنة .

* * *

إن أعظم ما نفح به العالم هذا الشعب ، بعد توطيده فكرة الآله غير المنظور ، تدبيجه كتاباً مقدساً هو التوراة ، جمع فيه مجموعة الشرائع التي سبق ووضعها موسى عن لسان الله ، كما جمع فيها أيضاً كل الاساطير التي اختلقها له أنبياؤه وقضاته وكهانه ، عن الانتصارات

التي فاز بها على أعدائه ، والانتصارات الموعود أن يفوز بها في المستقبل القريب والبعيد ؟

والجدير بالذكر ، ان الكتاب هذا ، وضع أثناء أقسى محنة حلّت باليهود ، ذلك عندما خرجوا من عبوديتهم القاسية لبابل ، ليدخلوا في عبودية فارس ، الأقل قسوة إلى حدّ ما ، اذ سمح امبراطور فارس لكبير كهنتهم « ازدراس » ان يؤلف التوراة وينشرها بين قومه ، كما سمح له أيضاً بأن يعيد بناء هيكل سليمان ، الذي كان قد هدمه نبوخذ نصر البابلي ، أثناء عبودية اليهود لبابل .

* * *

مما لا شك فيه ان العقيدة الآلهية التي اعتنقها اليهود ، والتفوا حولها ، وتعصبوا لها ، إلى جانب الكتاب الذي وضعه لهم فلاسفتهم وأنبياؤهم وكهانهم ، كانت العامل الاكبر في صمودهم على محنتهم ، ونهوضهم من كبوتهم ، وتغلبهم على القوى الـتي كانت تضطهدهم . إن اليهود كما يروي التاريخ ، لم يكونوا يوماً محبوبين من الاقوام الأخرى ، لا بسبب عقيدتهم الجديدة وحسب ، بل بسبب تعصبهم لهذه العقيدة ، ونظرتهم من علٍ ، حتى في أثناء محنتهم ، إلى غيرهم ، وبسبب حبهم للأثرة ، وميلهم إلى العزلة ، وعدم التمازج مع الشعوب ، سواء في التزاوج أم المعاملة . إن الشريعة اليهودية لا تسمح بتهويد الخارجين عنها ، كما انها تقضي بأكثر ما يكون من القسوة ، بتكفير واضطهاد من يخرج من اليهود عليها . من أجل هذا بقي عدد اليهود في العالم محدوداً ، على عكس معتنقي الديانتين ، المسيحية والاسلام .

على ان هذا العدد المحدود ، الذي قد لا يكون يتعدّى الخمسة عشر مليوناً ، استطاع بتكتله الفائق الوصف ، وبتمكسه إلى أقصى حدود التعصب بعقيدته وشرائعه ، ان يحرز مكانة كبيرة في التاريخ ، ويتزعم إلى حدّ بعيد الحركة الاقتصادية في العالم ، ويشارك مشاركة مرموقة ، في

وضع الانظمة المدنية والسياسية ، ويحتل ، بفضل نفر ليس قليلاً من علمائه وعباقرته ، مركزاً ثقافياً واجتماعياً ، لا يتناسب مع عدده المحدود. ولو لم يتميز اليهود بالتعصب الجنسي والعرقي ، والغرور الديني ، والميل إلى العزلة وحب الاستئثار ، لكان شأنهم في العالم ارفع مما هو عليه ، ولما كانوا عرضة لكره الاقوام الأخرى وحذرها منهم ، ولما شحن التاريخ، القديم والجديد ، بأخبار اضطهاداتهم وتشريدهم .

٥ . الحضارة الاغريقية

●

بينما كان اليهود يعانون المتاعب في الشرق ، دون أن تعوقهم عن نشر رسالتهم الآلهية والدعاية لها ، هبط على جنوب شرقي أوروبا من الشمال في القرن العاشر ق. م. شعبٌ آري ، أدخل على مدنية العصر نوعاً جديداً من الثقافة ، مبنياً على البحث العلمي والفكري والمنطقي . ذلك هو الشعب الاغريقي ، الذي لم تستهوه روحانية اليهود ، ولا عقيدتهم بالآله الواحد غير المنظور والكلي القدرة ، فانصرف إلى البحث الفكري والمنطقي ، مقدراً قيمة العقل البشري في تفهم حياة الانسان ، ومنشئاً حضارة جديدة .

* * *

هبط هذا الشعب قبائل متفرقة ، وتغلغل فيما يدعى اليوم اليونان أو جزر ايجه . كانت هذه القبائل من برابرة الشمال ، لا يجمع بينها جامع ، غير أساطير توارثتها مع الاجيال ، كان أهمها تلك التي نظمها هوميروس بالياذته المشهورة ، واصفاً بها حصار القبائل الاغريقية لمدينة طروادة في آسيا الصغرى ، والبطولة التي أظهرها المحاصرون . وسواء كانت الالياذة من نظم هوميروس ، كما يقول بعض المؤرخين ، أم لم تكن ، كما يقول البعض الآخر ، الذين ينكرون وجود هوميروس بالذات ، فالشيء المتفق عليه ، ان الالياذة كانت إحدى الروابط ، ولعلها أهمها ، التي جمعت بين هذه القبائل المتفرقة ، وكانت موضوع

تغني الشعراء والخطباء واعتزاز القبائل كلها .

على ان هناك جامعاً ثانياً كان له أثره في تقريب هذه القبائل بعضها من بعض ، جمعاً روحياً على الأقل ، وهو العادة التي درجت عليها ، في إقامة حفلات الالعاب الاولمبية مرة كل أربع سنوات .

إن القبائل الاغريقية ، على الرغم من اختلاف نزعاتها ، وميلها إلى الاستقلال بعضها عن بعض ، كانت كلها في الاصل ، شغوفة بالغناء والشعر وانشاد الاساطير البطولية ، كما كانت أيضاً شغوفة بالمسابقات الرياضية . وهذه الفطرة فيها هي التي أهلتها للزعامة الحضارية والثقافية ، التي ما زالت حتى اليوم تحتل مكاناً مرموقاً في التاريخ .

إن الاعياد الاولمبية التي تقام في هذه الأيام ، ليست إلا امتداداً من الاولمبياد الاغريقي القديم ، الذي كان الاغريق يحتفلون به مرة كل أربع سنوات . كانت حفلة الأولمبياد الكبرى تقام على جبل الاولمب ، حيث يرتفع هيكل « زيس » الاله البطل أو البطل الاله . وعند الانتهاء من الحفلة الكبرى كان يزحف الرياضيون ، ويطوفون البلاد الاغريقية كلها ، والبلدان المجاورة أيضاً ، حاملين معهم الشعلة الرياضية ، التي كانوا يزعمون انها شعلة مقدسة .

من هذا يستدل على ان الحضارة الاغريقية لم تكن حتى في بدايتها ، حضارة روحانية كحضارة اليهود ، ولا حضارة فلسفة ومعرفة فقط . إنما حضارة فن ، ورياضة ، ومسرح ، وتاريخ ، وشعر ، وبطولة . هذا ما أحلها المقام الأول في التاريخ . والانصاف يقضي بالاعتراف ، بأنه لم يُعرف عن أمة ، قليل عددها ، كثيرة أمجادها ، كالامة الاغريقية . فإذا حق للشعوب أن تفاخر بماضيها ، فليس لأي من الشعوب حق في الافتخار أكبر من حق الشعب اليوناني ، سليل الاغريق القدماء .

* * *

على انه بالرغم من هذين الجامعين ، اللذين كانا يجمعان بين القبائل

الاغريقية المتعددة ، لم تتخلَّ هذه القبائل عن استقلالاتها ، وبقيت إلى آخر القرن السادس ق. م. مدناً متفرقة ، يحكم كلاً منها ملك أو قائد من عائلاتها الارستوقراطية ، دون أن ينتحل لنفسه صفة الالوهية ، كما كانت العادة في الممالك الأخرى . وكان الحكم في تلك المدن حكماً ديموقراطياً ، حسب مفهوم الاغريق للديموقراطية في ذلك الحين . فالديموقراطية الاغريقية لم تحل دون تفرقة الشعب إلى فئة أسياد وفئة مواطنين وفئة عبيد .. ومع ان هذه الديموقراطية لم تكن تسمح لكل فرد أن يشترك في الحكم وحق الانتخاب ، فانها على كل حال ، قضت على فكرة الوهية الحاكم أو الملك ، وأطلقت إلى حدّ ما حرية الفكر ، كما أطلقت للطبقات العالية حرية التزاحم على الحكم وانتزاعه من قائد إلى قائد ، إما بقوته الفردية ، أو بقوته العائلية والقبلية . ومهما كان من أمر الديموقراطية الاغريقية ، فيصح القول انها كانت الغرسة الأولى للحكم الديموقراطي والجمهوري .

* * *

غير ان استقلالات المدن الاغريقية ، والحروب التي كانت تقع بينها بين وقت وآخر ، كانت الدافع لطمع الغزاة بها . وكانت الامبراطورية الفارسية ، صاحبة الجبروت في ذلك الحين ، أول الطامعين .. فغزا امبراطورها داريوس الأول المدن الاغريقية ، واستعبد مدنها ، الواحدة بعد الأخرى ، إلى أن وصل إلى أثينا ؛ فانتصرت عليه ، بفضل المساعدة التي وصلتها من مدينة سبارطه . ثم عاد خليفة داريوس وغزا الاغريق مرة ثانية .. وفي هذه الغزوة حصلت موقعة « ثرموبولي » التاريخية التي استشهدت فيها حامية المضيق كلها مع قائدها ليونيداس ؛ فاستذل الفرس الاغريقيين وأحرقوا كبرى مدنهم أثينا . غير ان الاغريقيين ، وقد ثارت فيهم النخوة ، تركوا خلافاتهم ، أو بالاحرى أجلوها .. وانطلقوا باسطولهم من الجزر التي لجأوا اليها بعد هزيمتهم . وهاجموا الجيش

الفارسي وقهروه ، واضطروه إلى الهرب نحو آسيا الصغرى ، وكان انتصارهم هذا نهاية الخطر الفارسي عليهم . وعاد إلى المدن الاغريقية استقلالها وعزها ، كما كان هـذا الانتصار بداية انهيار الامبراطورية الفارسية .

* * *

مما لا شكّ فيه ان المحن التي حلّت بالاغريقيين ، سواء من حروبهم الخارجية مع الجيش الفارسي ، أم من حروبهم الداخلية فيما بين مدنهم المستقلة بعضها عن بعض ، كانت حافزاً لازالة الخلافات بينهم إلى حدّ ما. فقد قُيّض لأثينا زعيمة المدن الاغريقية ، قائد عظيم هو « بيريكليس » ، انتزع القيادة والملك في النصف الثاني من القرن الخامس ق. م. فكان عهده عهد نهضة جبّارة ، ابتدأت في أثينا ثم شملت البلاد الاغريقية كلها .

كان بيريكليس قائداً وخطيباً ومصلحاً إدارياً ، فجعل من أثينا قبلة العلم والفن والخطابة والشعر ، وأنشأ فيها حضارة جذبت اليها الشعراء والفنانين والفلاسفة والعلماء ، الذين كانوا يلقون منه التشجيع والمعاونة . كما أنشأ المسارح حيث كانت تمثل فيها روايات سوفوكليس واسكيلوس واوروبيديس ، ومعظمها يدور حول سير ابطال الاغريق . ولعل أكثر هذه الروايات خلوداً رواية « اوديب » لمؤلفها سوفوكليس . هذا ما جعل للحياة رونقاً لم يعرف من قبل .

كان عهد بيريكليس بحق عهد حضارة بالمعنى الكامل ، وبقدر مفهوم العصر . كان للاكروبول نصيب كبير من اهتمام بيريكليس ، إذ حوّله من مجرد قلاع يحاصر فيها الاغريق اتقاء من الغزوات إلى هياكل مقدسة للآلهة . يدلف اليها عبادها ، يتبركون بها ، ويستوحون البطولة منها . ولا تزال هذه الهياكل تنطق بعظمة الاغريق القدماء .

على ان الناحية الأكثر تخليداً للاغريق وحضارتهم هي الناحية

العلمية والفلسفية .

* * *

لقد سبق القول ان الاغريق نهجوا في حضارتهم نهجاً جديداً قائماً إلى حدّ ما على الفلسفة البحوثية الجدليّة . كانت الجماعة المسماة بالسوفسطائية تعقد الاجتماعات في الساحات العامة ، فيتناظر المجتمعون ويتجادلون بما يفهمون ، وأحياناً بما لا يفهمون . لقد اشتهرت هذه الجماعة بالجدل الكلامي غير المقترن بعلم أو المستند إلى معرفة . غير ان هذا الجدل كان بادرة جديدة فسحت المجال للوصول إلى المعرفة ، وكانت أساساً لولوج بابها . كان هيرودوتس يقرأ تسجيله للتاريخ عليها ، ويعطيها معلوماته عن الاقطار التي طاف فيها ، عن شعوبها وثقافاتها ودياناتها وآلهتها . كانوا يتجادلون في نظريات ارخميدس في الطبيعيات دون أن يفهموا كثيراً منها ، وفي نظريات ابوقراط في الطب ، دون ان يفهموا أو يؤمنوا بالكثير منها أيضاً . غير ان عدم فهمهم لنظريات ارخميدس وابوقراط لا يمنع من الاقرار ، بأنه كان للجدل الكلامي فيها ، أثرٌ بالغٌ في تعييش هذه النظريات إلى الوقت الذي بدأ العالم يفهمها ويأخذ بها . فكان لجماعة السوفسطائيين فضلٌ في حفظها إرثاً علمياً خالداً إلى يومنا هذا .

لقد كان هيرودوتس أوّل من سجّل أحداث التاريخ فلقبه العالم بأبي التاريخ . وكان ابوقراط أول من انتشل فنّ الطبابة من عالم الشعوذة وأدخله في عالم العلم ، ووضع له الأسس الانسانية والعلمية . ولا يزال القسَم الذي وضعه لمحترفيها معمولاً به إلى هذا العهد ، وهو يعرف بقسَم ابوقراط .

ولعل أعظم من تتجلى فيهم حضارة الاغريق وفلسفتهم ثلاثة أقانيم ، هم : سقراط وافلاطون وارسطو .

* * *

كان سقراط فيلسوفهم الاول وحكيمهم الأجلّ . ومع ان فلسفة سقراط كانت قـائمة على التخيّل والقدرية والالهام ، أكثر ممـا كانت قائمة على العلم الموضوعي . فالحكمة الّتي انطلقت من تعاليمه ، كانت بمثابة مفتاح لتطور المعرفة ، هذا التطور الذي استكمله خلفاؤه فيما بعد ، ولا سيما ارسطو .

آمن سقراط بخلود الروح ، وتقمصها بعد موت الجسد ، فيما يخلق بعد موته من مخلوقات . الروح الـتّي رافقت الاشرار تتقمّص في مخلوقات حيوانية ، والروح الـتّي رافقت الابرار ، تتقمّص في أناس صالحين . لذلك كان سقراط يعظ قائلاً ، أنه يجب على الانسان ان يحيا حياة صالحة ، لكي تبقى روحه صالحة ، ولا تتقمص بعد موته إلا في الصالحين .

« اعرف نفسك .. » هذا كان محور تعاليم سقراط .. إن الانسان بطبيعته صالح .. والشرّ الذي يأتيه الانسان إنما يأتيه من جهله نفسه .. إن الفضيلة هي هدف الانسان ، ولن يبلغ الانسان هذا الهدف إلاّ إذا عرف نفسه وسعى في تهذيبها بالمعرفة . ومع ان سقراط لم ينكر الآلهة لكنه في تعاليمه عن معرفة الانسان نفسه والسعي إلى تهذيبها من نفسه ، حطّ من قيمة الآلهة . هذا ما جرّمه به خصومه فدفعوا به إلى الموت .

كان سقراط في تعاليمه يتبع صيغة السؤال والجواب ، على نسق السفسطائيين ، لكي يجعل مستمعيه يصلون إلى النتيجة الّتي يتوخى تعريفهم بها . حتّى في دفاعه عن نفسه ، أثناء محاكمته ، اتبع الصيغة نفسها ، إذ كان يجيب على أسئلة متهميه بأسئلة معاكسة ، كما كان يفعل مـع الاثينيين ، عندما تنكـّر هؤلاء له ، واتهموه بأنه يهين الآلهـة . وعلى الرغم من افحامه متهميه بدفاعه ، لم يسلم من الحكم عليه بالموت ، لأن تعاليمه بدأت تفعل فعلها في الشعب ، إلى حدّ لم يعد للحكام طاقة على تحمّله ، ولو كانت شمس عمره — وقد كان بلغ السبعين من العمر —

أوشكت على الغروب .

كان سقراط يعظ باحترام الشرائع والرضوخ لها ، حتى في حال انتهاك الحكام لها . وكان يعتقد ان الاثينيين يشكلون النخبة الممتازة في الاغريق . ولم يحد عن احترامه لهذه النخبة حتى بعد ان اضطهدته . وعندما عرض عليه صديقه « كريتو » فكرة الهرب من السجن ، تلبية لرغبة أصدقائه ومريديه ، أبى ... وأقنعه « بديالكتيكيته » أن هربه سيكون دليل نكوله عن تعاليمه ، وان بقاءه حياً سنة أو سنتين بعد ، لا يوازي في قيمته ، ما يسببه هربه من الموت ، من فوضى في الشعب ، هو يعمل دائماً على ازالتها . وفضلاً عن ذلك فهو لا يريد ان يخالف الشريعة التي حكم عليه باسمها ، وهو الذي كان طوال حياته يعظ بالخضوع إلى الشريعة والقانون ، مهما كان موقف الحكام منها . وهكذا قبل سقراط الموت منتحراً ، نزولاً على حكم القضاة ، وتنفيذاً لحكم الشريعة ، فتجرع السم باطمئنان ، وبقي يلقي تعاليمه على الذين حضروا مأساته إلى اللحظة الأخيرة ، عندما توقف عن النطق ، واضطجع ضجعة الموت .

غير ان قضاء المحكمة ، لم يقوَ على القضاء على تعاليم سقراط وفلسفته ، بل على العكس ، زادها انتشاراً . فاستشهاد الحكيم على هذه الصورة ، أدخل في أذهان الناس ، ان الحكمة التي انطلقت على لسان الشهيد ، هي التي سترفع أثينا إلى المنزلة التي تليق بها كمدينة مختارة ، وتجعل من الشعب الاغريقي كله الشعب القائد . وبعد موت سقراط ازداد عدد أتباعه ، كما كثر عدد تلاميذه ، الذين طفقوا يبشرون بتعاليم المعلم .

* * *

واحتل أفلاطون ، وكان التلميذ الاقرب إلى سقراط ، السدة التي فرغت بموت المعلم . وأخذ عن سلفه الطريقة نفسها التي كان ينتهجها

سقراط في بث تعاليمه ، أي طريقة السؤال والجواب ، توصّلاً إلى معرفة الحقيقة وادراك فضائلها . وقد أسس أفلاطون معهداً لتعليم الفلسفة في أثينا عام ٥٢٩ ق. م. وبقي هذا المعهد إلى ما بعد الغزو الروماني ، عندما أغلقه الامبراطور جوستينيان ، على أمل استبدال الفلسفة الرومانية بالفلسفة الاغريقية .

بيد ان افلاطون سار بفلسفته شوطاً أبعد من الشوط الذي مشاه سقراط ، ووضع أنظمة للحكم في كتابه « الجمهورية » واصفاً به صفات الحاكم ، وحق المحكوم ، والعلاقة التي يجب أن تكون بين الاثنين . وقد جمع افلاطون برنامج الدولة في فضائل ثلاث : هي الحكمة في الحاكم ، والشجاعة في المحارب ، والاعتدال في المواطن ، موقناً أن النظام والعدالة وصلاح الحكم ، ليست إلا نتائج حتمية للفضائل الثلاث المذكورة . ومما يجدر ذكره ، ما شهد به جان جاك روسو بعد الف وتسعمائة سنة من موت افلاطون « ان مقال افلاطون عن التعليم هو أحسن مقال كتب في الموضوع . »

إن « جمهورية افلاطون » هي حقاً ، كما يقال عنها ، جمهورية خيالية ، بمعنى ان افلاطون تخيلها بفكره البعيد ، ولم يقتبسها من واقع عصره. ففكرة ذلك العصر كانت مستمدة من الفردية ، اما فكرة افلاطون فقد كانت مستمدة من النظرة الجماعية ، القريبة إلى حدّ ما من النظرة الاشتراكية ، أو النظرة الشيوعية . فالدولة بنظر أفلاطون ، يجب أن تكون هي المهيمنة على كل شيء ، حتى على حياة الفرد ، في الزواج ، ورعاية الأطفال وتربيتهم ، وفي العيش المشترك بين الناس ، وفي مساواة الرجل والمرأة ، في الخدمة والتعليم ، وفي حياة اجتماعية شاملة ، وفي نظام جماعي كامل .

وفي حديثه عن الدول ، يوصيها بالمحافظة على تقاليد الاقدمين ، فيما يتعلق بالفنون ، لا سيما الفن الموسيقي وانمائه وعدم التحول عنه ، لكي لا يتسلل الفساد إلى علاقة الناس بالناس ، ويؤدي هذا الفساد إلى الاهتراء

والخروج عن القانون والنظام . ومثلما ألحّ سقراط على انماء فن الموسيقى ، ألحّ أيضاً على انماء الرياضة و « الجمنازيوم » لأن الموسيقى والجمنازيوم يحميان الجسم والروح ، ويحافظان على العلاقة الضرورية بينهما ، من أجل قيام حكم عادل ومجتمع فاضل .

على ان افلاطون ، يخرج عن نظرته الاشتراكية الجماعية ، في ابقائه على الطبقية ، مكتفياً بتحديد ماهيتها وشروطها . فهو ، شأن معلمه سقراط ، كان أثينياً ، ويعتبر الاثينيين النخبة الممتازة . ولذلك كان تمسكه بحق الافضلية لهم ، لأنهم في عرفه — بما يحوزونه من التعليم ، وبما يكتسبونه بواسطته من الفضائل — يضمنون العدالة لكل الطبقات .

إن تسمية جمهورية افلاطون بالجمهورية الخيالية هي تسمية صحيحة ، ولكنها على كل حال ، زرعت فكرة الجمهورية والحكم الشعبي ، وحددت على قدر مفاهيم ذلك العصر ، حقوق الانسان في العيش والعمل ، تاركة للأجيال مهمة تطويرها على أسس علمية ثابتة .

* * *

غير أن غزو الفلسفة الاغريقية للعالم ، لم يكن على يد سقراط وأفلاطون بل كان على يد الأقنوم الثالث ، ارسطو .

لقد انطلق ارسطو في مدى تفكيره إلى أبعد مما انطلق اليه سلفاه سقراط وافلاطون . إنه لم يشأ ان يبقى محصوراً ضمن نطاق الحكمة والفلسفة الطوباويّ . وكان أول من بحث في الطبيعيات والمادة . حتى في أبحاثه الروحية والنفسية ، كان يستند في فلسفته إلى طبيعة الأشياء . ان معرفة النفس — التي هي أساس كل الفضائل — إنما تبدأ من معرفة الاحياء قبل كل شيء . فلأول مرة في التاريخ نسمع بفلسفة تقول بوجوب البحث عن النفس ، وفي ماديّة الاشياء التي تحمل في طياتها جوهرها . ولأول مرة في التاريخ نسمع بفلسفة تقول ان المناقبية لا تترعرع إلا في بيئة اجتماعية ذات مستوى رفيع ، تتجاوب فيها القوى

الخلاّقة في المجتمع . على ان ارسطو يعطي المناقبية صفة الارستقراطية ، ولذلك فهو يتطلع عليها في البيئات العالية في مستواها الاجتماعي ، وعلى الاخص في كعبة المعرفة آثينا .

لم ينتهك ارسطو حرمة الروح ، ولا هو أنكر وجود الله . ولكنه نظر اليهما نظرة جديدة ، من حيث التسلسل ، وهل هو من أعلى إلى أدنى ، أم من أدنى إلى أعلى ، متخذاً من الشكل الثاني تفسيره للروح والله . فالمحرّك الأول للأحياء ، بنظر ارسطو ، هو النفس ، ومحرك الكون هو الله . على ان جوهر النفس والله ، هو المعرفة ، التي لا تكون بغير درس الاحياء والاشياء ، كما ان سعادة الانسان لا تتم إلا بتفهم شؤون مختلف الطبقات الاجتماعية – طبقات الاسياد وطبقات العبيد – والتفاعل فيما بينها ، لضمان السعادة « الطبقية » للجميع . وقد كان ارسطو أول من علّق سعادة الانسان على علاقات الناس الاجتماعية .

وفي خروجه من الدائرة الروحية البحتة ، خاض ارسطو في بحث العلوم الطبيعية ، وتوسّع فيها إلى علم الاشياء والفلك والبيولوجيا والسياسة والاجتماع ، مما جعل من ابحاثه موسوعة شاملة ، كما انه وضع الأسس للبحوث المنطقية ، ولقب بـ « أبي المنطق » .

ولقد أتيح لأرسطو فرصة لم تتح لسلفيه . وهذه الفرصة هي مصادفة سطوع نجمه مع سطوع نجم الاسكندر ذي القرنين . فارسطو كان معلم الاسكندر ، وكان من الطبيعي ان يتأثر التلميذ بمعلمه وبتعاليمه ، ويفسح له المجال للتعمّق بها ونشرها ، ليس في البلاد الاغريقية فقط ، بل في البلدان التي غزاها الاسكندر .

لقد كان لفتوحات الاسكندر فضلٌ كبير في نشر الثقافة الاغريقية . وكانت فتوحات الثقــافة الاغريقية ، تعطي فتوحات القائد العسكرية قيمة ، لم تكن لتحصل عليها ، لو اقتصرت على الناحية الحربية فقط . فعندما وصل القائد الكبير إلى الاسكندرية ، المدينة المصرية التي سمّيت

باسمه ، حرص على تأسيس المكتبة الكبرى فيها ، وشحنها بمؤلفات ارسطو وفلاسفة الاغريق ، تاركاً لخليفته بطليموس مهمة الاهتمام بهـا وانمائها . ولو لم يستهتر خلفاء بطليموس بهذا الأثر العظيم ، عندما تمصر هؤلاء ، ولو لم تلعب به فيما بعد أيدي الغزاة والمخربين ، لبقيت مكتبة الاسكندرية أثراً خالداً لطلاب المعرفة والعلم .

إن فتوحات الاسكندر تركت أثراً تاريخياً أكثر من كل الفتوحات في التاريخ . إن فتوحات جنكيزخان وتيمورلنك ، تغيب معالمها التاريخية ، لأنها اقتصرت على الحروب والغزو ، ولم تنشئ حضارة ، ولا نشرت ثقافة ، بل اكتفت بالتقتيل والاضطهاد ونشر الرعب والاستبداد ، واستعباد الغالب للمغلوب . أما فتوحات الاسكندر الحربية فقدكانت وسيلة لفتوحات ثقافية وحضارية قلبت وجه التاريخ والمجتمع الانساني . وإذا نسي العالم أسماء فيليب والاسكندر وغيرهما من القواد العسكريين المنتصرين ، فهو لا ينسى أسماء سقراط وافلاطون وارسطو وابوقراط وارخميدس وسوفوكليس وغيرهم من الفلاسفة ، الذين شيدوا حضارة تقوم على العلم والفن والبحث والمعرفة ، بعد ان كانت الحضارات السابقة قائمة على الوحي والاساطير والشعوذة .

قبل الاغريق لم يكن للفلسفة رفعة ، ولم يكن للعلم والبحث والمعرفة قيمة ، ولم يكن للتنظيم السياسي شأن ، ولم يكن للحيوية الشعبية أيما وزن . فلما احتل الشعب الاغريقي مقامه التاريخي المعروف والمشهور ، خلق في العالم حضارة حقيقية ، لا يزال التاريخ يتغنى بأمجادها ، ووضع أسساً جديدة للحياة ، ورسم خطة للأجيال التي أتت بعده لكي تمشي عليها . إن الاغريق فتحوا في العالم فتوحات حضارية ، ليست فتوحاتهم العسكرية شيئاً بالنسبة اليها ، فاستحقوا صفحة الشرف التي سجلها لهم التاريخ .

٦ . روما تثب الى المقدمة

●

لم تعمّر السيادة اليونانية طويلاً ، إذ قامت في شبه الجزيرة الايطالية مدنية جديدة ، كان منشؤها في مدينة روما . وما لبثت روما حتّى انتزعت السيادة من الاغريق .

كانت روما خاضعة للملوك « الاترسكيين » طوال القرنين السادس والسابع ق.م. ثم ما ان اصطدم هؤلاء الملوك مع الاغريق ، الذين كانوا يحتلّون قسماً من شبه الجزيرة الايطالية وجزيرة صقليّة ، حتّى وجد أهل روما ان الفرصة سنحت لهم للعصيان على حكامهم الاترسكيين والثورة عليهم ، وطردهم من المدينة .

وعندما آلت لأهل روما السيادة على مدينتهم ، ألّفوا من بينهم حكومة جمهورية ، تضافرت معها جميع القوى الشعبية في محاربتها الاترسكيين والاغريق معاً ، وتوصلت إلى طرد هؤلاء واولئك من شبه الجزيرة كلها .

كان الرومان يحاربون على جبهتين ، الجبهة الاترسكيّة ، وهي الأضعف ، والجبهة اليونانية ، وهي الأقوى ، بدرايتها وتدريبها ومعنوياتها . وكانت الغلبة في هذه الحروب تنتقل من الرومان إلى اليونان ثم من اليونان إلى الرومان ، إلى أن استقرت أخيراً مع أهل روما .

فاليونانيون كانوا يجابهون عدوّين : الرومان من جهة والفينيقيين من جهة ثانية ، فكانوا الخاسرين مع الجهتين .. واستقلت روما بالحكم عن شبه الجزيرة الايطالية كلها .

أما الفينيقيون فقد كان همّهم في بادئ الامر ان يقضوا على الاغريق ولم يأبهوا بهذه القوّة الجديدة التي نشأت مقابلهم في الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط . لقد ظنوا ان هذا الفاصل المائي بينهم وبين جيرانهم الجدد في الجهة الأوروبية ، يكفي لضمان سيادتهم على ممتلكاتهم في الشواطئ الافريقية ، لا سيما وانهم كانوا يتزعمون البحار .. كما ظنوا ان معقلهم في قرطاجة أمنع من أن يغزوه غازٍ .

غير ان الرومان وقد ثارت حماستهم ، بعد انتصاراتهم على اليونان والاترسكيين ، جعلوا ينظمون جمهوريتهم ، ويجمعون شمل قواتهم .. وعندما أنسوا في نفسهم القوة بدأت تراودهم فكرة التوسّع ، ورأوا في الفينيقيين مزاحماً خطراً على سيادتهم .

وكانت الحروب بين الرومان والفينيقيين .. وهي الحروب المعروفة باسم الحروب البونيّة .

لقد عرف الفينيقيون بأنهم أبناء البحار وأسيادها . وكان لديهم اسطولٌ تجاري واسطول حربي . فما ان وقعت الحرب البونيّة الأولى حتّى قطعوا إلى الجهة الأوروبية من البحر المتوسّط . وهرع إلى مساعدتهم اخوانهم فينيقيو اسبانيا والشرق ، واستطاعوا احتلال الأراضي الرومانية من البحر . ثم جيّش « هنيبال » جيشاً برّياً واستعان بالغاليين على مهاجمة روما من البرّ ، بعد ان غامر بقطع جبال الألب . ووقع الجيش الروماني بين نارين ، وانهزم امام الفينيقيين . وكادت السيادة على روما تنتقل إلى هنيبال . ولكن الاضطرابات التي حصلت في بلاده بعد مغادرته لها ، جعلت الرومان يستعيدون المبادرة . ونزلت على شواطئ مرسيليا جيوش رومانية ، مهدّدة هنيبال بقطع خط الرجعة عليه . وقد

صادف ذلك انكساره في معركة « زاما » على أبواب قرطاجة ، على يد القائد الافريقي « سيبيون » فتشتت جيوشه واستسلم الجيش الفينيقي . غير ان هنيبال تمكّن من الهرب والنجاة بنفسه ، وهاجر إلى آسيا الصغرى ، حيث مات منتحراً . وعندما حاول القرطاجيون الأخذ بالثأر ، رُدّوا خائبين . وكان ذلك نهاية الحروب البونيّة ، وزوال السيادة الفينيقية ، وتثبيت السيادة الرومانية .

* * *

وتعاظمت سلطة روما وسيادتها وأخذت تتوسع نحو الغرب وتبسط سلطتها على مدنه ومقاطعاته واماراته . وامتدّ حكمها إلى فرنسا وبلجيكا وبريطانيا شمالاً ، وإلى هنغاريا وجنوبي روسيا وجميع المقاطعات التي كانت تحت سلطة اليونان شرقاً ، وإلى اسبانيا والشواطئ الافريقية جنوباً ، وأصبحت تحكم أكبر امبراطورية عرفها التاريخ في ذلك الحين .

لقد اقتبست روما النظام الجمهوري عن اليونان . وبقيت الدولة الرومانية دولة جمهورية إلى زمن ، يحكمها مجلسان : مجلس أعلى يسمّى مجلس الشيوخ ، مؤلف من الأشراف ، ومجلس العموم ، مؤلف من المواطنين العاديين . ولم يكن يعطى حق المواطن ولا اسمه ، لجميع أفراد الشعب ، لأن المواطنية كانت من حق الأحرار وحدهم . أما العبيد فقد بقوا عبيداً في نظام الجمهورية ، وهذه التفرقة كانت هي أيضاً اقتباساً من الأنظمة الاغريقية .

ولكن جمهورية روما لم تكن تتمشى على النظام الانتخابي . إن أعضاء المجلسين كان يؤتى بهم إما عن طريق التعيين أو عن طريق العرف والتقاليد ، ولكنهم على كل حال كانوا يمثلون الفئات الشعبية المعترف لها بحق المواطن ، أما العبيد فلهم الآلهة .

ومما يجدر ذكره ان الشعوب التي كانت تستعمرها روما ، كان افرادها يعطون المواطنية الرومانية على نفس الشروط المعمول بها في

البلد الأم . كان ذلك من مميزات الاستعمار الروماني ودهائه .

ولم يطل الزمن على الجمهورية الرومانية حتى انقلبت إلى ديكتاتورية عسكرية ، ثم إلى قنصلية تولاها القواد العسكريون ، من ماريوس إلى بومباي إلى انطونيوس ، فإلى يوليوس قيصر .. وزالت أثناء حكم الأخير آخر مظاهر الجمهورية .

* * *

كان يوليوس قيصر أعظم قائد تولى السلطة على روما ، ولم يكن لمطامعه حدّ . غزا فرنسا وكل غربي أوروبا ، وقطع المانش إلى بريطانيا ، ثم اتجه شطر الشرق وغزا مصر ، فكانت غزوته هذه نذيراً بسقوطه وأفول نجمه . وكان للمرأة يدٌ في غروب شمس القيصر الكبير .

كانت تحكم مصر الملكة كليوباطره — وكانت كليوباطره الملكة والإلـٰهة — وكانت جميلة إلى حد الروعة . انتصر يوليوس قيصر على الملكة كليوباطره ، ثم ما لبثت أن انتصرت المرأة كليوباطره على قيصر . سحره جمالها فأحبها وهام بها ، واستولدها ابناً . وعندما عاد إلى روما حمل معه فكرة الملك الإلـٰه ونصب لنفسه هيكلاً في روما ، ودعا الناس إلى عبادته كملك وإلـٰه ، مما أثار عليه مجلس الشيوخ ، على الرغم مما شيّد لروما من أمجاد عسكرية وادارية وتشريعيّة ، هي التي خلّدت عظمة روما .. فكان مقتله على يد أقرب أصدقائه « بروتوس » نتيجة لحقد مجلس الشيوخ عليه . وعندما تولى السلطة بعده اوغسطوس قيصر ، على أثر هزيمة مزاحمه ماركوس انطونيوس ، تنازل هذا عن ألوهية الملك ، واتخذ لقب امبراطور ، وأعاد سلطة مجلس الشيوخ التي كان قضى عليها يوليوس قيصر . كان ذلك في عام ٢٧ ق.م. وباعتلاء اوغسطوس عرش روما ابتدأ عهد الامبراطورية الرومانية الذي دام أربعة قرون ، إلى أن انقسمت على نفسها عام ٣٦٤م،ونشأ عنها امبراطوريتان، امبراطورية غربية عاصمتها روما ، وامبراطورية شرقية عاصمتها القسطنطينية،

كان حظ الثانية أكبر من حظ الأولى ، اذ دام سؤددها حتى عام ١٤٥٣ ، عندما دخل القسطنطينية محمد الفاتح وأزالها من الوجود ..

* * *

لم يسبق لامبراطورية ما ، ان بلغت من المجد والسؤدد ما بلغته الامبراطورية الرومانية . ولا ريب في ان أمجاد هذه الامبراطوزية أوجدت حضارة رومانية . وإذا كان لا بد من الاعتراف بأن الحضارة الرومانية اقتبست الشيء الكثير من الحضارة اليونانية ، فمن الحق أيضاً القول ، ان التوسع الاستعماري الروماني ، كان ذا أثر فعال في ازدهارها . ومن أهم العوامل التي ساعدت على هذا الازدهار ، عامل التجارة بينه وبين الأقطار المجاورة لها والبعيدة عنها . فالتجارة بطبيعتها تقرب بين الشعوب ، وتنشىء المواصلات بينها ، وتوثق العلاقات بين البلدان والدول ، فتتشابك الحضارات مع تشابك المصالح ، ويسهل الاقتباس فيما بينها .

* * *

كان من أبرز ما نفح به الحكم الروماني الشرع الحقوقي المعروف بالشرع الروماني . لقد وضع الامبراطور جوستينيان شرعته (Digeste) أو هي التي وضعت في عهده . ثم نقحها وزاد عليها الاباطرة الذين خلفوه ، لا سيما الأباطرة السوريون منهم . ففي عهد ماركوس أوريليوس أنشئت في سوريا معاهد لتعليم الفقه ، كان أهمها معهد بيروت . وبرزت مواهب الفقهاء السوريين، وجعلوا من الـ (Digeste) أساساً للشرعات التي وضعت فيما بعد في العالم الغربي .

إن الـ (Digeste) حوت الكثير من شرعات الاغريق ، ولكنها أتت بشيء جديد يختلف كل الاختلاف عن الشرع اليوناني . إن اليونان بنوا شرائعهم على المبدأ الجماعي الذي كانت تقول به فلسفة سقراط وافلاطون .. على ان الرومان نقضوا هذا المبدأ واستبدلوا به المبدأ الفردي .

« الناس يولدون أحراراً بموجب الحق الطبيعي الذي تخولهم إياه الطبيعة » . بذلك قضوا على حق السيد باستعباد العبد ، وحق الوالد بالتحكم المطلق بنبيه ، بيعاً أو شراءً . ومن هذه الشريعة الرومانية انبثق النظام الفردي (Individualism) الذي أخذه عنهم الغرب في التشريع ، والذي لا يزال معمولاً به في البلدان الغربية . وهو ما قد يكون السبب الأصلي لتسمية الدول المحتفظة به باسم « العالم الحر » .

لقد كان المشترع الروماني أول من وضع شرعةً حقوقية للحريّات ، ولكن الحكم الروماني كان أول من أساء استعمال هذه الشرعة التي وضعها المشترع الروماني بالذات .

* * *

بيد أن فساد الحكم في دوائر الادارة الرومانية ، ولا سيما في دوائر البلاط الروماني ، لم يحل دون اهتمام الامبراطورية الرومانية بالناحية الحضارية والعمرانية ، ذلك لأن الامبراطورية الرومانية كانت امبراطورية استعمارية . والاستعمار لا يمكنه ان يبلغ غاياته ، إلا إذا افرغ جهوده في الشؤون التي تسهّل له أسباب التوسّع والتجارة ، واجتذاب الشعوب التي يبغي الافادة منها . ولهذا اهتمت الامبراطورية الرومانية بانشاء طرق المواصلات بين مختلف ممتلكاتها لا مستعمراتها . وقامت باعداد مشاريع الزراعة والريّ وزيادة الانتاج .

والامبراطورية الرومانية لم ينقصها الدهاء في سياستها الاستعمارية . فهي لم تقصر جهودها الانشائية والحضارية في البلاد الأم ، بل تعدتها إلى البلدان الخاضعة لها في الاقطار البعيدة عنها ، لكي تزداد الروابط بين البلاد الأم وهذه البلدان .

كانت الامبراطورية الرومانية تنقل مشاريعها العمرانية والحضارية مع الجيوش التي تفتح لها البلدان . كانت تُشيّد في المستعمرات ، المسارح والمعابد والهياكل ، وتعنى باقامة الاعياد والمهرجانات ، وتنشئ المعاهد

والملاهي وحفلات الرياضة . كانت روما تبغي « رومنة » البلاد الـتي تستعمرها . إن الاستعمار الروماني كان عبقرياً حقاً .

إن الرومان ، كالاغريق ، عملوا على انماء الفنون ، وشيدوا المسارح للتمثيل والساحات للرياضة ، وأقاموا الاعياد الموسمية للآلهة ، واهتموا بنشر الثقافة . ولكن الرومان ، على عكس الاغريق ، لم يقصروا أعمالهم هذه على روما وحدها ، بينما اكتفى الاغريق بها في بلادهم فقط ، ولم يحملوا معهم في غزواتهم للأقطار البعيدة غير فلسفتهم فقط . بهذا تميز الاستعمار الروماني عن الاستعمار الاغريقي ، وهذا ما جعله يعمّر أكثر من الاستعمار الاغريقي . ومما لا شك فيه ، ان مشاركة المتفوقين من رجال المستعمرات للرومان الأصليين ، كان لها شأن كبير في تقوية نفوذ الامبراطورية وازدياد ازدهارها ، لا سيما في الناحية العمرانية . ويسجل التاريخ مدى هذا الازدهار في العهود التي تولى فيها عرش الامبراطورية اباطرة من خارج الديار المعروفة اليوم بايطاليا .

* * *

على ان بلاط روما كان يواجه نكسات متعددة ، من الخـــارج والداخل . ففي الخارج كان عليه ان يقف بوجه التيار القادم عليه من برابرة الشمال ، والتيار الآخر القادم عليه من الشرق ، في الموجة المسيحية التي انطلقت من بيت لحم من اعمال فلسطين . تيار من الشمال بربري يعتمد على الغزو ، وتيار من الشرق يعتمد في غزوه على عقيدة إذا ما غزت الامبراطورية الرومانية ، تهددها وتهدمها من أساسها . وتجاه هذين الخطرين ، كان على الامبراطورية العظمى ان تجنّد كل ما لديها من القوى محافظة على سلامتها .

ولكن البلاط كان مهدداً أيضاً بخطر داخلي . فقد تفشى فيه الفساد ، وطغت على بطاناته موجة مـــن التفسخ الخلقي ، والنزاع بين الطامعين في الحكم ، وكثرت فيه المؤامرات ، وعمّت الفوضى المجتمع الروماني .

وتدنت قيمة الحكام الخلقية ، وبالتالي قيمتهم الاجتماعية والسياسية ، إلى أحطّ الدركات . وكان كل ذلك سبباً لأضعاف الامبراطورية الكبرى تجاه الاخطار الزاحفة عليها من الخارج .

وجعل الحكام يبذرون في أموال الدولة ، وكثرت اعمال السخرة ، وتتالت على الدولة الأزمات الداخلية ، ولم يعد لشرعة الـ **Digeste** أي مفعول ، ولم يبق للحريات أيما أثر . الشعب قطيع من العبيد ، يكدحون والسياط تلعب بأجسادهم . إذا تمرّد أحد منهم كان نصيبه الجلد حتى يموت . وإذا قتل احدهم سيداً ، أعدم عوضاً عنه عشرات ، وأصبحت قيمة الانسان الفرد أدنى من قيمة الحيوان .

وقد قُسم العبيد فئات متفاوتة . منهم من تترك له الحرية في الزواج والعيش مع زوجه في زريبة ، على ان يشتغل في أرض سيده طوال النهار . ومنهم من يُشغّل في النهار ، ويقيد بالسلاسل في الليل خشية ان يهرب . ومنهم من لا يُفكّ من قيوده إلا لمقاتلة الثيران ، ترفيهاً عن الامبراطور وجماعة الاشراف .

في تلك الفترة الانحلاليّة ، كان الرقّ الروماني أكثر قسوة من الرق اليوناني ، أو في أيّ من البلدان الاخرى ، وفي أيّ من الازمنة ، وبلغ حقد الشعب على العهد درجة ساعدت الغزاة ، من برابرة الشمال، على انزال الضربة تلو الضربة بالامبراطورية ، على الرغم من قواتها العسكرية ، التي احتفظت بالجند والسلاح ، ولكنها فقدت القوة المعنوية . يزاد على ذلك ، ما كان يحصل في البلاط من مخازٍ وموبقات وفجور وفحش . فجور وبغاء سافر ، في النساء ، وتدنٍ خلقي في الرجال ، واسراف في أموال الدولة على المحظيّين والمحظيّات . وتقاتل بين الاخوة والآباء والابناء ، ومؤامرات في الكواليس والدهاليز ، وسير سريع إلى الانهيار .

إن العبودية ، في ذلك العهد ، لم تكن مقصورة على العمال والشغيلة ،

بل تعدت إلى الطبقات الارفع في ثقافتها ووظائفها . فالمعلمون في بيوت الحكام والاشراف كانوا يصنّفون عبيداً ، والاطباء كانوا عبيداً أيضاً ، فأكثرية المعلمين والاطباء في البلاط كانوا يونانيين ، يعلّمون أو يطببون ، دون أن يُعطوا الحرية من تلاميذهم ومرضاهم . فاعجبْ لتلميذ يستعبد معلمه ، ولطبيب يستعبده مريضه .

لم تقوَ الامبراطورية الرومانية ، حتّى في أوج عظمتها ، ان تتغلب على المدرسة اليونانية ، وبقيت اللغة اليونانية منتشرة في الاصقاع اليونانية المستعبَدة . وكانت هي لغة التخاطب في الاوساط الارستوقراطية ، وفي بطانات الاباطرة بالذات، على الرغم من امتهان فلسفة اليونان ، واضطهاد اليونانيين .

وفيما كانت الارستوقراطية الرومانية تفضل التخاطب فيما بينها باللغة اليونانية ، كان الاستعمار الروماني يحمل معه لغته اللاتينية إلى اوروبا كلها . غير انه عجز عن ادخال اللاتينية إلى بلاد اليونان ، على الرغم من سعيه الملحّ لمحو اللغة اليونانية والفكر اليوناني . فلم تكد شمس الامبراطورية الرومانية تتوارى حتّى عادت فلسفة سقراط وافلاطون وارسطو إلى الظهور من جديد . كما عادت أيضاً نظريات ابوقراط في الطب ونظريات ارخميدس في الطبيعيات .

أما اللغة اللاتينية فكانت تندثر شيئاً فشيئاً ، إذ لم يبق من يتخاطب بها إلا مقاطعات غربي أوروبا ، التي ما لبثت حتّى استبدلتها بلغاتها الخاصة ، المستقاة من اللغة اللاتينية الأم . اما العامل الاكبر في استبقاء المدنية اللاتينية ولغتها ، ولو في دائرة الحصر ، فهو الكنيسة الكاثوليكية والسلطة البابوية ، كما سيجيء فيما بعد .

* * *

لقد استمرت سيادة روما خمسة قرون ونيف ، بينما لم تدم سيادة أثينا أكثر من قرن وبعض القرن . ومع هذا ، فقد تركت أثينا للتاريخ

وللاجيال في قرن واحد ميراثاً لم تترك مثله روما في خمسة قرون ، وما استطاعت غطرسة روما ان تقلّل من شأن هذا الميراث . ذلك ان أثينا غذّت سيادتها بفلسفة فكرية وعلمية وروحية ، بينما شاءت روما أن تبقي على سيادتها قبل كل شيء بالقوة العسكرية والتجارية . وهكذا كانت حضارة روما حضارة عسكرية وادارية ، بالدرجة الأولى ، وحضارة فكرية وروحية ، بالدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة . وما كانت حضارة روما العمرانية ، إلا وسيلة لبسط سيطرتها الاستعمارية . هكذا كان ، وما زال الاستعمار ، من أقدم العصور إلى اليوم ، المستعمر يعمّر لكي يستفيد هو من التعمير . له الحصة الكبرى ، ولسكان المستعمرات ، جرعات مقنّنة ، لا تكفي إلا لتخديرهم عن حقهم الكامل ، واستكانتهم إلى الوضع الذي يفرضه عليهم المستعمرون . إن الاستعمار غرّار وخدّاع بطبيعته . هو يقسو أحياناً ، ويلين أحياناً أخرى ، تبعاً لمقتضيات الزمن وتطور الفكر البشري . وهو في حالتي القسوة واللين ، لا يهدف إلا إلى غاية واحدة هي استعباد الانسان للانسان ، واستثمار القلة المفضّلة للكثرة العامة . وما ثورات العامة على الخاصة عبر التاريخ ، إلا نتيجة حتمية للاستعمار في جميع أشكاله الاقتصادية والسياسية والفكرية والدينية .

٧ . رحلة خاطفة الى داخل آسيا

●

يعرف المبتدئ في علم الجغرافيا ان القارة الآسيوية أكبر القارات الارضية مساحة وأكثرها سكاناً . إنها تنبسط على ثلاثة واربعين مليون كيلومتر من اليابسة ، وهي مساحة تزيد على مساحة أوروبا وافريقيا مجتمعتين ، وتضم من السكان ملياراً ونيّفاً من البشر ، وهو ما يشكل نصف عدد سكان العالم . غير ان هذا العالم الواسع الارجاء ، والمكتظ بالبشر ، لا يعرف عنه العالم الآخر ، أي العالم الغربي ، إلاّ القليل . ذلك لأن هذا العالم الآسيوي ، كان مقفلاً على نفسه عبر التاريخ .

هكذا كان الجزء الأكبر من القارّة الآسيوية . نقول الجزء الأكبر ، لكي نفرقه عن الجزء الاصغر ، وهو المعروف بآسيا الصغرى ، التي هي أقرب إلى الغرب الأوروبي مما هي للشرق الآسيوي . إن آسيا الصغرى ليست أكثر من زاوية صغيرة من جنوب غربي آسيا . والزاوية هذه كانت على مرّ الاجيال تحت تأثير الحضارة الغربية لقربها من الغرب ، كما كانت دائماً قبلة أنظار الاستعمار الغربي . استقبلت في القرن الخامس ق. م. فتوحات الاسكندر ، ثم غزاها الاستعمار الروماني . ودان قسمٌ منها في القرون الوسطى للصليبيين ، وكانت دائماً صلة الوصل بين الشرق والغرب ، أو بالأحرى كانت الباب الذي يدخل منه

الغرب إلى الشرق . وهي لا تزال إلى الآن قبلة أنظار الغرب ، والممرّ الذي يدخل منه استعمار الغرب للشرق .

ليست هذه الزاوية الصغيرة إذن هي قبلتنا في هذه الجولة الدراسية ، لأن دراستها أقرب إلى الاستيعاب والتفهم أثناء دراسة الغرب . فالمقصود من هذا الفصل دراسة ذلك القسم الكبير المترامي من آسيا ، بأجزائه الواسعة التي تضم الصين والهند والاقطار الجوانيّة من القارة الكبرى . ولا بأس من قصر هذه الدراسة على البلدين الآسيويين الكبيرين ، الصين والهند ، إذ ان تاريخ شعوب هذين البلدين ، يعطي صورة عن سائر الشعوب الآسيوية ، باعتبارهما منبع الحضارة الآسيوية وفلسفتها .

* * *

كانت الصين ، وما تزال ، القطاع الأكبر والأهم في آسيا . وكان الشعب الصيني ، وما يزال ، الشعب الذي باستطاعته أن يحوّل الشعوب الآسيوية من حالة الجمود إلى حالة التقدم . ومن أجل هذا كان الاستعمار وما يزال ، يسعى للحؤول دون نهضة الصين .

كان الغرب ، وما يزال ، يخشى على نفسه من الشرق . وفي خوفه على نفسه ، خلق اسطورة « الخطر الاصفر » ، كما خلق ، فيما بعد ، اسطورة « الخطر الشيوعي » . فالغرب يخلق اسطورة خطر ما ، في كل نهضة شعبية تهدد سيادته على شعوب العالم . وبدلاً من أن يترك للتنافس الحضاري السلمي ان يسيّر التطور البشري ، يعمد إلى كبح هذا التطور في الشعوب المتخلفة ، لكي تبقى دائماً متخلفة ، ويبقى هو قابضاً على زمام السيادة عليها . ولقد طالما لجأ الغرب ، من أجل بلوغ غايته هذه ، إلى استعمال القوة المدمّرة لنهضة الشعوب . ان التاريخ مليء بالأدلّة على ذلك .

* * *

في العصور القديمة ، كانت شعوب الصين ، مثل سائر الشعوب في

المراحل البدائية من التاريخ ، تزدحم حول الانهر والاودية ، طلباً للخصب والرزق . ولقد رأينا كيف كانت شعوب الشرق الأدنى تزدحم حول شواطئ النيل والنهرين . كان النـاس يدلفون إلى هـذه البقـاع الخصبة ، يحرثون الارض ، ويعيشون على خيراتها . وكانوا في مواسم الخيرات يقدمون لآلهة الارض ، الضحايا والذبائح ، استدراراً لعطفها وخصبها . في العصور البدائية ، كانوا يختارون من بينهم ، أجمل فتياتهم وفتيانهم ، ذبيحة للآلهة . ثم تحولت الذبائح الانسانية إلى ذبائح حيوانية . إن الآلهة تطلب دماً ، ثمناً لعطفها على الناس ومساعدتها لهم .. هكذا كانوا يعتقدون .

وكانت الشعوب الصينية ، في نزاع دائم مع القبائل الرحّل ، الهابطة عليهم من الشمال ، كما كانت أيضاً في نزاعٍ دائم ، وتزاحم دائم فيما بينها . كل هذا كان يؤدي إلى اختلاط الشعوب الصينية بالشعوب الشمالية الزاحفة عليها .

على ان هذه الشعوب العريقة في القدم ، سواء تلك التي كانت تقطن الصين ، أم الزاحفة عليها ، لم تكن تجمعها غاية ، ولا تجمع بينهـا حضارة . فالشعوب الصينية كانت تدين بفلسفة العيش الهانيء المرح . والصيني لم يكن يهمه في الحياة أكثر من نفسه وعائلته . كان يعمـل ليعيش ، ويتلذذ بمعيشته ، ويتزوج ، لكي يتلذذ بزوجه وينجب منها أولاداً ، لا لكي ينشيء مجتمعاً ، بل ليبقي على اسمه واسم أبيه وجدّه . المجتمع والقومية ، لم يكن لهما أية قيمة في نظره . ما نسمّيه اليـوم مجتمعاً وقومية ، لم يتعديا في نظر الصيني ، في تلك العهود ، الدائرة الذاتية والعائلية . هـذه النظرة إلى الحيـاة ، كانت السبب لبقاء الصين مشتتة ، ولبقاء شعوبها مستعبدة ، من ملوك وأمراء ورؤساء قبائل ، يتنازعون ويتقاتلون على السيادة ، وحكم شعوبهم حكماً كيفياً وقبلياً .

وكانت شعوب الصين تسهّل على حكامها هذا النوع من الحكم ، بعقليتها الاستسلامية ، وفلسفتها القائمة على مرح الحياة والتلذذ بها ، وعلى ما يصوّره للشعب الصيني مرحاً وسعادة ، ادمانه على الافيون .

إن الصين ، بسبب هذه الفلسفة ، وبسبب هذة العقلية المسيطرة على شعوبها ، لم تقم فيها وحدة قومية أو سياسية ، إلا في فترة قصيرة من القرن السادس عشر ق. م. عندما تغلّب أحد رؤساء قبائلها ، وأخضع لسلطانه سائر الرؤساء ، وحكم الصين ، واتخذ لنفسه لقب « ابن السماء » وجعل من نفسه ، الملك والكاهن الأكبر أيضاً . على ان هذه الوحدة لم تدم إلا إلى زمن قصير ، عادت بعدها الصين إلى التجزئة وفوضى السلالات الحاكمة ، فبلغت مقاطعات الصين المستقلة بعضها عن بعض الستة آلالاف عداً في القرن السادس ق. م. وهو العهد الذي يطلق عليه اسم عهد الفوضى والذي دام ثلاثة قرون .

كانت الصين في هذا العهد في حروب دائمة . ملك يقوم وملك ينزل . قبيلة تسود قبيلة فتستعبدها ، ثم لا تلبث حتى تسود عليها قبيلة ثانية ، فينتقل السيد إلى عبد ، والعبد إلى سيد . ثلاثة قرون عرفت فيها الصين أبشع أنواع الفوضى ، إلى أن قام ملك اسمه « شي هوانغ تي » عام ٢٤٦ ق. م. وظفر بما لم يظفر به غيره ، وجمع المقاطعات المتفرقة في امبراطورية واحدة ، بقي هو امبراطوراً عليها أربعين سنة . وقد عُرف هذا الامبراطور بالحنكة والمقدرة . وبعد أن ارتاح من أعدائه ووحّد الصين ، بنى حولها ذلك السور المنيع المعروف بالسد الصيني ، لكي يتقي غزوات الغزاة . ثم جعل يأخذ بتعاليم كونفوشيوس الاصلاحية ، لانشاء أكبر امبراطورية شرقية ، بل أكبر امبراطورية في العالم . ومما لا شك فيه ، ان الفضل الأكبر في ذلك النهوض ، يرجع إلى فيلسوف الصين الاكبر كونفوشيوس .

* * *

كان القرن السادس ق. م. عهد الفوضى السياسية والادارية والحكومية ، ليس في الصين وحسب ، بل في آسيا كلها .

في الهند ، وهي القطاع الذي يلي الصين في الكبر ، لم تقم أية وحدة قومية أو سياسية . فالهند كانت دائماً مطمح الغزاة ، من المانغوليين إلى الآريين إلى العرب فيما بعد . إلا ان الآريين ، كانوا أكثر هؤلاء الغزاة تفوقاً . وما يزال حتى الآن ثلثا سكان الهند منهم .

والهند كانت مسرحاً لنشوء الديانات المتعددة ، أنفذها البرهمية والبوذية . ولقد طالما تبادل الاثنان النفوذ الديني والعقائدي بينهما . على ان البرهمية هي التي كان لها الاثر الأكبر في الحياة الهندية . ولعل ذلك هو السبب في عدم قيام وحدة قومية وثقافية في الهند . ذلك لأن البرهمية ، على الرغم من انها تقوم على وحدة الآلهة « فيدا » ، ففكرة الآلهة الواحدة ، لم تمنعها من تقسيم الناس إلى طبقات : طبقة الكهنة البرهميين ، وهي أعلى الطبقات ، وطبقة الاشراف والمحاربين ، وطبقة التجار والمزارعين وهم خدم الطبقتين الاولين ، وطبقة الغزاة الاولين ، وهم الذين يحرمون من الملكية التي استولوا عليها في أثناء غزوهم ، وهي الطبقة التي لا يدنو عنها غير الطبقة الأخيرة ، أي طبقة المنبوذين ، الذين لا يحق لهم أن يتملكوا ولا يخالطوا أبناء الطبقات الأخرى ، ولا يشكوا أيما ظلامة تنزل بهم . إنهم جماعة المحتقرين من الجميع .

من أجل هذا قلنا ان البرهميّة ، كانت السبب الأكبر والاهم لبقاء الهند طوال الأجيال ، مفككة الأوصال مما سهّل استعبادها من الاقوام الغازية والمستعمرة . فكان على الهند ان تنتظر آلاف السنين ليقوم فيها رجلٌ اسمه غاندي ، ويقضي على التقاليد المفككة لعرى الشعب الهندي ، ويخلق وحدة قومية انتزعت للهند سيادتها ، وطردت مستعمريها ، وساعدتها على الارتقاء إلى المنزلة التي تليق بهذا الشعب العظيم . ان ما فعلته تعاليم غاندي في الهند ، أشبه ، من حيث اهميتها في خلق قومية ،

بتعاليم فيلسوف الصين كونفوشيوس ، الذي سبق غاندي بألفي سنة . ومع ان « بوذا » ظهر في القرن السادس ق. م. وهو القرن الذي ظهر فيه كونفوشيوس ، فهو لم يستطع أن يفعل في الهند ما فعله كونفوشيوس في الصين . ذلك لأن بوذا كانت فلسفته وتعاليمه طوباوية فقط ، بينما كانت فلسفة وتعاليم كونفوشيوس طوباوية وواقعية معاً .

* * *

لقد سبق القول ان القرن السادس ق. م. كان من جملة قرون الفوضى في الصين وفي آسيا كلها . ولربما كانت هذه الفوضى أقوى في هذا القرن منها في غيره . على انه بالرغم من ذلك ، ولربما بسبب ذلك ، ظهرت يقظة فكرية وروحية ، كان لها أثرها التاريخي في الحضارة الآسيوية . هذه اليقظة كانت معقودة اللواء لثلاثة فلاسفة – أو حكماء على الأصح – هم كونفوشيوس وبوذا ولاوتسي . على ان أعظم الثلاثة شأناً ، من حيث تأثيره على الحضارة ، كان كونفوشيوس ، بالنظر لتعاليمه الأكثر واقعية من زميليه الآخرين .

ففيما كان بوذا يهدف في تعاليمه ، إلى خلاص النفس ، عن طريق التقشف وانكار الذات ، والتنسّك ، وكبح الشهوات ، واقامة الهياكل للعبادة ، توصلاً إلى « النرفانا » وهي المكافأة الموعودة لأصحاب النفوس النقية الطاهرة ، وفيما كان يدعو إلى ذوبان شخصية الانسان في الملأ الأعلى ، ويدّعي الألوهيّة ، فيعبده الملايين من البشر ، وفيما كان زميله لاوتسي ينهج في فلسفته ذات النهج الميتافيزي ، على أساس ان الوجود الانساني هو نتيجة فكرة عليا غير محسوسة ، تهيمن على الوجود وعلى كل ما هو محسوس ومنظور ، وفيما كان المعلّم الإلّه « غواتاما » والفيلسوف لاوتسي يحلّقان في المجهول ، ولا يعملان إلا للنفس ، وبالتالي إلى الكسل والتواكل ، كان كونفوشيوس يدعو إلى الاصلاح البشري والتقدم المجتمعي .

* * *

كان كونفوشيوس فيلسوفاً وحكيماً ومصلحاً . وكانت تعاليمه تهدف إلى اصلاح الشعب الصيني وحكامه . لقد أحزنته الفوضى الادارية والأخلاقية ، المتفشية في الحكام ورعاياهم ، ونذر نفسه وحياته كلها لعمل شيء ما من أجل القضاء عليها . كان يطوف أنحاء الصين ، داعياً إلى النظام واصلاح المجتمع عن طريق اصلاح النفس . « اصلح نفسك » هذه هي الآية التي كان يحملها كونفوشيوس في تطوافه ، ويرددها على تلاميذه ومستمعيه ، كما كان سقراط الاغريقي يردد آيته « اعرف نفسك » .

لقد تحدّر كونفوشيوس من اسرة ارستوقراطية ، فساعده ذلك على أن يتبوأ مراكز رسمية في الدولة . فكان يستغل مركزه للتبشير بنظامه الاصلاحي . وطفق يدعو الحكام والأمراء إلى اصلاح أنفسهم أولاً ، لكي يتمكنوا من اصلاح رعاياهم . إن كونفوشيوس لم يكن يؤمن بفلسفة « كما تكونوا يولّ عليكم » بل كانت فلسفته « كما تكونوا تكن رعاياكم » . سئل مرة عن رأيه في الحكومة الصالحة فأجاب : « الحكومة الصالحة هي التي يثق بها شعبها » فسأله تلاميذه : « وماذا يجب ان تعمل الحكومة لكي تحوز ثقة شعبها ؟ » فأجاب : « على الحاكم ان يصلح نفسه أولاً ، ومتى أصلح نفسه ، وجب عليه ان يعمل على اصلاح عائلته وأقاربه وبطانته ، ومتى أصلح أقاربه وبطانته ، استطاع أن يصلح شعبه ، فيثق الشعب به وبحكومته » . فالاصلاح في نظر كونفوشيوس يجب أن يأتي من فوق لا من تحت ، أي من الحكام والأمراء ، وارثي التقاليد الصينية العريقة ، التي كان كونفوشيوس يرى فيها كل الخير . إن كونفوشيوس كان تقاليدياً في فلسفته الاصلاحية .

ومع هذا ، لم يسلم كونفوشيوس من دسائس الانتهازيين والمقربين إلى الحكام . فاعتزل المراكز الحكومية ، واكتفى بالجولات التبشيرية . ومات حزيناً ومقهوراً ومضطهداً ، بعد أن خابت آماله في ايجاد أمير صالح يتعظ بتعاليمه ، ويحافظ على تقاليد الأجداد .

غير ان فلسفة كونفوشيوس لم تمت بموت معلّمها ، بل أخذها عنه تلاميذه ، وجعلوا يبشرون بها ، فكتب لها البقاء ، وتزوّد منها من أتى بعده من الحكماء والفلاسفة ، (وقد كانت الصين غنية بهؤلاء) تماماً كما كان شأن تعاليم سقراط بعد موته .

إن من يمعن النظر في تعاليم كونفوشيوس ، ويقارن بينها وبين تعاليم المسيح ، يجد كثيراً من الشبه بينهما ، إذا اختلفا في الوضع ، فلا يختلفان في الجوهر . «لا تفعل بالناس ما لا تريد أن يفعله الناس بك» هكذا قال حكيم الصين . فلما أتى المسيح ، وضع الآية نفسها في قالب إيجابي وقال : «افعلوا بالناس ما تريدون أن يفعلوه بكم» وقال حكيم الصين : «لا تبغضوا أعداءكم» فقال المسيح : «احبوا أعداءكم» . كلا الحكيمين بشر بالمحبة والصلاح والخير . وان اختلف المصدر الذي نسب اليه كل منهما ، المحبة والصلاح والخير . إن المصدر كان في نظر كونفوشيوس ، الآلهة الصينية القديمة ، بينما كان في نظر المسيح ، الإلـه الواحد غير المنظور . لا عبرة في المصدر ما دام الجوهر هو هو .

* * *

لقد انصف التاريخ كونفوشيوس من حيث كونه فيلسوفاً وحكيماً . ولكن التاريخ لم ينصفه من حيث كونه واضع أسس الوحدة الصينية . فالامبراطور «شي هوانغ تي» الذي يسجّل له التاريخ جمع المقاطعات الصينية المتفرقة والمتباعدة ، وإقامة امبراطورية صينية موحّدة ، ما كان ليستطيع أن يأتي بأعجوبته تلك ، لو لم يهيئ له المصلح الصيني الطريق . إن التاريخ لا يجوز أن يكون مجرد سرد للحوادث ، بل يجب أن يكون مع السرد ، تحليل لهذه الحوادث وتفسيرها ، وارجاع النتائج إلى أسبابها ومسبّباتها .

* * *

لقد شهد العالم في القرون الثلاثة التي سبقت مولد المسيح ، نشوء امبراطوريتين جبارتين ، الامبراطورية الرومانية في الغرب والامبراطورية الصينية في الشرق . وكان لكل من هاتين الامبراطوريتين حضارتها التي تتفق مع الأخرى في بعض النواحي الروحية ، مثل عبادة الآلهة الصنمية ، وإقامة الهياكل لها ، ولكنها تختلف عنها في النواحي العمرانية والمعاشية . وهنا يجدر القول ان الحضارة الغربية كانت تفوق زميلتها الشرقية ، في التحسس بكيان الفرد الاجتماعي والاقتصادي ، وتعتمد أكثر منها على واقع الحياة وتطور حياة المجتمع .

لقد بقيت هاتان الامبراطوريتان منعزلتين الواحدة عن الأخرى مئات السنين . فالمسافات الشاسعة التي تفصل بينهما ، وصعوبة المواصلات ، جعلت التفاعل بين حضارتيهما شيئاً مستحيلاً . على ان هذا التفاعل أخذ يظهر ، عندما جعلت المطامع تساور الامبراطوريتين ، بالتوسع إلى خارج حدودهما . وكان توغل الامبراطورية الرومانية شطر الشرق ، وتوغل الامبراطورية الصينية شطر الغرب ، بداية الالتقاء بينهما . وأصبحت القطاعات الجنوبية الشرقية من آسيا نقطة الاتصال بين الامبراطوريتين .

وكان طبيعياً إذ ذاك ان يتعرف الشرق إلى فلسفة سقراط وافلاطون وارسطو ، ويأخذ شيئاً ما عن الحضارة الرومانية في الطرق الانشائية والعمرانية ، كما كان طبيعياً أن يتعرف الغرب إلى فلسفة كونفوشيوس وروحية بوذا ولاوتسي . ومنذ ذلك الحين جعل كل من الشرق والغرب ، يحاول الاتصال بالآخر ، عن طريق الاسفار ، وتبادل التجارة والثقافة بين شعوبهما .

بيد ان التفاعل بين الامبراطوريتين لم يتوقف عند الناحية الحضارية والتجارية ، وهي الناحية التطورية المرغوب فيها ، بل تعداها إلى ناحية أخرى تخريبية . فما كاد يبزغ فجر القرن الثاني بعد المسيح حتى اكتسح الصين وباء الطاعون ، الذي ملأت ضحاياه الطرقات ، وأباد الملايين

من السكان . وكان وباء الطاعون ، يزحف مع الصينيين النازلين صوب جنوب شرقي آسيا ، وينتقل معهم إلى النازلين من الغرب على هـذه المنطقة . وكرّس الطاعون اتصال الامبراطوريتين بالهلاك ، كما كرّست الحضارة اتصالهما بالحياة .

وبدأ العهد الانحلالي في الامبراطوريتين الكبيرتين ، فانقض على الامبراطورية الرومانية برابرة الشمال ، وقوضوا أركانها ، وغادرها الامبراطور قسطنطين في الثلث الأول من القرن الرابع ، إلى مدينة القسطنطينية التي سمّيت باسمه ، وجعلها عاصمة الامبراطورية البيزنطية . ثم ما لبثت الامبراطورية الرومانية ان انقسمت بعد موت قسطنطين إلى قسم غربي مستضعف وعرضة لغزوات جيرانه ، وقسم شرقي أكثر منعة. فكان هذا الانقسام نهاية الامبراطورية الرومانية .

ولم يكن نصيب الامبراطورية الصينية أحسن من نصيب زميلتها الرومانية . فانقض عليها هي الأخرى ، غزاة المنغوليين في الشمال ، وعاد اليها عهد الفوضى والتجزئة . وعلى الرغم من اعادة توحيدها في القرن السابع على يد سلالة « تان » فقد بقيت مسرحاً للتقاتل والفوضى ، ولقمة سائغة للاستعمار الاجنبي ، تتحكم فيها قوى الرجعية ، ويستثمرها الأغراب ، ويخدّرها الأفيون . فكان عليها ان تنتظر اثني عشر قرناً ، ليقوم منها رجل اسمه « صن يات صن » وينفخ في شعبها روح الثورة ، ويمهد لقائدها الحالي « ماوتسي تونغ » الطريق ، ليمشي بالشعب الصيني الجبار ، إلى القمة التي وصل اليها هذا الشعب العظيم .

هكذا كان تاريخ الصين القديم . أما تاريخها الحديث فسنجيء عليه فيما بعد .

٨ . ملكوت السماوات ومملكة المسيح

•

بعد انقلاب الديكتاتورية الرومانية إلى امبراطورية ، وفي عهد القيصر اوغسطوس ، ولد في بيت لحم اليهودية ، طفلٌ اسمه يسوع ، قدّر له أن يقلب وجه التاريخ .

كانت بيت لحم وبلاد اليهودية في ذلك الحين ، ولاية من ولايات الامبراطورية الرومانية . وكان اليهود يتمتعون بنوع من الحكم الذاتي في نطاق السيادة الرومانية . وقد اعطي اليهود الحق بأن يولّوا شؤونهم الداخلية ، حسبما تقضي تقاليدهم ، ووفقاً لتعاليم نبيهم موسى ، والشريعة التي وضعها لهم . وكانت الجماعة ، المدعوّة بجماعة الفريسيين ، وهي التي عرفت أكثر من سواها بالتعصب لحرفية الشريعة التي ، في معتقدهم ، منزلة من الله على النبي موسى هي الجماعة الانفذ في الولاية اليهودية ، فكل خروج عن هذا الميثاق « المعقود بين موسى والملاك جبريل » كان يعتبر زندقة تفرض اضطهاد من يخرج على هذا الميثاق « المنزل » .

من هنا انطلقت الشرارة الأولى للثورة المسيحية ، المعقودة اللواء لمولود بيت لحم .

ليس ما يهمنا في هـذا الحديث ، ان نتناول الاحداث التي رافقت ولادة يسوع المسيح ، وما جاء في الكتب عن يوسف النجار وخطيبته

مريم . وليس هنا المجال لسرد الحوادث التي حصلت للمسيح في يوم ولادته إلى يوم صلبه . هذه الامور ، من صلاحية المؤرخين ، وما أكثرهم .

أما ما سنخصص لدراسته هذا الفصل ، فهو المسيحية كحركة دينية واجتماعية وحضارية ، قائمة على التعاليم التي نشرها مولود بيت لحم .

لم يبدأ المسيح بنشر تعاليمه إلا بعد مرور ثلاثين سنة على ولادته ، أو على الاصح ، بعد ثلاث وثلاثين . والتاريخ نفسه لا يذكر شيئاً عن المسيح في غضون هذه السنين . فالغموض الذي رافق هذه المرحلة من حياته ، جعل بعض الباحثين يذهبون في تكهناتهم ، إلى انه أمّ الهند في خلال هذه المدة ، ودرس على حكمائها ، ووقف على معجزات « فقرائها » واستوعب فلسفة كونفوشيوس وبوذا ، التي كانت تأخذ بها الشعوب الهندية والصينية . وهؤلاء المتكهنون يقولون ان رحلة المسيح إلى الهند ، تركت فيه أثراً تجلّى في بعض أعماله وتعاليمه والعجائب المنسوبة له . وقد أتينا في الفصل السابق على ما بين فلسفة كونفوشيوس وروحانية بوذا من جهة ، وبين فلسفة المسيح وروحانيته من جهة ثانية ، من تقارب ، مما يفسح المجال للأخذ ، ولو بعض الشيء ، بتكهنات المتكهنين . ما لنا ولذلك ، فالذي يهمنا ، هو البحث في تعاليم المسيح والحضارة التي جاءت نتيجة لها .

تلقن المسيح في طفولته التعاليم اليهودية ، مثل كل يهودي . واعتنق العقيدة اليهودية ، القائلة بالآله الواحد غير المنظور . وكان حرباً على الوثنية وعبادة الاصنام . غير ان المسيح أنكر أن هذا الآله غير المنظور الفائق القدرة ، هو آله اليهود وحدهم ، وانه اصطفاهم وحدهم من دون سائر البشر ، ليكونوا شعبه المختار والممتاز كما كانوا هم يدعون . فكان نكرانه لهذا الادعاء ، نقطة الانطلاق في الثورة المسيحية ، كما كان الحافز الأول لحقد اليهود عليه .

وعندما شرع المسيح ، يبشر بالمحبة والاخوة وإنكار الذات ، استشاط أقطاب اليهود غيظاً عليه ، إذ وجدوا في هذه التعاليم خطراً على سلطانهم ونفوذهم . فأضمروا له الشرّ ، وجعلوا يتآمرون على حياته ، تخلصاً من هذا « الثائر الهدّام » مهدد الكيان اليهودي ، وناقض الشريعة « المنزّلة » . وجعلوا يطالبون السلطة الرومانية ، صاحبة السيادة العليا ، بمحاكمته ، والحكم عليه ، كساحر وزنديق وفوضوي ، يهدف من تعاليمه ، ليس إلى تقويض الشريعة اليهودية وحسب ، بل يهدف أيضاً إلى تقويض للسيادة الرومانية والامبراطورية الرومانية أيضاً . وكان ان انصاعت هذه السلطة إلى ما طالبها به اليهود ، مسايرة لهم من جهة ، وتخوفاً من انتشار مبادئه عليها نفسها ، إذ هي وجدت في هذه المبادئ ما قد يسبب لها القلق ، ويعكّر عليها صفو الأمن والاستقرار . والمحافظة على الامن والاستقرار ، كانت منذ الازل ، وما زالت ، ذريعة السلطات ، لاحباط كل حركة ، فيها شيء من الخطر عليها .

* * *

إننا نترك الناحية الروحانية البحتة في حياة المسيح ، وما يتفرّع عنها من الظاهرات « العجائبية » ، للمشتغلين باللاهوت ، لأن هذه الناحية هي من اختصاص اللاهوتيين — فسواء كانت عجائب المسيح حقيقة أم غير حقيقة ، وسواء كان المسيح ذا طبيعة واحدة أم طبيعتين ، فالجدل القائم حول هذه الابحاث ، وفي ظننا انه لن ينتهي ، ليس من شأنه ان يقدّم أو يؤخر ، في أهمية التعاليم المسيحية والحضارة المسيحية . ومهما يكن من أمر ما روته الاناجيل الاربعة عن هذه العجائب ، فالشيء الذي لا يستطاع انكاره ، ان هذه الروايات ، قد خدمت الفكرة الاساسية ، وساعدت على انتشارها وتقبّلها من الناس في ذلك الحين ، لأن الناس في تلك الأيام ، في جهالتهم العلمية والفكرية ، كانوا في حاجة إلى ظاهرات تبهرهم ، وتجعلهم يؤمنون بما يُعلّمون . فالاعمال العجائبية ،

التي نسبت إلى المسيح ، كانت وسيلة لغاية . وليس من ينكر النجاح الذي أصابته في بلوغ الغاية . وهنا يصدق القول : « ان الامور بنتائجها وخواتيمها » .

* * *

كان الحكم في ذلك الزمان ، ظلماً واقطاعية واستبداداً ونفوذاً . وكانت المدنيّة ، فساداً وفجوراً واستثماراً . وكان المجتمع طبقات : طبقة المفضّلين وطبقة المستعبدين . طبقة الاغنياء وطبقة المعدمين . فجاء المسيح ، يبشّر بالرأفة والرحمة والوداعة والقناعة ، وعدم الاتجار بأقوات الناس وأرواحهم . وعدم تحكم فئة منهم بالفئات الأخرى .. « من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً » . « لا تعبدوا ربّين : الله والمال » . « انه أيسر ان يدخل الجمل في ثقب إبرة من ان يدخل غنيّ إلى ملكوت الله » .. « لا تقاوموا الشرّ بالشرّ بل قاوموا الشرّ بالخير » .. « افعلوا بالناس كما تريدون أن يفعل الناس بكم » .. « دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات » الخ . الخ ..

كان المسيح اشتراكياً بالفطرة ، قبل أن يكون هناك فكرة اشتراكية ، وقبل أن يقوم نظام اشتراكي . لقد وُلد المسيح ولادة متواضعة ، في أسرة فقيرة إلى أقصى حدود الفقر . وعاش بين الكادحين البسطاء ، وحصر جهوده في تعليمهم ، وبث روح العمل والثورة فيهم . كان ينعى على الحكومات والحكام والشيوخ ، مظالمهم واضطهادهم عامة الشعب . اختار تلاميذه من عامة الناس ، من صيّادي السمك والعمال ، لأنه كان يحتقر الاغنياء والتجار ، ولا يجد فيهم ما يؤمله باصلاحهم ، وتحويلهم إلى جادّة الحق والصلاح . لقد أدرك المسيح بالفطرة ، ما أدركته الاشتراكية العلمية بعد قرون طويلة ، ان من يتاجرون بأسباب الحياة ، ومن

يحتكرون مواد الحياة ، لا يقيسون قيم الحياة إلا بمقاييس المال والارباح . وعندما طرد الباعة من أمام باب الهيكل ، نقم هؤلاء عليه ، وجرّموه بنقض النواميس ، وقالوا انه هدّام . بين « بعرق جبينك تأكل خبزك » . وبين « من لا يعمل لا يأكل » صلة تربط بين الثورة المسيحية في بداية القرن الأول للميلاد وبين الثورة الاشتراكية الكبرى في بداية القرن العشرين .

لقد كانت ثورة اجتماعية هائلة ، تلك التي أضرمها مولود بيت لحم ، ووضع فيها الاساس للمذاهب الانسانية الحديثة ، التي تحارب استثمار الانسان للانسان ، وترفع من شأن العامل والفقير والفلاح ، وتقسو على الحاكم المستبد ، والثري المستثمر ، والمتاجر بالعقائد الدينية والاجتماعية ، وإذا كانت اشتراكية المسيحية – التي لم تكن تسمّى اشتراكية في ذلك الحين – بنيت على القيم الروحانية ، فمرجع هذا ، انه لم يكن للعلم القيمة التي له الآن ، كما ان الشروط المادية والاقتصادية لبناء الاشتراكية لم تكن متوافرة في ذلك العصر !

فالمسيح لم يكن على شيء من العلم ، وما كان منتظراً أن يكون على شيء منه ، في العصر البدائي الذي عاش فيه . كان في نشدانه الغاية الانسانية المثالية ، يخاطب الناس ، بعبقرية فطريّة ، حسب مفاهيمهم ، ويدخل إلى أجوائهم البسيطة ، ببساطة مثلها ، فيؤمنون به ، ويتقبلون وصاياه .

كان المسيح ابن العامّة ، فآمنت به العامة وأنكرته الخاصّة ، لأن الأولى رأت في تعاليمه تباشير خلاصها من عبودية الظالمين المستعبدين ، بينما رأت فيها الثانية ، خطراً على امتيازاتها ، وعلى النعم التي كانت توفرها لها العامة ، من تعبها وعرق جبينها وروحها . هذا ما جعل الايمان المسيحي يقوى في فئات الشعب البسيطة ، كما جعل هذه الفئات تصمد بصبر ، على الاضطهادات التي كانت تتعرّض لها ، من جماعة

الخاصة ، بانتظار السعادة الابدية الموعودة ، حيث لا مفاضلة بين البشر، وحيث تعمّ المساواة بين الناس على مختلف طبقاتهم . « ان مملكتي هي مملكة السماء ، حيث لا عبد يحتقر ، ولا فساد ، ولا افساد . إنها مملكة روحية قائمة على المحبة والخير والسلام » . بهذا يعلّـم المسيح ، وبهذه التعاليم كان يسحر الجماهير المستمعة لتعاليمه .

* * *

على ان الثورة المسيحية ، بالرغم من اقتصارها على النـاحية الدينية والروحانية ، قد خلقت أيضاً ثورة اجتماعية وأخلاقية واقتصادية ، بالطبع على قدر ما كانت توحي به الاوضاع الاقتصادية يومئذٍ . وبكلمة عامة كانت هذه الثورة ميلاداً لحضارة جديدة ، من حيث التعامل بين الناس ، والاهتمام بشؤون المرأة والعائلة ، ومقاومة استبداد الحكم ، والعطف على الفقراء والمرضى والمحزونين . كل هذه المبادئ والتعاليم جاءت أساساً انظامٍ اجتماعي ، أحدث انقلاباً خطيراً وشاملاً في حياة الانسان . ومما زاد في شأن هذه الثورة الطوباوية ، وجعل الناس يلتفون حولها ، ان صاحب الدعوة لها ، كان مثالاً رائعاً للفضائل ، متواضعاً إلى آخر حدود التواضع ، يعمل بما يعظ ، ويطوف ماشياً على قدميه ، لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، يحادث الجميع ، ويعطف على الاطفال والأيتام ، معزياً الحزانى ، مساعداً الفقراء ، منتهراً الاغنياء ، داعياً إلى المحبة ومقابلة الشر بالخير . فكانت شخصيته الصالحة والجذابة ، أكبر عامل في انتشار دعوته ، واتساع رسالته ، وتعاظم نفوذه .

فالمسيحية إذن ، ليست ديانة وحسب ، إنمـا هي حضارة انسانية ، دفعت البشرية خطوات واسعة إلى الامام . هذا ما أثار غضب السلطات على صاحب الدعوة . لقد وجدت السلطات في المسيحية خطراً فناوأتها . ووجدت في المسيح ثائراً على حكمها . وكانت المحالفة بين السلطتين ، الرومانية واليهودية ، لخنق الثورة في مهدها . وكانت المؤامرة على هذا

الثائر العنيد . وكان الحكم عليه بالموت صلباً .

ولكن سرعان ما خاب أمل السلطتين الجائرتين . فالنتيجة التي توخناها من قتل المسيح ، جاءت عكس ما تخيلتاه تماماً . والمسيحية لم تمت بموت باعثها ، بل نمت واتسعت وازدهرت أكثر من ذي قبل . وقد كان ذلك بفضل تلاميذ المسيح وأتباعه ، الذين ضربوا في مشارق الأرض ومغاربها ، يبشرون بتعاليمه ، ويدعون الناس إلى الانضمام إلى مبادئه . وكان الناس يتهافتون من جميع الاقطار للانضواء تحت لواء هذه الثورة الانسانية . هذا درس يجب ان يعتبر به الحكام الذين يعتقدون ان اضطهادهم لمذهب ما كافٍ لتقويض هذا المذهب ، غير حاسبين ما يفعله ايمان معتنقيه بـه ومكافحتهم في سبيله .

* * *

مهما يكن من مبالغة في تاريخ المسيحية ، وما رُوي فيه من الاعمال العجائبية ، ومهما أثير حولها من جدل بين المؤيدين وغير المؤيدين ، فالشيء الراهن ، أن الرسل الذين حملوا إلى الدنيا رسالة المسيح ، وُفقوا في نشرها ، على الرغم مما تعرضوا له من الاضطهاد والعذاب . لم يكن عند هؤلاء الرسل غير ايمانهم بالرسالة ، ولم يكن عندهم لا علم ولا مال ولا جاه ، ولكنهم استطاعوا أن يقلبوا وجه المجتمع .

على انه من مطالعة رسالات بولس إلى أهالي روما وكورنثيا وافسس وغيرها ، يستدل ان بولس كان هو التلميذ الاكثر فهماً في الشؤون اللاهوتية من زملائه . فهو بعد اعتناقه المبادئ المسيحية ، أنشأ يتعمّق في درسها ، وأصبح فيما بعد فيلسوف المسيحية وشارعها الأول . ان أكثر القواعد التي يتمشى عليها المسيحيون ، هي من وضع بولس ، الذي يرجع اليه الفضل الاكبر في تثبيت الكيان المسيحي ، على أسس يرتاح اليها الضمير البشري ، ولو لم تكن تنسجم كل الانسجام مع

مدارك عقله . ولكن عصر المسيحية الأول ، كان عصر الضمير لا عصر العقل ، وهذا كان كافياً في حينه .

ولعل التلميذ بطرس كان أكثر تلاميذ المسيح حماسة واندفاعاً ، ويقال انه كان أسبق التلاميذ الاثني عشر في اتباع المسيح . إنه كان متقلباً في بادئ الأمر ، وأنكر سيده ثلاث مرات ، غير انه كفّر عن جريمته الأولى فيما بعد ، وأصبح أكبر المناضلين في نشر رسالة المسيح . وبسبب حماسته وقوة شكيمته في النضال ، اختير من بين التلاميذ الاثني عشر ، ليرئس الكنيسة الرومانية في مدينة روما ، حيث كانت المسيحية تجابه أشدّ الأخطار من قبل السلطة الرومانية . فما ان تسلم مركزه كالرئيس الأعلى للكنيسة ، وتسلّم مع ذلك « مفاتيح السماء » كما يُروى في تاريخ الكنيسة ، حتى انصبّ عليه غضب السلطة ، وصدر الأمر من الامبراطور نيرون بصلبه مع بولس ، في عام ٦٥ ميلادية ١

ولكن المسيحية بقيت تسير وتتسع . وأجازها الامبراطور قسطنطين ، بعد أن اعتنقها هو وعائلته . وبعد أن نقل الامبراطورية إلى بيزنطية ، وجعل من القسطنطينية عاصمة لها ، بدأ عصر ازدهار المسيحية . وبانتقال عاصمة الامبراطورية إلى القسطنطينية انقسمت الكنيسة إلى كنيستين ، الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، والغربية وعاصمتها روما ، كلّ منهما تدعي انها الكنيسة الأم .

* * *

إن انقسام الامبراطورية الرومانية إلى امبراطوريتين ، واحدة في الغرب وواحدة في الشرق ، كان من الاسباب التي أدت إلى انحلالها . غير ان انقسام الكنيسة إلى كنيستين ، جاء بنتيجة عكسيّة . اباطرة الامبراطورية

١ – بعض المؤرخين ، ولا سيما مؤرخي تاريخ الكنيسة الشرقية لا يؤيدون ذهاب بطرس إلى روما .

الشرقية سهلوا انتشار المسيحية ، واباطرة الامبراطورية الغربية استمروا في اضطهادها . فكان على معتنقيها في القسم الغربي أن يناضلوا من أجل نشرها . وفيما كان الاباطرة بين أخذ ورد في وجهات نظرهم تجاه الديانة المسيحية ، كانت الامبراطورية الغربية تعاني أزمات شديدة ، من غزوات برابرة الشمال ، مما جعل هذه الامبراطورية تهادن الرسالة الجديدة ، أملاً في أن تكون هذه المهادنة وسيلة لاتقاء غزوات التيوتنيين الشماليين . غير ان المناضلين المسيحيين لم يكتفوا بالتبشير برسالتهم في روما ، بل دخلوا إلى قلب الغزاة أنفسهم ، الذين استهوتهم هذه الرسالة بمثاليتها وتعاليمها الانسانية . فما لبثوا حتى تنصّروا ، واذ ذاك لم يبقَ للسلطة الزمنية في روما مفرّ من اعتناق الديانة الجديدة ، فاعتنقتها وجعلت من أسقف روما « بابا » يتمتع بسلطة الرئاسة للكنيسة المسيحية . ولكن الكنيسة الشرقية لم تعترف برئاسته ، وبقيت على استقلالها . وكانت كل من الكنيستين تتذرع بذرائع لاهوتية ، تدّعي انها الأصوب والاكثر مطابقة على روح الرسالة . هذا ليس من شأن هذا الكتاب .

على ان انشقاق الكنيسة إلى كنيستين ، والخلافات اللاهوتية والطقسية بينهما ، لم يحل دون انتشار الرسالة . فظلت تمشي من نصرٍ إلى نصر ، لا تقبل مهادنة في مبادئها الاساسية . فكان تعصبها لعقيدتها ، وعدم تراجعها أمام خصومها ، سبباً في ظفرها النهائي . ومن الجدير بالذكر ، ان انتشار المسيحية كان في الغرب أكثر منه في الشرق ، وأصبح للكنيسة الغربية ورئيسها بابا روما نفوذٌ على البلدان الأوروبية كلّها ، وكان باباوات روما دهاة في استغلال سلطتهم على ملوك أوروبا وأمرائها ، فأخضعوا هؤلاء لسلطانهم ، ليس في الشؤون الدينية وحسب ، بل في الشؤون الزمنية أيضاً . ولم يبق خارج حظيرة الكنيسة غير البلاد اليونانية التي بقيت على ولائها للكنيسة الشرقية . وكانت فيما بعد الطريق التي

دخلت منها هذه الكنيسة إلى البلدان السلافية .

وكان من جراء تزعم البابا على الامارات الغربية ، ان انتشرت المدنية اللاتينية في أعقاب المسيحية الغربية ، إذ حيث ذهبت الكنيسة الغربية كانت تحمل معها المدنية اللاتينية .

على ان زعامة البابا الزمنية لم تكن بدون نتائج ، فيها تشويه للمبدأ المسيحي وتعاليمه . ومرجع ذلك ، ان باباوات روما ، في استئثارهم بالزعامة الزمنية ، وبما كان لهم من سلطة على الملوك والامراء المسيحيين ، وفي تهالكهم على أن يحتكروا لأنفسهم زعامة المملكتين : مملكة السماء ومملكة الارض ، كثيراً ما كانوا يسيئون إلى الرسالة المسيحية ، طمعاً بمكاسب زمنية . وفي التاريخ أدلة عديدة ، على وجود يد باباوية وراء أكثر الحروب والمذابح والغزوات ، إنهم كانوا يبشرون بالسلام والمحبة ، ويؤلهون صاحب رسالة السلام والمحبة ، ولكنهم ما كانوا يرون بأساً في تعكير السلام والمحبة بين الناس ، إذا ما وجدوا في ذلك خدمة لاستمرار سلطتهم وسلطانهم .

* * *

إذا تركنا جانباً الناحية اللاهوتية من الديانة المسيحية ، وإذا صرفنا النظر عن الاساءات التي ارتكبها رجال الدين باسمها ، فليس بوسع أحد أن ينكر تأثيرها على الحضارة الانسانية . إن المسيحية عدا عن كونها عقيدة دينية ، هي حضارة انسانية سامية ، بل هي في نظرنا حضارة أكثر منها ديناً .

قد يوجد بين المسيحيين في مذهبهم ، من لا يعتقد بألوهية المسيح ، ولا يصدّق اعماله العجائبية ، ولا يعتبره غير انسان متفوق في خلقه وفكره وحياته . ولكن ليس من ينكر أن المسيحية خلقت حضارة من أسمى الحضارات ، تقاوم العبودية ، وترفع قيمة الانسان ، وتفتح أمامه

أبواب المعرفة ، وتصقل عقليته ، وتشبع في نفسه الأمل بحياة فاضلة .
ولو تجرد القوامون على الديانة المسيحية ، عن غاياتهم التي يشوبها الكثير من الشكوك والشبهات ، ولو لم يستخدموا طقوسها وأساطيرها العجائبية في خدمة غاياتهم هذه ، لكانت الحضارة المسيحية الأصل الذي تنطلق منه الحضارات الانسانية على أسس تقدمية وعلمية ، تجعل من الانسان ، بحق وحقيق ، الكائن الأعلى بين الأحياء .

٩ . صوت يرتفع في صحراء العرب
« الله اكبر »

●

القول بأن الشرق مهبط الوحي خطأ . الصحيح أن جزءاً صغيراً من الشرق اختير (لا أعلم ممن ولماذا وكيف) لهبوط الوحي عليه . وهذا الجزء المحظوظ ، أو غير المحظوظ ، هو الشرق العربي ، الذي لا يشكل أكثر من بقعة صغيرة من بقاع الشرق الاوسط . والجزء هذا محشور في زاوية صغيرة من زوايا الشرق . على ان الزوايا الاخرى يشغلها الشرق الكبير ، شاملاً الصين والهند والتبت والقطاعات المشرشرة على شواطئ الباسيفيك ووراء جبال الاورال وفي المحيط الهادي الكبير . ما لنا ولذلك . إنها « حكمة » أبعد من ان تدركها عقولنا .

ومهما يكن من أمر هذه الحكمة وهذا الاختيار ، فالموضوع ، كما تقول الكتب المقدسة الثلاثة ، التوراة والانجيل والقرآن ، هو ان الالهام هبط أول ما هبط على موسى كليم الله . ثم عاد وهبط ثانية على المسيح حسبما يقول الانجيل . ثم عاد وهبط ثالثة على محمد بن عبد الله القرشي حسبما يقول القرآن . كلٌ من الثلاثة يؤله نفس الاله . على ان ما أوحي به لكلٍ منهما كان يختلف عما أوحي به للآخر . فقد أوحي لموسى ان الشعب اليهودي هو شعبه المختار ، فكانت العنصرية اليهودية التسلطية . وأوحي للمسيح انشاء مملكة سماوية في الارض ، يسميها الفيلسوف

ارنولد توينبي « مقاطعة من مملكة السماوات ، تبشر بالمحبة والاخوة بين الناس » . وأوحي لمحمد إنشاء مملكة أرضو – سماوية تبشر بما تبشر به مملكة المسيح ، بالاضافة إلى التبشير بالقومية الاسلامية والعربية .

آله واحد ، تؤلهه وتعبده الشعوب الثلاثة ، فيما هي تختلف بينها على ما أوحاه لكلٍّ من باعثيها ورسلها من وصايا وتعاليم وقيم . كيف يعقل ان الآله الواحد يوحي بها متباينة ومتعاكسة ومتناقضة في كثير من الاحيان والنواحي ، كي تكون سبباً للتشاحن والتباغض والتقاتل بين الشعوب الثلاثة ؟

ليس الوحي وحده هو الذي جعل من الديانات التي نشأت في الشرق خير الديانات وأرفعها شأناً . إنما هناك شيء آخر ساعد على ذلك . وهذا الشيء هو عبقرية باعثيها الثلاثة ، المتجلية في ابعادهم عن الههم أنظار الناس واسماعهم ، وتنزيهه عن شؤون الدنيا والمادة ، بحيث لا تطاله يد ، ولا ترنو اليه عين بغضب ، ولا يمكن أن يراه انسان ، أو ان ينتقم منه انسان ، كغيره من الآلهة المنظورة .

هذا ما تتميز به الديانات الالهية عن الديانات الأخرى الرائجة في الشرق الاكبر . فالديانات تلك تدور حول آلهة متعددة ، منها الصنمية ، ومنها المتجسدة في حيوان ما ، أو في حجر ما ، يستطيع أن يراها المتدينون بها ويلمسوها ، ويستطيعون في حال غضبهم عليها أن ينتقموا منها . وهي قابلة للتغيير والتجديد ، ومعرضة للموت والفناء . فقد كان فلاسفة هذه الديانات ينطقون بالفلسفة والحكمة باسم آلهتها . فإذا ما غضبت جماعة من الجماعات على هؤلاء الفلاسفة والمبشرين ، بسبب أو بغير سبب ، انتقمت من الآلهة التي ينسب فلاسفتها تعاليمها لها ، فتقتلها إذا كانت حيوانية أو آدميّة ، وتحطمها إذا كانت صنمية .

أما الآله الكلي وغير المنظور ، الذي اختصّ بالهامه وحكمته أنبياء الشرق العربي ، فقد بقي متحصّناً وراء الغيب المجهول ، إذا ما

أنكره أحدٌ ما ، لن يكون بمقدوره أن يراه أو يصل اليه ، فتقتصر إذ ذاك نقمة الناقمين على من يتكلمون باسمه ، وهم يعيشون بين البشر .

بسبب هذه الفلسفة اللاهوتية الجديدة ، تميزت ميتافيزية الديانات التي نشأت في الشرق الاصغر عن ميتافيزية زميلاتها في الشرق الاكبر ، مما جعلها أقلّ تعرضاً للمجالات السفسطائية من تلك . وهو أمرٌ يرجع فيه الفضل إلى هذا السر الغامض في ميتافيزية الوحي الآلهي .

إنها حقاً عبقرية ، أعطت الدليل على تفوقها ، عندما استطاعت الديانة الآلهية أن تخرج من منشئها الضيق وتغزو أقطاراً بعيدة عنها ، على عكس الديانات التي نشأت في المحيط الاكبر من الشرق ، وبقيت محصورة في محيطها وحده ، دون أن تمتد إلى خارجه .

* * *

كان اليهود أول من قال بالآله الواحد غير المنظور . ثم خرج من هذه القبيلة أحد أفرادها يسوع الناصري ، داعياً إلى عقيدة جديدة ، شذبت ما في اليهودية من عنصرية وجنوح إلى الاستئثار ، تبشر بالخير والسلام . وفي أوائل القرن السابع ، ارتفع صوت من صحراء العرب : « الله أكبر . لا الآه إلا الله .. محمد رسول الله » .

كان صاحب هذا الصوت ، محمد بن عبد الله القرشي . وهو يتيم الأبوين ويعيش في كنف عمّه . ومع قلة المعروف عن حياته في العشرين السنة الاولى من عمره ، فقد وصف بأنه كان بهي الطلعة ، رفيع الاخلاق ، صادقاً في قوله ، أميناً في عمله ، أحبته خديجة القرشية ، وهي أرملة غنية في مالها وعقلها ، فتزوجته على الرغم من كونه أصغر منها بخمس عشرة سنة ، فأخلصت له وأخلص لها ، ولم يعرف محمد امرأة غيرها طوال حياتها . ولكنه تزوج من عدة نساء بعد وفاتها .

لا شك ان زواج محمد من خديجة كان فاتحة عهد جديد في حياته . لقد توفر له بعد الزواج عيش هانىء هادىء . فمن غنى امرأته ، استطاع

أن يتحرر من كدح العمل ليخلو إلى نفسه ، ويطلق العنـان لتـأملاته وأحلامه . ومن شخصيتها ونبلها استطاع ان يجد له عوناً في تأديـة رسالته .

كانت تمرّ على حياة محمد اليومية سويعات يغشاه فيهـا ذهول ، ويتراءى له المَلَك جبريل ، فيدلّه إلى الحق ، ويحثّه على التبشير بوحدة الآله الخالق ، لتخليص بني قومه من الوثنية والفساد . وكان محمد يخرج من هذه السويعات بآيات تنطق بالحكمة ، داعياً قومه إلى الرجوع عن غيّهم ، والايمان بالآله الواحد الكلي القدرة ، صابّاً النقمة على الآلهة الصنمية ، التي كان القوم يعبدونها . فكان طبيعياً أن يحقد عليه أشراف العرب ويضمروا له الشر ، لمـا كان في دعوته من خطر على زعامتهم ، وهي ما كانت قائمة إلا على التعبد للاصنام التي جاء هذا الرجل يدعو إلى تحطيمها .

ولكن محمداً لم يكن يهادن في بث دعوته ، ولم يكن يسكت عن اضطهاد اشراف قريش له ، بل كان يتحداهم ، فيزدادون حقداً عليه وتآمراً على حياته .. فلم تلبث دعوته حتى تحولت من دعوة سلمية إلى دعوة نضالية . إنه لم يرض بأن يحوّل خدّه الايسر لمن يضربه على خدّه الايمن ، كما كان شأن سلفه الناصري ، بل مشى في طريقه غير هيّاب ، في يده الواحدة رسالة هداية ، يهدي بها من سالموه ، وفي يده الثـانية سيف يحارب به من حاربوه .

لقد آمن به نفر قليل في بداية الدعوة ، وكان نصيب هذا النفر مثل نصيبه من الاضطهاد والتكفير .. كانت امرأته الامينة أول المؤمنين ، ثم ما لبثت حتى تبعها الامام علي بن ابي طالب وابو بكر الصديق ثم عمر ابن الخطاب . كان هؤلاء باكورة الديانة الاسلامية ، والشعلة التي انطلقت منها رسالة محمد .

على انه لم يمض كبير وقت حتى أخذ يزداد عدد المنضمين إلى الحركة ،

وشعر سادة العرب وزعماء قريش بالخطر الزاحف عليهم ، فشنوها حرباً شعواء على أتباع محمد ، مما اضطر القسم الأكبر منهم لمغادرة مكة إلى الحبشة ، حيث نزلوا في ضيافة مليكها المسيحي النجاشي وحِماه . ولقد لقي المهاجرون من مضيفهم ، المزيد من الاكرام وحسن الضيافة ، لأنهم يؤمنون بالآله الواحد غير المنظور ، الذي يؤمن به المسيحيون . وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة أول اتصال بين المسيحية والاسلام .

وأخذت تتوالى اضطهادات الاشراف لمحمد وأتباعه ، مما دفع محمداً إلى الهجرة من مكة إلى المدينة (يثْرب) مدينة أمّه ، حيث نزل في حماية أهلها ، وقد رافقه في هجرته إلى المدينة أتباعه ، وجعل محمد يبشر برسالته من منفاه الجديد . وأصابت دعوة محمد نجاحاً كبيراً في يثرب وآمن بها القسم الأكبر من سكانها .

وكان محمد في المدينة أكثر اطمئناناً على نفسه وعلى أتباعه ورسالته مما كان في مكة ، إذ لم يكن في المدينة قرشيون اقطاعيّون حاقدون عليه . كانت يثْرب مدينة العامة التابعة ، لا مدينة الخاصة المتبوعة . والعامة دائماً أقرب إلى اقتباس كلمة الحق من الخاصة ، لا سيما إذا كانت كلمة الحق هذه ، تحررها من عبوديتها للخاصة .

ومما زاد في اطمئنان محمد في يثْرب ، انه كان يسكن فيها عدد غير قليل من اليهود ، ليس في عقيدتهم الالهية ، ما يخالف عقيدة محمد بها .

وعندما اشتد ساعد محمد ، وانضم اليه أهل المدينة – بالطبع ما عدا اليهود – تابع التبشير برسالته ، بعزيمة أشدّ ، وتحوّل شكل كفاحه ، من الشكل التبشيري السلمي ، إلى شكل نضالي حربي ، وجعل المسلمون يعترضون القوافل التجارية ، الآتية من مكة أو العائدة اليها ، ويرغمونها على الدخول في الديانة الجديدة .

على أن اليهود الذين هادنوا محمداً في البداية بدأوا يخشونه ، وراحوا

يدسّون عليه ، وأحياناً كانوا يحالفون خصومه ، ضاربين عرض الحائط بوحدة العقيدتين الالهيتين ، عقيدتهم وعقيدة المسلمين . لقد خاف اليهود أن يشاركهم المسلمون في احتكار الالـه الواحد غير المنظور والكلي القدرة كما شاركهم المسيحيون من قبل ، فيبطل ادعاؤهم بأنهم وحدهم شعب الله الخاص .

وقد أدرك محمد ما يجول في ضمائر أهل المدينة من اليهود ، فنقم عليهم ، وأعلن الحرب عليهم ، وقتل عدداً كبيراً منهم . ومنذ ذلك الحين ، لم يعد يطمئن اليهم ، وقطع علاقته معهم ، وتحوّل الاسلام فيما بعد من عقيدة دينية صرفة إلى عقيدة دينية وقومية معاً .

* * *

ما كان عيش محمد ليهنأ ما دامت مكة خارجة عن دعوته . وما كانت مكة سهلة الانقياد إلى الرسالة الجديدة ، ما دامت مكة في حمى قريش . فكان عليه إذن ان يخضع اشراف قريش أولاً .

لم يكن جبروت قريش ليثني محمداً عما هو مقدم عليه . كان ايمانه أقوى من سلاح أخصامه ، وكان المسلمون في ذروة التعصب لرسالة محمد ، وكانوا يحسبون الموت في سبيلها حياة .

ومشى محمد إلى الحرب ضد قريش ، ومشى وراءه أتباعه . ولم تتخلف النساء عن الواجب « في سبيل الله ورسوله » . وما أغمد المسلمون السيف حتى فازوا بما وضعوه نصب أعينهم ، وكان هذا الذي وضعوه نصب أعينهم مكة المقدسة ، فدخلوها في عام ٦٣٠ ، وحطموا آلهتها الصنمية . غير ان محمداً في حكمته ودهائه ، أبقى على الكعبة ، وجعلها قبلة المسلمين ، وأمر بأن يحجّ اليها المسلمون في كل سنة ، وحرّم دخولها على غير المسلمين .

ولم يطل عمر محمد أكثر من سنتين بعد احتلاله مكة ، قضاهما في تنظيم الدولة الاسلامية . فوضع للمسلمين شرائع يتمشون عليها في حياتهم

العائلية والاجتماعية والقومية ، مما جعل من القرآن كتاب دين من جهة ، وكتاب اشتراع من جهة ثانية .

إن الاسلام كدين آلهي ، لا يختلف بشيء عن الدين المسيحي بالعقيدة الميتافيزية ، لكنه يختلف عن المسيحية ، بانشائه قومية ، شيد إلى جانبها ملك أرضي . فبينما اكتفى المسيح بالدعوة إلى ملكوت سماوي صرف ، أنشأ محمد ملكوتاً مزدوجاً ، واحداً في السماء وواحداً على الارض . يملك على الاول الله في السماوات ، ويملك على الثاني ، باعث الدعوة إلى الاسلام وخلفاؤه من بعده ، يتولون الملكوت عن طريق الانتخاب أو البيعة . فكان الخليفة رأساً للدولة ، وقائدها الأعلى في الحروب . وكان الجامع الوحيد لهذه الدولة ، العقيدة المحمدية ، دون غيرها .

ويعتقد المسلمون ، ان ما جاء في القرآن ، هو منزلٌ من الله بواسطة ملَكَه جبريل ، الذي كان يُملي على محمد كلمة الله . وهم يأخذون بما ورد فيه دون أي تحريف ، سواء في المعنى أو المبنى ، ولا يتسامحون مع من يلحن بتلاوة آيات القرآن ، ولا يجيزون أي انحراف عما جاء فيه من الشرائع . على انه قام من بينهم فقهاء يفسّرون الآيات ، ويضعون اجتهادات في تفسيرها . وكلما تطورت العهود والازمان وظروفها ، كان يقوم منهم من يغيّر في هذه الاجتهادات ، لكي تجيء منطبقة على التطورات العلمية ، شرط ان لا يكون فيها ما يمس بجوهر الآية ، ولطالما كانت اجتهادات المفسّرين موضوع جدلٍ ونقاش واتهامات ليس لها أول ولا آخر ، مما يفسح المجال لخصوم الاسلام لاتهامه بالتحجر .

على انه لا بدّ من الاقرار بأن القرآن ، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع ، فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحى . وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة ، ولطالما يعود اليه أئمة اللغة ، في بلاغة الكلمة وبيانها ، سواء كان هؤلاء الائمة مسلمين أم مسيحيين . وإذا كان

المسلمون يعتبرون ان صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا تحتمل التخطئة ، فالمسيحيون يعترفون أيضاً بهذه الصوابية ، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعاً ، ويرجعون اليه للاستشهاد بلغته الصحيحة ، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة .

* * *

قلنا ان الرسالة الاسلامية ، لم تكن رسالة دينية وحسب ، بل كانت رسالة دينية واجتماعية وقومية .

كانت الرسالة دينية لأنها قامت على عقيدة الآله الواحد غير المنظور ، فأمرت بالعبادة والصلاة والصوم والزكاة والحج إلى بيت الله الحرام في مكة ، وبشرت الصالحين بالجنة ، وتوعدت الخطاة بنار جهنم .

وكانت اجتماعية ، فوضعت نظماً للعائلة ، والزواج ، والطلاق ، والإرث ، والحكم ، وبنت هذا الأخير على الشورى والبيعة . وحرّمت على المسلمين عادات وتقاليد همجيّة ، مثل عادة وأد البنات ، التي كانت مألوفة في الجاهلية ، وقضت باعطاء المرأة بعض حقوقها الطبيعية .

وكانت قومية إذ قام معتنقوها بغزوات متواصلة لتوسيع نطاق الدولة الاسلامية ، لا عن طريق التبشير وحسب ، بل عن طريق الفتح والحروب . فكان قوادها يغزون الاقطار المجاورة والبعيدة ، يدعون الناس للاسلام ، فاذا أبَوْا قاتلوهم وقتلوا ملوكهم وبسطوا سلطانهم عليهم ، وما كانوا يتركون للمغلوبين حرية الاحتفاظ بديانتهم إلا إذا كان هؤلاء من أهل الكتاب ، أي إذا كانوا نصارى أو يهوداً ، على اعتبار ان عقيدة أهل الكتاب لا تختلف عن عقيدة الاسلام الآلهية ، فكان نصيب أهل الكتاب متى غُلبوا ، دفع الجزية للغالبين . وهكذا امتدّت دولة الاسلام إلى سوريا ، والعراق ، وشمالي افريقيا ، وقسم شاسع من أوروبا ، حتى أصبح الاسلام قوة تخشى قوتها الممالك

الأوروبية كلها .

* * *

لم تنحصر الفتوحات العربية في الناحية العسكرية فقط ، بل تعدتها إلى الناحية الثقافية . لقد كان في العرب علماء وفلاسفة وحكماء ، درسوا الفلسفة اليونانية وعلومها ، ونبشوا منها ما كان الحكم الروماني قد أقفل عليه الابواب . فكان للعلماء والفلاسفة العرب الفضل في اعادة الثقافة اليونانية إلى رونقها . فعندما كانت السلطات الغربية في القرون الوسطى المظلمة في خضوعها المطلق للكنيسة الرومانية ، تنصاع ، مسيّرة أو مخيّرة لاحكامها ، وتنفذ إرادة الكنيسة دونما بحث أو جدل ، وعندما كانت محاكم التفتيش تحكم بالموت والاحراق والتشريد على كل من نازع السلطة البابوية تعاليمها وعقائدها .. وعندما كان الجهل مخيّماً على ربوع وحياة الغرب ، كان علماء العرب يبحثون عن المعرفة أينما وجدت. وكان خلفاء العرب يسهّلون لهؤلاء العلماء مهماتهم ، ويقدمون لهم المساعدات . فعكف البحّاثون على اخراج العلوم اليونانية من مدفنها ونقلوها إلى العربية ، وزادوا عليها من اختباراتهم ونظرياتهم ومشاهداتهم ، ووضعوا كتباً قيّمة في الفلسفة والطب والجبر والكيمياء والرياضيات والفلك ، وقام منهم رحالون إلى بلاد الغرب والشرق ، ودرسوا اللغات المنتشرة فيهـا ، وترجموا من كتبها ما لا يزال إلى يومنا هذا يدرّس للطلاب . ومن أشهر الكتب ، كتاب « كليلة ودمنة » لواضعه الحكيم والفيلسوف « بيدبا » ومترجمه إلى العربية « عبد الله بن المقفّع » .

وما من قصص شعبية أسطورية لاقت من الرواج ما لقيته قصص « الف ليلة وليلة » . فسواء كانت هـذه القصص مترجمة عن اللغات الفارسية والهندية والروميّة ، كما يقول بعض المستشرقين ، أم كانت موضوعة في الأصل باللغة العربية كما يقول البعض الآخر ، فالشيء الراهن هو ان فيها وصفاً رائعاً للحياة في الزمن الذي وضعت فيه ،

والعقلية التي كانت سائدة في مجتمعها حتى في أساطيرها الخيالية وفي خرافاتها ، ما يستمرئه المطالع ويفيد منه القصصيّون ، ولا نظـن ان كتاباً قصصياً أحرز من النجاح ما أحرزته قصص ألف ليلة وليلة إذ لم تبق لغة من اللغات الحيّة إلا وترجم اليهـا ، حتى أصبحت شخصيات هذه القصص « علي بابا » و « السندباد البحري » و « شـهرزاد » شخصيات عالميّة ، طالمـا نسج حولهـا القصصيون العالميون مبتكراتهـم وروائعهم في عالم القصة . وقد روي عن « فولتير » انه قال : « لقد طالعت كتاب ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرّة قبل ان بدأت في كتابة القصّة » .

وما توقف العرب عند حد نقل الاساطير وكتب الحكمة ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك في حقل الفلسفة والعلوم . إن ما حققه علماء العرب في فترة من التاريخ لا تعدو المائة والخمسين عاماً ، يسجّل للعرب صفحة مجيدة في تاريخهم . يكفي أن ننوه هنا بالشهرة العالميّة التي يعترف بها التاريخ للشيخ ابن سينا الطبيب والفيلسوف ، والطبيب الرازي ، والفلاسفة : ابن رشد ، وابن طفيل ، والفارابي ، والغزالي ، والفيلسوف الاجتماعي الأول ابن خلدون وغيرهم وغيرهم .

لقد كان الرازي أول طبيب جزم بعدوى الأمراض العفنة ، وأول طبيب وصف أعراض الجدري والحصبة . ولم يقابل أيما كتاب طبي بمثل ما قوبل به كتاب القانون لابن سينا . لقد ترجم هذا الكتاب إلى كل اللغات الحيّة ، وما يزال حتى يومنا هـذا كنزاً أثرياً علمياً . ولا يزال ابن سينا في طليعة أصحاب الفضل في علم الطب . إن علماء الفلسفة والاجتماع في عصر النهضة الغربية ، لم يجدوا مرجعـاً ينهلون منـه في أبحاثهم وفلسفتهم أفضل من مقدمة ابن خلـدون . والطبيب العربـي ابن نفيس وصف الدورة الدموية قبـل « سرفيتوس » بثلاثمائة سـنة ، فكانت تمهيداً لشرح « هارفي » للدورة الدموية ، كما أقرّ هارفي نفسه

في كتابه عن هذا الموضوع .

لولا العرب لبقيت الثقافة اليونانية مطموسة ، ولولا العرب لما أخرجت هذه الثقافة من مدفنها الذي زجها فيه الرومانيّون على كبريائهم القومي والحضاري . فما ان أخذت الامبراطورية الرومانية في الانحلال حتى عادت الثقافة اليونانية إلى الظهور مرة ثانية ، ولم يكن ظهورها في الغرب بل في الشرق ، وعلى يد أهل الشرق . وإذا كان النسطوريون هم الذين كشفوا عنها الغطاء ، فالعرب هم الذين نشروها في الشرق ثم بعثوها إلى الغرب ...

كانت فتوحات الاسلام تحمل معها فتوحات الثقافة اليونانية مُزاداً عليها ما وصل إلى العرب عن طريق الفرس من الثقافة الهندية . لقد ترجم حنين بن اسحق فلسفة ارسطو الطبيعية ، وفسرها ابن رشد ، مضيفاً اليها آراءه في علم النفس والطبيعيات . ونقل ابن الهيثم نظريات اقليدس وارخميدس إلى العربية ، وترجم الكندي علم الميكانيكيات . والعرب كانوا أول من استعمل البوصلة المغناطيسية في الأسفار قبل أن يستعملها مخترعوها الصينيون . وإذا كان أرسطو هو أول من وضع الأساس للعلوم الطبيعية ، فالعرب هم الذين شيّدوا على هذا الاساس أمجادها ، ولا ينتقص من فضل العرب كونهم استلهموا من اليونان أو من غيرهم .

* * *

هذا في حقل العلم والفلسفة . غير أن العرب نشطوا أيضاً في الشؤون الفنّية . وإذا كان الفن العربي انحصر على الأكثر في بناء الجوامع والمراكز الدينية ، بسبب من حماستهم الدينيّة ، فهذا لا يحطّ من قدر اهتمامهم بالفنون الجميلة . إن زيارة واحدة إلى الجامع الأموي في دمشق وجامع « سامرا » في العراق ، وجوامع الاندلس ، لتعطي فكرة واضحة عن قيمة الفن عند العرب . ومع ان ابرز مظاهر الفن العربي

مستقرّة في بيوت العبادة ، غير انه في غير بيوت العبادة أيضاً ما يدلل على اهتمام العرب بالفن . إن في قصر الحمراء وجنائنها ، وفي المخطوطات الفنية التي كان يضعها العرب ولا سيما القرآنية منها ، وفي حلقات الشعر والغناء التي كانت تعقد في بلاطات الملوك والأمراء ، لدليلاً واضحاً على ما كان للفن من قيمة في عهد الازدهار العربي .

وفي عداد ما اهتمّ به الفنّ العربي بناء الجامعات ودور الكتب العامة . إن التعصب الديني والحماسة الدينية كانا السبب في تحويل أذهان المسلمين عن بناء المسارح ودور اللهو ، خلافاً لما تميزت به الحضارة اليونانية والرومانية . كان كل ما نهى عنه القرآن حراماً عليهم . ولهذا انحصر اهتمامهم بعلم الفقه والشعر ، وانحصر اهتمام مفكريهم بالعلوم الطبيعية والنفسية ، فأنشأوا الجامعات والمكاتب يدلف اليها طلاب المعرفة . وقد ساعدهم على ذلك صنعهم الورق للكتابة ، وهي صناعة استقدموها من الشرق ، وروّجوها في مراكش واسبانيا ، فسهلت لهم نقل المخطوطات وترجمتها وتوزيعها على الغرب . ثم أخذ عنهم هذه الصناعة الطليان والصقلّيون والفرنسيون ، مما زاد في التفاعل الثقافي بين العرب والغرب .

إن الحقبة التاريخية الواقعة بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر ، هي بحق عصر العرب الذهبي . ففي هذه الحقبة كان العرب حاملي مشعل الثقافة الوحيدين . وعلى الرغم من ان فتوحات العرب العسكرية نحو الغرب ، لم تمتدّ إلى أكثر من مائة سنة ، وانتهت بهزيمتهم في موقعة « بواتييه » على يد شارل مارتل ، فان التوسع الثقافي العربي استمر في امتداده نحو الغرب ، وبقي الفكر العربي يصدر انتاجه الخصب من الاندلس وشواطئ افريقيا إلى سواحل أوروبا الجنوبية ، ومن هناك يغزو أوروبا كلها ، ويضع أساساً لنهضتها .

كانت اسبانيا وافريقيا الشمالية نقطة الانطلاق في غزو الفكر العربي

للفكر الغربي . وكانت صقلّية وايطاليا رقبة جسر لهذا الغزو . وكان مترجمو الغرب يترجمون المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية . وجدير بالذكر ان المقرّ الأول للنقل والترجمة كان في الاديرة ، وأهمها « دير كاسينو » في ايطاليا ، حيث عكف الراهب قسطنطين في مستهل القرن العاشر على نقل المؤلفات العلمية والفلسفية والطبية من العربية إلى اللاتينية . ولعل أعظم ما نقله هذا الراهب مؤلف علي بن عباس المجوسي ، فيما كان رفاقه من رهبان وعلمانيين (الرهبان كانوا أكثرية) ينقلون القانون لابن سينا ، والحاوي للرازي ، ومقدمة ابن خلدون ، وفلسفة ابن رشد ، ومؤلفات ابن الخطيب في الأدب والشعر والسياسة ، وغيرها من مؤلفات عربية ، موضوعة أم منقولة .

على ان هناك حدثاً كان له أثر خاص في التفاعل الثقافي بين العرب والغرب . وهذا الحدث هو ارتقاء فريدريك الثاني عرش ايطاليا ، وهو الذي كان يلقب بأعجوبة الدنيا . فعندما اعتلى هذا الامبراطور العرش ورأى ازدهار النهضة الفكرية عند العرب ، أولع بعلماء العرب ومفكريهم ، وفتح بلاطه لهم ، وكان يغدق عليهم العطاء . وذهب إعجابه بالنهضة الفكرية العربية إلى ادخال تقاليد العرب وعاداتهم إلى بلاطه ، حتى أصبح بلاطه أشبه ببلاط امبراطور عربي . ثم أسّس جامعة نابولي عام ١٢٢٤ ، حيث كانت تدرّس فلسفة ابن رشد وفلسفة أرسطو المنقولة بواسطة المترجمين العرب . وكانت جامعة نابولي واسطة لنقل هذه العلوم فيما بعد إلى جامعات باريس وبولونيا وأكسفورد . إن اسم جامعة نابولي سيبقى مقروناً باسم فريدريك الثاني ، الذي عرف قبل غيره قيمة الفكر العربي ، واقتبس منه زاداً لبلاده ولبلدان أوروبا كافة . ومما لا شك فيه ان تعشّق الامبراطور فريدريك للعلوم العربية واتصاله الوثيق بالثقافة العربية ، واندماجه بحضارة العرب ، كانت من أهم الاسباب التي دفعته لعقد محالفة سلم مع خليفة صلاح الدين الأيوبي ،

أدّت إلى حسم الخلاف الدامي بين الغرب والشرق الذي استمر أكثر من قرنين في الحروب الصليبية .

* * *

لا يسعنا قبل ان ننهي هذا الفصل ، الا ان نسجّل استغرابنا مما يدّعيه بعض المكابرين ، الذين ينكرون قيام حضارة عربية في التاريخ . فإذا كانت البحوث العلمية والفلسفية والثقافية ، مضافاً اليها الاعمال الفنية ، وما تنطوي عليه كل هذه الشؤون من قيم ، لا تشكل حضارة ذات شأن ، فماذا تكون اذن الدعائم الـتي تقوم عليها الحضارات ؟ صحيح ان العرب نقلوا عن اليونان والفرس والهنود والرومان ، ولكن هل ينكر عليهم ما زادوه على ذلك باكتشافاتهم في الطب والكيمياء والجبر والفلك والرياضيات ، وفي الفن أيضاً ؟ وهل من الانصاف ان ينكر على فلاسفتهم وحكمائهم ، نظرياتهم في الاجتماع والاقتصاد والادارة ؟ ثم ماذا يضير العرب إذا كانوا نبشوا ما كان خبيئاً ودفيناً من فلسفة اليونان وحضارتهم وأظهروه إلى النور ؟ إن من يطالع الكتب الغربية التي انتهجها عصر النهضة ، يجد فيها أثر علماء العرب واضحاً . فما جاء به « مونتسكيو » و « باكون » وعلماء الاجتماع في القرن السادس عشر والسابع عشر ، تجده ، أو تجد له تمهيداً على الأقل ، في مقدمة ابن خلدون ، هذه المقدمة الـتي لم تترك حقلاً من حقول البحث الاجتماعي إلا وطرقته ، حتى شهد علماء الغرب أنفسهم انها أعظم مؤلف علمي واجتماعي . وكتب الفلك الغربية محشوة بالكلمات العربية الـتي لم يجد علماء الفلك الغربيون بدأً من تبنّيها ، كالعقرب (**Akrab**) والطائر (**Altair**) والفرقد (**Farquad**) والذنب (**Deneb**) وكذلك ، الجبر (**Algèbre**) والصفر (**Cipher**) . والارقام الغربية ليست إلا أرقاماً عربية . كل هذا انما يدل على مدى اقتباس العلوم الغربية من العلوم العربية .

إن ما تحويه المؤلفات العلميّة والفلسفية الغربية من أمثال هذه الشواهد لدليل على ان النضج الفكري والعلمي الذي نقرأ عنه في عصر النهضة الغربية وبعدها ، إنما كان متأثراً إلى حد بعيد بالنضج الفكري والعلمي عند العرب ، بل كان مؤسساً عليه ومقتبساً منه . فمن الغبن ان يجرّد العرب من فضلهم على الحضارة الغربية ، ومن عدم الانصاف للتاريخ ان يقال إن العرب لم ينشئوا حضارة . ولكن كيف يكون الاستعمار استعماراً إذا لم يجن على حقيقة التاريخ ؟ !

١٠ . التفاعل بين الشرق والغرب في الحروب الصليبية

●

عندما عظمت شوكة العرب وسطعت مدنيتهم ، عمدوا إلى توثيق العلاقات بينهم وبين الغرب . ويُروى أن الخليفة هارون الرشيد والامبراطور شارلمان كانا يتبادلان التمثيل والهدايا الثمينة . وقد ذهب بعض الرواة إلى القول بأن هارون الرشيد أهدى صديقه شارلمان مفاتيح القبر المقدس في مدينة القدس ، دليلاً على قبوله بحماية الامبراطور المسيحي لقبر المسيح . وقال مؤرخون آخرون ان مفاتيح القبر المقدس ، إنما أرسلها إلى شارلمان بطريرك القدس وليس هارون الرشيد ، لأن البطريرك هو الذي طلب حماية الامبراطور شارلمان لمسيحيي الشرق .

الأمر المتفق عليه من المؤرخين ان مفاتيح القبر المقدس أرسلت لشارلمان سواء كانت قد أرسلت من البطريق طلباً للحماية ، أم من هارون الرشيد اعترافاً بهذه الحماية . فاتخذ الغرب من هذه البادرة وسيلة لتدخله في البلاد العربية .

وكان من نتائج هذه البادرة أيضاً ، تفاقم النزاع بين الكنيسة الغربية التي تتزعمها روما والكنيسة الشرقية التي تتزعمها بيزنطة . وهو نزاع

سببه الظاهر طقسي لاهوتي ، وسببه الحقيقي التزاحم على السيادة الروحية والزمنية . ولما كان الامبراطور شارلمان وملوك الغرب تابعين للكنيسة الغربية ، ويعترفون بسلطة البابا الروحية والزمنية ، ويستمدون قوتهم وسلطانهم منه ، فقد آلم الكنيسة الشرقية ان توضع الاماكن المقدسة تحت حماية الكنيسة الغربية مما زاد في تفاقم الخلاف بين الجبهتين المسيحيتين .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول ان الخلاف المذهبي بين الكنيستين ، وطمع السلطة الدينية الغربية في اخضاع الكنيسة الشرقية لها ، كان في عداد العوامل التي أدت إلى الغزوات الصليبية ، هذه الغزوات التي أطلقتها الكنيسة الغربية ، وجندت لها ملوك أوروبا كلها ، لاحتلال الأراضي المقدسة ، واسترجاعها من أيدي المسلمين من جهة ، ولاعادة وحدة الكنيسة المسيحية من جهة ثانية .

* * *

في القرن العاشر غزت الديار العربية قبائل تركمانية ، ما لبثت أن اعتنقت الاسلام ديناً لها ، وحاربت البيزنطيين وهزمتهم ، واستولت على الأراضي المقدسة . فاستنجد المسيحيون البيزنطيون ببابا روما لرد غزوات الغزاة المسلمين . ووجد بابا روما في هذه السانحة حافزاً جديداً ، على هامش الحافز الديني ، للمباشرة في الحروب الصليبية . وكان مسيحيو الغرب ، في هوسهم الديني ، على أشد ما يكون من الحماسة لاستعادة مهد المسيح وقبره من أيدي المسلمين .

وقد زاد في حماسة مسيحيي الغرب ما كانوا يسمعونه عن تنكيل المسلمين باخوانهم في الدين . فعندما غزت قبائل التركمان الاراضي العربية واعتنقت الاسلام ، بالغت في تعصبها للدين الاسلامي ، وما كانت ترأف بالذين على غير دينها . وكانت تنزل بهؤلاء مزيداً من الاضطهاد ، لم يتعرض له المسيحيون تحت حكم المسلمين العرب . ان المسلمين العرب لم يعرف عنهم القسوة والجور في معاملتهم للمسيحيين ، بل كانوا

يتركون لأهل الكتاب حرية العبادة وممارسة طقوسهم الدينية ، مكتفين بأخذ الجزية منهم . وعندما آل الحكم للتركمان ، ووصلت أخبار اضطهاد هؤلاء للمسيحيين ، قامت في أوروبا دعوات تبشيرية لغزو البلاد العربية بغية تخليص الأراضي المقدسة من المسلمين .

جاء في تاريخ الحركة الصليبية ، أن متزعمها والداعية لها كان راهباً اسمه « بطرس الناسك » . في غالب الظن ان « بطرس الناسك » لم يكن زعيم الحركة ، بل كان واحداً من دعاتها ، ولعله كان الاكثر حماسة وهوساً . إن الحركة الصليبية كانت أعمق كثيراً من مجرد تهويسة رجل مثل بطرس الناسك . إنها كانت خطةً مدبرة من أكثر من رجل يغار على الدين المسيحي وعلى اخوانه في المسيحية . إنها خطة توسعية ، رسمتها أوروبا ، ببركة الكنيسة البابوية ، لاحتلال الشرق واخضاعه لسيادتها وفرض استعمارها عليه .

ومهما يكن من أمر أسباب الحركة الصليبية ومسبباتها ، فقد وجدت هذه الحركة هوىً عند السلطات الاوروبية ، الروحية منها والزمنية . وتحالفت السلطات مع الفئتين ، في حملاتها العسكرية على الشرق .

كان الفرنج من جميع بلدان اوروبا يهرعون للتطوع في هذه الحملات وهم متعطشون للسير إلى الحرب . كان المحاربون يضعون على صدورهم شارة الصليب ، مطمئنين إلى انهم يحاربون من أجل الذي صُلب من أجلهم ومن أجل العقيدة المسيحية . كان هوسهم الديني يدفعهم إلى الموت ، وكانت السلطات الروحية والزمنية في أوروبا تستغل هوسهم وجهلهم . وهكذا كان الدين في جميع الأزمان ، الذريعة الأكثر خدمة لأصحاب الاغراض الزمنية .

وتوالت الحروب بين المسيحيين والمسلمين . وكانت الغلبة تنتقل من هؤلاء إلى اولئك ، ومن اولئك إلى هؤلاء . فما كانت تنتهي حملة صليبية حتى تبدأ حملة ثانية . وبلغ عدد الحملات الثماني َ ، كان الظفر

في أكثرها للجانب المسيحي . فاحتل الغربيون ديار الشرق مدات تقارب المئة والخمسين سنة .

على أن هناك أمراً له دلالته في اثبات ما نذهب اليه ، من ان الدفاع عن المسيحية لم يكن هو الدافع للقيام بالحملات الصليبية ، بل كان مجرد ذريعة تذرّع بها الغربيون للقيام بحروبهم التوسعية . فعندما غزا الصليبيون الشرق ، سارعت الكنيسة الغربية إلى ضمّ الكنيسة الشرقية اليها ، وكانت الكنيسة الشرقية قد ضعف شأنها من جراء انكسارات الامبراطورية البيزنطية . فاضطرت الكنيسة الشرقية إلى الخضوع للكنيسة الغربية مدة ستين سنة . وما عادت إلى التحرر من سيادة زميلتها في الغرب إلا في عام ١٢٦١ عندما دبّ الانحطاط في الكنيسة الغربية الرومانية ، على اثر تنازعها مع ملوك أوروبا ولا سيما ملوك فرنسا . وفي الستين سنة ، التي كانت فيها الكنيسة الشرقية تابعة للكنيسة الغربية ، كان مسيحيو الكنيسة الشرقية يلاقون من معاملة الغزاة أبناء الكنيسة الغربية أشدّ أنواع العسف والجور ، مما دعا البطريرك الاورشليمي البيزنطي إلى القول : « ان طائفته لم تقاسِ تحت سلطة المسلمين ما قاسته ، عندما آلت السلطة إلى ملوك اللاتين المؤتمرين بأمر الكنيسة الغربية » ، وكان من جراء تبرم مسيحيي الكنيسة الشرقية بمعاملة أبناء الكنيسة الغربية لهم ، ان اغتنموا فرصة انتصارات البيزنطيين على الاتراك في آسيا الصغرى ، وجعلوا يحاربون الصليبيين اللاتين . فوجد الصليبيون اللاتين أنفسهم تجاه خصمين: المسلمين والبيزنطيين .

* * *

قلّما يذكر التاريخ حروباً ارتكبت فيها الفظائع كالتي ارتكبت في الحروب الصليبية . على أن مؤرخي هذه الحروب ، ومعظمهم من المسيحيين ، يسجلون على الصليبيين تفوقهم على أعدائهم في ارتكاب الفظائع . فمما كتبه المؤرخ الفرنسي « لوشار » : « إن الفظائع الوحشية

التي ارتكبها المسيحيون في المدينة المقدسة تفوق حدّ التصوّر » . ومما قاله « ميشليه » وهو أيضاً فرنسي : « ان الصليبين في هوسهم الجنوني الأعمى كانوا ينظرون إلى كل مسلم كأحد قتلة المسيح ويعاملونه كذلك » . وقد أفتى الاسقف غيليوم بعد انقضاء مئة سنة على الحروب الصليبية : « أن الصليبيين في ذبحهم الآلاف من الكفرة (يعني المسلمين) لم يكونوا إلا منفذين لمشيئة الله » .

كان الصليبيون يذبحون في الشارع كل مسلم تصل اليه أيديهم . كانوا يمسكون الاطفال بأرجلهم ويضربون رؤوسهم على الجدران حتّى تتحطم . في الجامع العمري قتلوا عشرة آلاف مسلم دفعة واحدة . فلم يسبق للتاريخ أن عرف وحشية كوحشية الصليبيين . والجدير بالذكر انهم ما كانوا يخصصون بفظائعهم المسلمين فقط ، بل شملوا مع هؤلاء المسيحيين غير التابعين للكنيسة اللاتينية ، باعتبارهم خارجين عن الكنيسة المقدسة ، كنيسة روما اللاتينية . هذا ما جعل مسيحيي الكنيسة الشرقية ينضمون إلى المسلمين في محاربة الصليبيين . والغريب أن الغزاة الصليبيين كانوا يفعلون ذلك باسم المسيح .

ومن جهة ثانية ، لم يروِ المؤرخون المسيحيون أنفسهم مثل هذه الوحشية عن المسلمين . هؤلاء كانوا قساة في حروبهم ، غير انهم لم يكونوا وحشيين في معاملة الاسرى ولا الاهلين المسيحيين . فاذا انتصروا كانوا يكتفون بضرب الجزية على أعدائهم ولا يفظّعون بهم . بعد معركة طبريا التي انتصر فيها صلاح الدين الايوبي على خصمه الملك « غي ده لوسينيان » ـ وكان هذا على ما يُروى ، حامل قطعة من خشب الصليب الحقيقي الذي صُلب عليه المسيح ـ عفّ صلاح الدين عن التفظيع بالاسرى الذين نجوا من الموت المريع أثناء المعركة ، وجرّدهم من السلاح . وضرب عليهم الجزية وأطلق سراحهم مع قائدهم الملك « غي » .

وليست هذه الحادثة وحدها هي الدليل على الفرق الكبير بين معاملة الغزاة لاعدائهم ، وبين معاملة أعدائهم لهم . هي واحدة من المئات التي جاءت في كتب التاريخ عن الحروب الصليبية ، ومعظمها لمؤرخين مسيحيين من الفرنج بالذات .

* * *

لقد دامت الحروب الصليبية زهاء مائتي سنة . كانت في بدايتها حرباً ضد المسلمين ومن أجل استرجاع القبر المقدس . ثم تحوّلت فيما بعد إلى حرب ضدّ كل سلطة غير لاتينية حتى ولو كانت مسيحية . وما انتهت هذه الحروب إلا عندما دبّ الانقسام بين السلطات الاوروبية نفسها . وكانت بداية نهايتها عندما قام في الغرب امبراطور عاقل اسمه فريدريك الثاني ، وأخذ على عاتقه القيام بحملة صليبية .

كان هذا الامبراطور ، كما سبق القول ، شغوفاً بنهضة العرب العلمية والثقافية . وقد جعل في بلاطه مدرسة للعلوم العربية والثقافية المترجمة عن الثقافة اليونانية . وقرّب اليه رواد النهضة الثقافية . واكرم علماءها وبحاثيها . ولم يكن فريدريك على وئام مع بابا روما . فأصدر البابا حكمه بحرم فريدريك من الكنيسة ، مما أضعف قوته العسكرية . فما إن وصلت جيوشه إلى بيت المقدس حتى تعاقد مع سلطان مصر ، خليفة صلاح الدين الايوبي . واعترف السلطان لفريدريك بالملكية الأسمية على الاراضي المقدسة . فكانت هذه المعاهدة بين الامبراطور والسلطان نقطة تحوّل في الحروب الصليبية . ومع أن هذه المعاهدة لم تكن نهاية الحروب الصليبية غير انها كانت بداية النهاية . وكانت المحاولات التي قام بها الصليبيون فيما بعد تصادف فشلاً بعد فشل ، إلى أن عاد الفرنج إلى أوروبا ليبدّلوا بمساعيهم العسكرية مساعي أخرى ، لكي يفوزوا من الشرق بما لم يفوزوا به بواسطة الحرب .

* * *

غير ان الحروب الصليبية لم تكن بدون نفع . كان نفعها انها خلقت تفاعلاً بين الشرق والغرب . وكان هذا التفاعل واسع المدى ومتعدّد النواحي ، منه الحسن ، ومنه السيء .

أما السيء فهو اضرامها نار الكره والحقد بين الغرب والشرق . لقد طمع الغرب في بسط سيادته على الشرق ، فاستعمل الدين لبلوغ غايته . وأبى الشرق أن يخضع للغرب ، فاستعمل الدين كذلك للتخلص من سيادة الغرب . في كلا الحالين كان الدين وسيلة لا غاية . وها نحن في القرن العشرين ، وقد مضى على الحروب الصليبية أكثر من سبعة قرون ولا يزال أثر هذه الحروب قائماً ، في إذكاء نار البغض والضغينة في ضعاف النفوس والجهلة . وانه لمؤسف حقاً أن تتذرع قوى الشرّ في العالم بما تنبشه في بطون التاريخ ، من أحقاد سالفة وتبني عليها تصاميمها المجرمة، متخذة من جهل العامّة مجالاً فسيحاً لتحقيق أغراضها الجشعة . وليس مستغرباً أن ينقم الكتّاب الانسانيون على كتبة التاريخ ، ويدعوا إلى نبذ ما يدّبجه هؤلاء من شروح وتعليقات على حوادث يعتمدها ذوو النيات المغرضة والطمّاعة ، لاستفزاز عقلية البسطاء وتوجيهها توجيهاً تعصبياً لأغراض مجرمة ومشينة .

أما الشيء الحسن الذي نتج عن الحروب الصليبية ، فهو التفاعل الخيّر الذي حصل من هذا التصادم بين الغرب والشرق . ليت المؤرخين والمعلمين يقصرون شروحهم على تبيان الحسنات والافاضة بها ويزيلون من أذهان العامة ذكريات السوء والحقد والضغينة . ليتهم يفعلون ذلك لكي يصبح التاريخ ، عبرة يأخذها الحاضر عن الماضي ، ويبني عليها المستقبل . إن المفروض في كتب التاريخ ، ألا تقتصر على كونها عرضاً لحوادث جرت وقائعها في الماضي ، بل مدرسة للتوجيه الصالح يجعل المستقبل أفضل وأحسن من الماضي ، فلا تنقلب الفائدة المبتغاة من هذه المدرسة إلى مضرّة ، تعوق التقدم الانساني نحو الكمال . فما هي النتائج

الحسنة التي حصلت من التفاعل بين الشرق والغرب ، في الحروب الصليبية .

* * *

في الحقبة الطويلة التي كانت تتعاقب فيها الحملات الصليبية ، كان المجال مفتوحاً للاتصال بين الغرب والشرق . فبينما كان غزاة الغرب يفتحون القطاعات الشرقية ، كانوا يتغلغلون في المدن والاوساط والمجتمعات . وكان من جراء ذلك ، أن أخذوا عن الشرقيين عاداتهم وتقاليدهم ، كما نقلوا إلى هؤلاء بعضاً من عادات الغرب وتقاليده .

وكان من نتيجة هذا التفاعل أيضاً حصول تزاوج بين الفريقين ، لا سيما بين الفريق الغربي المسيحي والفريق الشرقي المسيحي . وفي رواية ما ، أن ريكاردوس قلب الأسد ، الذي لم يكن يحفظ ضغينة للمسلمين ، والذي أجرى بينه وبين السلطان صلاح الدين علاقات ودية ، أعطى أخته زوجة للملك العادل شقيق صلاح الدين ، معرّضاً نفسه للحرم من قبل البابا . ومن المقول ، ان بين سكان شواطئ البحر المتوسط ، من يرجع نسبهم إلى الصليبيين . وهناك أكثر من دليل على صحة هذا القول .

وقد عرف عن الصليبيين سرعة امتزاجهم بالحياة الشرقية . فالكثيرون منهم تزيوا بالزي الشرقي ، وتعودوا المآكل الشرقية . وتحالف بعضهم مع اسر وقبائل من الشرق ، وتبادلوا المنافع والتجارة معهم ، وعملوا أثناء اقامتهم في البلاد على تقوية النظام الاقطاعي فيها ، وهو النظام الذي كان سائداً في الغرب ، وبنوا القلاع الحصينة في المرتفعات . ولا تزال آثار هذه القلاع موجودة حتى الآن : كـ « قلعة الحصن أو حصن الاكراد » في جبال النصيرية و « قلعة الشقيف » بالقرب من مرجعيون .

على أن التفاعل الأقوى ظهرت معالمه في الغرب أكثر من الشرق . ذلك لأن الشرق كان أكثر تقدماً من الغرب في مجمل نواحي الحياة .

وقد حمل الصليبيون إلى بلادهم أنواعاً من محصولات الشرق ، وتاجروا بها ، ثم جعلوا ينتجونها في أراضيهم ، بفضل تدربهم على انتاجها في الشرق . غير ان أبرز مظاهر التفاعل كان في الناحية الفكرية والعلمية .

لقد دهش الصليبيون من التقدم العلمي والفكري في الشرق . فكانوا عندما يعودون إلى بلادهم ، يروون لمواطنيهم الروايات المختلفة عنه ، ويشوقونهم للاقتداء بالنهضة الفكرية فيه .

ويعود الفضل الاكبر في اقتباس النهضة العلمية والفكرية عن الشرق إلى الامبراطور فريدريك الثاني المتمرد على سلطة البابا . فهذا الامبراطور الذي كان على اتصال وثيق مع علماء العرب ومفكريهم قبل تزعمه الحملة الصليبية السادسة ، اغتنم فرصة قيامه بهذه الحملة ، ومجيئه بنفسه إلى الشرق ، ليوثق اتصالاته بالثقافة العربية . فهو لم يضع وقته بالحرب ، بل صرف جهوده أكثر للناحية العلمية والثقافية . وعندما عاد إلى بلاده ، أسس جامعة نابولي وجامعة سالبرنو الطبية . واعتمد في هاتين الجامعتين الدروس التي وضعها ابن سينا والرازي وابن رشد وابن خلدون وسائر أقطاب العلم والفلسفة العرب . والامبراطور فريدريك هو الذي أمر بترجمة فلسفة أرسطو وتعليقات ابن رشد عليها . وهو الذي أدخل الارقام العربية وعلم الجبر إلى أوروبا . إن جامعتي نابولي وسالبرنو كانتا النافذة الاولى التي تسربت منها النهضة الفكرية إلى أوروبا ، ووضعت أساساً للنهضة الفكرية فيها ، في العهد الذي عُرف بعهد الانبعاث كما ذكرنا في الفصل السابق .

* * *

إن الحروب الصليبية كانت نقطة تحوّل في التفاعل بين الشرق والغرب . وبين مدنية هذا ومدنية ذاك . وليست المعارك الحربية والفظائع التي ارتكبت فيها ، هي الناحية الأهم في هذا التفاعل . فيجدر بعلماء التاريخ وفلاسفته ، إذاً ، ألا يكونوا معواناً لسياسة الطمع والتعصب

والاستعمار والقومية المتطرفة في معالجتهم تاريخ هـــذه الحروب ، وألا يقصروا معالجتهم لها على شرح الحوادث الوحشية التي أوقد سعيرهـــا المحاربون باسم الدين ، والتي يُتوخى منها ايقـــاظ النعرات الدينية والتعصبية والشوفينية . فالحروب الصليبية على الرغم من وحشيتها الحربية والعسكرية ، لم تكن عديمة النفع في سير الحضارة التصاعـــدي . فعلى علماء التاريخ وفلاسفته إذاً ، مع ذكرهم للحوادث والوقائع التي حدثت اثناء هذه الحروب ، أن يستخلصوا منها المفيد ، ويحولوا اليه أذهـــان طلاب المعرفة . انهم اذا فعلوا ذلك استحقوا لقب مؤرخـــين وعلماء وأدباء في وقت واحد ، واشتركوا مع العاملين عـــلى تقدم الحضارة الإنسانية .

١١ . القرون الوسطى المظلمة
وسيادة الكنيسة

●

اصطلح علماء التاريخ على ان يطلقوا على المدى التاريخي الذي عقب انقراض الامبراطورية الرومـانية وسبق عصر النهضة ، أي من القرن السادس الى القرن الثالث عشر ، اسم القرون الوسطى او القرون المظلمة. وقد سميت كذلك لأن الرجعية الدينية التي سيطرت على تلك الحقبة كانت تقف سداً في وجه كل حركة فكرية وتقدمية وعلمية . والرجعية كما هو معلوم لا تقوم الا على الجهل والتجهيل ، وليس لها غنى عنهما .

في تلك القرون كان همّ السلطات ، الطمس على كل ما بقي من آثار المدنية والعلوم اليونانية والرومانية ، واحلال العقائد الدينية محلها . وكانت السلطات تتهم من ينتقد العقائـد هذه ، او يقاوم الخرافات والأساطير الروحانية بالكفر والزندقة ، وتنزل به أقسى العقوبات وأشدها وحشية . ان من يطالع تاريخ هذه الحقبة من التاريخ ، ويستطلع منه شكل السلطة التي كانت تحكم في ذلك الزمان ، ونوع الثقافة التي تميزت بها تلك القرون ، يتجلى له بوضوح كيف كان يعيش الانسان وقتئذ ، وإلى أية درجة من الانحطاط هبطت قيمة الانسان .

* * *

بعد انقراض الامبراطورية الرومانية على يد برابرة الشمال ، بقيت السلطة الزمنية تتأرجح بين امراء وملوك متفرقين ، ومستقل بعضهم عن بعض . ولكن السلطة الروحية بقيت في قبضة البابا وحـــده . والسلطة الروحية في القرون الوسطى كانت أعظم شأناً من السلطة الزمنية ، بل كانت السلطة الزمنية منبثقة من السلطة الروحية . وكان البابا يسعى بكل الطرق لكي يمنع قيام سلطة زمنية موحّدة وقوية ، قد تنازعه السلطان والسيادة . هكذا بقي السلطان المطلق في ذلك العهد معقود اللواء للبابا وللكنيسة . وكان الأمراء والمـــلوك يتسابقون لاسترضائـــه واكتساب تأييده . هو يهبهم السلطان عـــلى اماراتهم وممالكهم ، وهو يتوّجهم ملوكاً وأمراء .

وكان ان قام امبراطورٌ كبير هو شارلمان ، استطاع التغلب عـــلى خصومه ، ووحّد الامبراطورية الغربية . وطمح شارلمـــان الى اقتسام النفوذ بينه وبين البابا ، فتكون له السلطة الزمنية وللبابا السلطة الروحيّة. وخطر له ان يخرج على العادة المألوفة ، التي تقضي بأن يتوّج البابا بيده الملوك والأباطرة ، اعترافاً باستمداد سلطتهم منه . فـــا كان من البابا عندما شعر بطموح شارلمان ، إلا ان استبق الأمر ، وقام بمحاولة ناجحة لاثبات سلطته على الامبراطور . ودعا شارلمان الى حفلة كنسية في روما ، أعدّ فيها الخطة لاحباط خطة شارلمان . فعندما انتهت مراسيم القداس الكنائسي ، تقدم البابا من الامبراطور ، ووضع على رأسه تاجاً كان قد أعدّه خفية ، وبارك شارلمان ، ونادى به قيصراً وامبراطوراً . لقد جازت الحيلة على شارلمان ، ولكنه سكت عنها للمناسبة ، واكتفى بأن أوصى ابنه ووريثه على العرش ، ان يأخذ للأمر عدّته ، ولا يرضى بأن يتولى البابا تتويجه عندما يرث الملك . غير ان ابنه ، الذي ورث عن أبيه الملك ولم يرث عنه الطموح ، لم يحفل بوصية أبيه ، وقبل التاج من البابا . وهكذا بقي رئيس الكنيسة يمارس هذا الحق عـــلى الأباطرة

طوال ذلك العهد . وبقي الملوك والامراء يخضعون للكنيسة خضوعاً مطلقاً ، في الأمور الروحية والزمنية على السواء . فاذا غضب البابا على أحدهم ، انتزع السلطة منه ، وأنزل عليه الحرم ،وهو أقسى العقوبات . من ذلك مثلاً ، ان البابا غريغوريوس السابع ، غضب على الملك هنري الرابع وحرمه . فكان حرم البابا سبباً لتنكّر رعايا الملك له وانقضاضهم عليه ، مما اضطر هنري الرابع الى استرضاء البابا بطريقة ما . وعندما وجد هنري الرابع ان لا مفرّ له من الخضوع الى السلطة البابوية ، مشى على قدميه الى « كنوسة » مقر البابا وقتئذ ، وقضى ثلاثة أيام بلياليها الباردة على باب الدير ، حتى سمح له بمقابلة البابا ، وطلب الغفران منه . فغفر له السيد بعد هذا الاذلال . بذلك فقط استطاع هنري الرابع استرجاع ملكه . ومنذ ذلك الحين ذهب القول مثلاً : « ان فلاناً ذهب الى كنوسة » ، يعني انه قدم خضوعه لصاحب السلطة العليا .

وقد كان فريدريك الثاني هو الامبراطور الوحيد والأول الذي أصاب نجاحاً في مقاومته للبابا . كان ذلك عندما قام بحملته الصليبية عن غير اقتناع بجدواها ، وعن غير اقتناع بضرورة محاربة العرب . وكان من جراء تمرده على السلطة البابوية ، ان عقد معاهدة صلح بينه وبين سلطان مصر عام ١٢٢٨ ، مما أغضب البابا ، كما سبق وذكرنا . وقد كانت ثورة فريدريك على السيادة البابوية ، نقطة تحوّل في العلاقات بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية ، وبداية انهيار السيادة البابوية ، مما ادى فيما بعد ، الى انقسام الكرسي الرسولي الى قسمين ، وقيام باباوين ، واحد في روما تعترف به كل الدول الاوروبية الكاثوليكية ما عدا فرنسا . وثان في مدينة « افنيون » منتخب من فرنسا وحدها . وقد دام هذا الانقسام مدة نصف قرن . وعلى الرغم من إعادة وحدة الكنيسة بعدها ، لم تعد معها الى الكنيسة سيادتها السابقة .

في هذه العهود ، عهود القرون الوسطى ، عندما كانت الكنيسة

متسلطة على جميع نواحي الحياة ، وعندما كانت الكنيسة تسيّر الحكام والأمراء والملوك فيخضعون لها ، كانت الثقافة في أدنى دركاتها . ذلك لأن الكنيسة كانت ترى في التقدم الثقافي والعلمي ، خطراً على نفوذها المستمدّ من مبادىء يعتقد أصحابها والمشايعون لهم ، بأنها منزلة لا تقبل لا بحثاً ولا جدلاً . وكان لهؤلاء وحدهم صلاحية تفسيرها وتطبيقها ، حسب مفاهيمهم ، او حسب رغائبهم . ولذلك كانت السلطة الكنسيّة تحارب الفلسفة والعلوم اليونانية المبنيّة على العقل وتحرّمها . بل كانت تذهب الى ابعد من هذا ، وتمنع نشر الكتاب المقدس نفسه ، لكي لا تقرأه العامّة ، خشية ان تفهم العامة من آياته ما لا ينطبق على مسلك بعض رجال الكنيسة .

كل حركة فكرية كانت هدفاً للاضطهاد . روجر باكون كان راهباً وكان مفكراً ، فلم يستسغ عقله النظريات الغيبية المطلقة ، وحمل عليها ، منكراً ان الأشياء والطوارىء الطبيعية ذات كينونة مقررة ومستقلة، وقائلاً انها مسببات لاسباب يجب البحث عنها ومعرفتها والرجوع اليها في الكشف عن حقيقتها . كان باكون اول من افتتح باب الجدليّة في الغرب ، المتحدّر بالفلسفة الحتمية المطلقة . وكان باكون جريئاً في ابداء نظريته هذه ، فلم يجبن أمام الاضطهاد الذي لحق به من السلطات الروحية ، وبقي مثابراً في طريقه ، على الرغم مما اعترضه من صعوبات. ومع ان السلطة الكنسيّة عفت عن اعدامه ، لكنها قضت عليه بالسجن في سجن اوكسفورد ، حيث قضى فيه اربعة عشر عاماً ، الى ان مات .

* * *

لم تكن لمادية الانسان اىما قيمة في القرون الوسطى . كان الانسان يعتبر مسافراً في الدنيا ، ما عليه الا ان يهيء نفسه للآخرة ، لا أهمية للجسد بل الأهمية للروح فقط ، للروح كما تصفها وتحددها الكنيسة . كان

الطب على أقصى درجة من الانحطاط ، والطبابة كانت مقصورة على الطبقة السيّدة . كانت العلوم الطبية محرّمة مثل سائر العلوم غير الكنسية . كانت المعاهد التعليمية التي أنشئت في جنوبي اوروبا بفضل الامبراطور فريدريك الثاني حراماً على طلاب المعرفة ، ولم يكن يفسح لها المجال لنشر ابحاثها . كانت الطبابة في يد الكهّان والمشعوذين والدجالين ، وكانت الأوبئة تحصد الناس حصداً . وكانت الأمراض تداوى بالصلوات ، وكانت الجراحة جزارة . كان محرّماً إن يدعى طبيب لمساعدة امرأة في المخاض ، وكان الكاهن هو وحده من يجوز له معاونتها ، فاذا تعسّرت ولادة ماخضة يدعى الكاهن ليردد عليها الصلوات ، بينما هي تتألم وتتعذب ، واذا انقطع الرجاء من خلاص الأم ، كان همّ الكاهن ان يعمّد الطفل وهو في رحم امه لكي تخلص روحه . كان الكاهن يُدخل آلة خاصة الى فرج الوالدة ، ويرش بواسطتها الماء المقدس على الطفل ، فيعمّده كاثوليكياً باسم الآب والابن والروح القدس ، ثم ينتظر فيضان الروح من الميّتين ، الأم وطفلها ، فيطمئن الى انهما ماتا مسيحيين . وكفي الله المؤمنين شر الحياة .

على هذا النمط كانت تسير الحياة في اوروبا في القرون الوسطى ، بينما كانت مدنية العرب تمشي من ازدهار الى ازدهار في العالم المسمى بالشرق الادنى والاوسط . على انه بالرغم من كل وسائل الضغط والارهاب والاضطهاد ، كانت الثقافة العربية تتسرب الى الغرب ، حاملة اليه زاداً مغذياً منها ومن الثقافة اليونانية . من « معرّة النعمان » شعّ نور ابي العلاء المعري ، وألهم « دانتي » روايته الخالدة « الكوميديا الآلهية » ، سواء كانت هذه الرواية مستلهمة من رسالة المعري الغفرانية مباشرة أم لم تكن . ومن شمالي افريقيا قفزت تعاليم ابن خلدون وابن رشد الى شاطىء المتوسط الجنوبي ، فبذرت بذاراً حصده فيما بعد « باكون » و « مونتسكيو » وغيرهما من المفكرين الاجتماعيين .

وما كاد القرن الثالث عشر يطل حتى بدأ سلطان العقل ينازع سلطان الروح ، معلناً بداية الانبعاث وعهد النهضة .

* * *

في الواقع ان تاريخ القرون الوسطى متشابك مع تاريخ السلطة الروحية الرومانية . ذلك لأن الكنيسة الرومانية كانت تتمتع بالسيادة على مختلف الاقطار الاوروبية ، باستثناء الاقطار الشرقية منها ، التي لم تكن تمت بصلة الى الاقطار الغربية إلا بكونها اوروبية جغرافيـــاً فقط . فالقسم الشرقي هـــذا ، الذي يفصله عن القسم الغربـي نهر الاودر ، لم يكن يوماً من الايام تابعاً للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ولم يكن لهذه الكنيسة ايما نفوذ عليه . فماذا كان يجري في هذا القسم اثناء القرون المظلمة ؟ وبماذا كانت تختلف حياة الانسان بين القسمين ؟

لقد نزلت في أقطار هذا الجزء من اوروبا قبائل سلافية منذ القرن العاشر . جاءت هذه القبائل من أواسط آسيـــا ، مفتشة عن الرزق .. ووجدت في سهوله المروية من أنهره مراتع كثيرة الخصب فاستقرت فيها وجعلت من مدينة «كييف» عاصمة لها . ولما كانت هذه القبائل شرقية بطبيعتها ، فقد كان طبيعياً ان تؤثر التعامل مع الشرق اكثر من الغرب ففضلت الاتصال بالقسطنطينية « بيزنطية » على الاتصال بروما، وجعلت تتاجر معها ، وتسافر اليها ومنها ، وأتاحت للمرسلين البيزنطيين الدخول الى اقطارها . وكان البيزنطيون اكثر تقدماً ورقياً من شعوبهـــا . كان هدف بيزنطية من هذا التفاعل ، عدا المتاجرة ، نشر مدنيتها في هذه الاقطار . فاعتنق السلافيون الديانة المسيحية على يد البيزنطيين ، وانكروا وثنيتهم ، وأصبحت المسيحية البيزنطية ديانة هـــذه البقاعات السلافية المعروفة اليوم باسم روسيا . هي فرصة فاتت الكنيسة الرومـــانية ، التي كانت منشغلة عن هـــذا الكسب بمتاعبها مع ملوك اوروبا ، فانتهزتها

لكنيسة البيزنطية الشرقية . وهكذا انقسمت اوروبا الى شرق والى غرب، مختلفين ومتباعدين ، عقائدياً وحضارياً ، كما لو لم يكونا من اوروبا واحدة . وما كانت الايام الا لتزيد في تباعدهما ، وهو التباعد الذي ما زالت آثاره الى يومنا هذا . ومن العوامل التي زادت في التباعد بين مسيحية السلاف الشرقية والمسيحية الغربية ، موقف روما ، ومن ورائها البلدان الغربية كلها ، من مسيحيي الشرق ، عندما اكتسح جنكيزخان بلاد الروسيا في القرن الثالث عشر واستعبد شعوبها استعباداً وحشياً ، فمسيحيو الغرب اللاتين اكتفوا بالتفرج على ما كان ينزله الفاتح باخوانهم في الدين من ضروب الذل والهوان طوال مائة وخمسين عاماً ، دون ان تحركهم نخوة الأخوة المسيحية لمساعدتهم او الذود عنهم . وسبب ذلك ان روما كانت ترى في مسيحية بيزنطية خروجاً على المسيحية نفسها . هذا ، فضلاً عما كانت تتنازع السلطة الرومانية في ذلك الحين من الخلافات الداخلية . وكان من جراء ذلك ان بقيت الشعوب السلافية تتمرغ في عبوديتها للغزو الجنكيزخاني مدة قرن ونصف القرن ، الى ان قيض لها الخلاص من هذه العبودية على يد قائد من ابنائها ، هو الغراندوق الموسكوي ديمتري عام ١٣٨٠ ، فأشاحت بوجهها عن الغرب، واستقرت مستقلة عنه ، تحت زعامة امراء من سلالات شمالية تتوالى على الحكم ، الى ان عهدت إلى احد اشرافها ميشال رومانوف بالحكم المطلق ، ورفعته على عرش الروسيا كلها . وقد دام حكم آل رومانوف الى عام ١٩١٧ عندما أطاحت بهم الثورة السوفياتية كما سيجيء فيما بعد .

على ان تبعية روسيا لبيزنطية لم تدم طويلاً . فعندما سقطت القسطنطينية في يد المسلمين على يد محمد الفاتح عام ١٤٥٣ ، وانهارت الامبراطورية البيزنطية ، بادرت روسيا الى الوقوف موقف السيد على المسيحية الشرقية ، ووجهت بياناً الى العالم قاطبة بأنها وحدها وريثة المسيحية البيزنطية وحاميتها .

فاعترف لها مسيحيو الشرق بهـذه الزعامة ، التي ما كانوا يريدون ان تكون لرومـا . وجعل لاهوتيّو الكنيستين يستنبطون الحجج اللاهوتية والعقائدية والطقسية الهادفة إلى تفاقم الخلافات بينهما ، ضاربين صفحاً عن جوهر العقيدة المسيحية نفسه .

* * *

يعترف التاريخ انه في القرون الوسطى كانت قطيعة بين غربي اوروبا وشرقيها . وهذه القطيعة كانت دينيّة وسياسية معاً . وكانت هـذه القطيعة حائلاً دون أي تفاعل بين حضارتي القسم الشرقي والقسم الغربي . ولم يكن هنـاك وجه شبهٍ بين الحضارتين الا في تشابه الحضارتين في الانحطاط والرجعيـة . في الغرب والشرق كان الاقطاعيون يتحكمون بالفلاحين والعمال . وفي الغرب والشرق كانت الخاصّة تستعبد العامّة . وفي الغرب والشرق كان العقـل كميّة مهملة . وفي الغرب والشرق كانت الروحانية هي المتحكمة بحياة البشر ، ومخدّرة عقل الانسان .

غير أن الغرب كان أسبق الى التقدم الحضاري من الشرق . مرجع ذلك الى ان المناهل التي أخذت منها النهضة الغربية غذاءها كانت أقرب الى غرب اوروبا من شرقيّها . فقد رأينا كيف كانت تتسلّل الثقافة الغربية الى جنوب اوروبا عبر جزيرة صقليّة في عهـد الامبراطور فريدريك الثاني ، وكيف كان يتلقفها نسّاك الاديرة في ايطاليا ، وكيف كانت تزوّد بها الجامعات التي انشأها الامبراطور فريدريك ، ثم تزود بها سائر الجامعات التي أنشئت فيما بعد في المدن الاوروبية الغربية . هذا ما جعل غرب اوروبا يسبق شرقيها في مضمار التقدم من جرّاء تفاعله مع الثقافة العربية . على ان عاملاً آخر كان له أثره في هذا السباق ، وهو طبيعة الميل الى الانعزالية عند الشعوب السلافية في ذلك الحين .

* * *

مما لا شك فيه ان الاقطاعية كانت الظاهرة الاكثر بروزاً في القرون الوسطى المظلمة . ومنهـا اشتقت سائر الظاهرات التأخرية الرجعية . والاقطاعية كانت سواء بسواء في غرب اوروبا وشرقها . وكان للسلطة الروحية اليد الطولى في تغذيتها وتقويتها في غرب اوروبا كانت الكنيسة الرومانية ، وفي شرق اوروبا كانت الكنيسة البيزنطية ، والكنيستان على مـا كان بينهما من خلاف في العقائد والطقوس ، كانتا متقفتين في تخوفهما من الشعب ، وفي العمـل على تجهيله واستبقائه في حالة الجمود والانحطاط . وعلى الرغم من ان بطاركة الشرق وأساقفته لم يكن لهم سلطان موازٍ لبابا الغرب ، فان مـا كانوا يتمتعون بـه من نفوذ ، كان يكفي لتخويلهم التدخل في الامور الزمنية ، فضلاً عن تحكمهم بالامور الروحية .

غير انه من الانصاف الاعتراف لاقطاعية الغرب بانها كانت اكثر مهارة وتنظيماً من إقطاعية الشرق ، لسبب وحيد ، هو ان السلطة الروحية في الغرب ، ومن ورائها السلطات الزمنية ، كانت اكثر مهارة من زميلاتها في الشرق . مرجع ذلك مبدأ العصمة الذي تقوم عليه الكنيسة البابوية . فالبابا بنظر الكاثوليك لا يخطىء ، وأعماله غير قابلة الانتقاد ، ونظام الكنيسة البابوية نظام كلي . ولذلك كانت اقطاعية الغرب مستندة الى نظام معين ومنسوب الى الوحي الآلهي ، بينما كانت اقطاعية الشرق مستندة فقط الى نفوذ رجال الدين واستبدادهم ، وتأخر العامة وجهلها ، وتحكم الخاصة بهـا بمساعدة الكنيسة نفسها . ولكن اختلاف النظام الاقطاعي بين الشرق والغرب ، لا يعني تفضيل أحدهما على الآخر . ان الدهاء والمهارة في عمل الباطل لا يعتبران مزية .

لم يكن للانسان قيمـة في العهود الوسطى أكثر من القيمة الآلية والجسدية . هو عبد لسيد مقاطعته ، يشتغل له ، ويحارب من أجله ،

ويموت في سبيله : وسيّده هذا عبدٌ للملك ، يدفع له ضريبة الرأس، ويشتري من الملك عبودية العامـــة . العامة يتسوّد عليهـــا الاقطاعي ، والاقطاعيون يتسوّد عليهم الملك او الامير . الفـــلاح يزرع الارض ويحصدها ، ويقدم محصولاتها للاقطاعي ، مكتفياً بكفاف العيش الزري. والكنيسة فوق الجميع ، توزع أراضي الجنة لقاء ما تأخذه من خيرات الارض . الرهبان مبشرون وأطباء وجبـــاة ايضاً . والويل لمن يمسك عنهم مـــا يفرضونه عليـــه . ان جزاءه الحرم من سعادة الآخرة ، وعقابه نار جهنم .

١٢ . عصر النهضة والانبعاث

●

يخطىء من يظن أن للتاريخ حدوداً فاصلة حاسمة . ولذلك لا يصح تحديد عصر النهضة بحدود تاريخية معينة بسنة أو بجيل معين . فلا يمكن إذاً أن يحدّد بالضبط متى انتهت العصور المظلمة ولا متى ابتدأ عصر الانبعاث . فقد كان الوعي يظهر أحياناً إبان الهجعة ، ثم لا يلبث حتى يختفي ، إما من تلقاء نفسه ، أو من ضغط قوى الرجعية عليه . غير أن الوعي ما كان يختفي إلا بعد ان يكون قد زرع بذوره في أرض تهيئها له عوامل التطور الزمني . فاذا ما تراكمت هذه العوامل ، وهطل الغيث ، ارتوى الزرع ونما ، وأعطى غلالاً ومحاصيل تبشر بموسم كثير الخصب والانتاج .

هكذا كان التطور من عصر الظلمة الى النور . ومن عصور الهجعة في القرون الوسطى الى عصر النهضة . وقد كشف هذا التطور عن قوى كامنة في العقل البشري ، ما إن تهيأت لها وسائل التقدم والتحرر ، حتى انطلقت في طريق الاصلاح الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والعمراني .

واذ يفتش دارس التاريخ عن بداية التطور في القرون الوسطى ، يجد في الحوادث ما يصح اعتباره نقطة التحول ، في يقظات ، كانت القوى الرجعية تحسبها ثورات ، فتعمد الى اخمادها والحد من فعاليتها ،

ولو الى وقت . ولولا ذلك ، لكانت هذه اليقظات قد عجلت الانتقال من العصور المظلمة الى عصر النهضة والانبعاث .

* * *

لقد رأينا في فصل سابق كيف خلق الامبراطور فريدريك الثاني سوقاً للادب والعلم والفلسفة في بلاطه في جزيرة « صقلية » ، وكيف كان يدعو الى هذا السوق علماءَ العرب وفلاسفتهم ، ويفتح لهم باب العمل على نشر الثقافة العربية واليونانية . وفي شدة شغف هذا الامبراطور بالثقافة ، أسس مدرستين ، احداهما في « نابولي » للعلوم ، والثانية في « سالِرنو » لعلم الطب . فكان بعمله هذا باعثاً للنهضة الفكرية والعلمية في اوروبا .

ثم انبثق من هاتين المدرستين جامعة في مدينة باريس ، خصصت في البدء للعلوم اللاهوتية ، ثم ما لبثت أن تدرجت الى تدريس العلوم الاخرى . فكانت جامعة باريس قبلة طلاب العلم في فرنسا وانكلترا والمانيا وهولندا وسائر البلدان الاوروبية .

وعلى أثر وقوع خلاف بين الطلاب الانكليز والفرنسيين – وهاتان الامتان فطرتا على الخلاف منذ كانتا ، على الرغم من دجل المعاهدات الودية بينهما – انسحب الاولون من الجامعة ، وانشأوا في بلادهم جامعة اوكسفورد ، وهي الجامعة الشهيرة التي لا تزال الى يومنا هذا .

وفي القرن الثالث عشر قام الفيلسوف الانكليزي « روجر باكون » يدعو الى البحث الفكري الجدلي ، مبيناً أن للظاهرات الطبيعية اسباباً يجب التفتيش عنها ، ومنكراً العقيدة القائلة أن الاشياء وجدت كما هي قائمة ، فأحدث باكون رجّة فكريّة ، كانت سبباً لاتهامه بالسحر والزندقة . واضطهدته السلطات الدينية ، المالكة سعيداً في ذلك العهد . فاضطر باكون الى نشر آرائه بطرق سريّة .

وفي هذا القرن ايضاً عاش « دانتي » حياة المتألم من الحالة السياسية والاجتماعية والدينية الفاسدة . واذ أخذ يجاهر بافكاره قامت عليه قيامة السلطات ، واضطهدته وشردتـــه ، فظل عائشاً شريداً الى آخر حياته . غير أن دانتي ترك آثاراً خالدةً أبد الدهر . وقد دفعه بؤسه وتشرده وثورته على الظلم الي ابتكار ملحمة خيالية (الكوميديا الآلهية) وصف فيها عالماً مجهولاً ، حمله اليه « فرجيل » الشاعر والفيلسوف الروماني ، حيث شاهد جموعاً من الناس كانوا اشراراً على الأرض ، فما إن ماتوا حتى ذهب بعضهم الى جهنم ، وهنـــاك قابلوا « لوسيفر » ، الشرير الاكبر ، محاطاً بزمرة الخاطئين والمحتالين والكذبة . وكان أكثر هؤلاء من الملوك والاباطرة والامراء والكهان والبابوات . كما شاهد آخرين ، ممن كانوا أقل شراً وفساداً في حياتهم على الارض ، ينتظرون في بهو كبير ، يصلون ويتقشفون ، كي يكفروا عن خطاياهم الدنيوية ، قبل أن يدعوا الى الدينونة . وقد عرف دانتي من دليله فرجيل أن هـــذا البهو هو ما يسمونه المطهر . ثم ظل « فرجيل » يصعد بدانتي الى أن اوصله الى القمـــــة ، الى الفردوس الآلهي . وهناك تلاقى مـــع « بياتريس » المجسد فيها الطهر والتي قادتـــه الى ملكوت الله . وقد جسد دانتي الطهر والسمو في شخص « بياتريس » المرأة التي أحبها في حياته ، وكان يرى فيها أجمل ما تتصف به أخـلاق النساء ، فأوحت له أجمل اشعاره وهي حية وأروع مراثيه عندما ماتت .

لقد كانت ملحمة دانتي الآلهية من أروع الملاحم في التاريخ ان لم تكن أروعها على الاطلاق ؛ اذ هي جمعت بين الخيال الصافي . والالهام الموحي ، وهدفت ، او هدف ناظمها ، الى رفع الانسان من البؤر الفاسدة التي يعيش فيها الى المثل العليا التي يجب أن يتطلع اليها ويعمل من أجل بلوغها .

ولقد ظن « دانتي » المسكين أن حيلته الادبية هذه خليقة بأن تجنبه

سخط السلطات . ولكن هذه السلطات العاتية التي لا تنطلي عليها الحيل ، أمعنت في اضطهاده فمات شريداً بائساً ومحروماً .

* * *

وكما شهد القرن الثالث عشر بدء انطلاق فكري ، شهد كذلك بدء انطلاق سياسي ، وبدء انطلاق في تجشم المغامرات . خرج الانطلاق السياسي من انكلترا . وخرج الانطلاق في تجشم المغامرات من فينيسيا .

في انكلترا كان النظام الاقطاعي قد اصيب بهزة أخذت تزعزع أركانه . فقد ثار الشعب الانكليزي على نظام الحكم الاقطاعي الاستبدادي، وارغم الملك يوحنا في عام ١٢١٥ على توقيع الوثيقة العظمى Magna Carta التي يعترف بها الملك ببعض الحقوق للشعب . وقد كان من نتائج هذه الوثيقة ، أن الملك هنري الثالث عند توليه العرش ، وجد نفسه بحاجة ماسّة الى الاموال ، مما اضطره الى استدانة الاموال من المتمولين، والقبول بايجاد مجلس يشرف على الخزينة الملكية . فكان هذا المجلس فاتحة عهد المجالس الشورية والنيابية . وما يزال الانكليز يفاخرون حتى الآن بميثاق ١٢١٥ ، ويعدونه اعظم حدث في تاريخهم ، ولا شك في ان الوثيقة العظمى ، قد دقت الاسفين الاول في جهاز النظام الاقطاعي فقلبته الى نظام رأسمالي بورجوازي . وسنجيء على بحث هذا الانقلاب في فصلٍ لاحق .

* * *

اما الانطلاق الآخر الذي شهده القرن الثالث عشر ، وهو الانطلاق في تجشم المغامرات ، فقد كان بطله الرحالة الفينيسي « ماركوبولو » . لقد خطر لماركوبولو ان يغامر في رحلة حول الارض بغية الوصول الى مملكة الصين والشرق الاقصى . كان المعتقد في ذلك العصر ان تلك الاقطار من الدنيا القاصية تفيض بالخيرات . وكانت اوروبا تطمع في الحصول على هذه الخيرات . ولكن دون ذلك صعاب ليس من يغامر

في تجشّمها . ان المغامرات تقضي بوجـود مغامرين ، فتصدّى لهـا « ماركوبولو » غير عابىء بمخاطرها .

وانطلق ماركوبولو من فينيسيا يجوب الارض . ودامت رحلته عشرين عاماً ، جاب فيها الصين ومنغوليا واكثر البقاعات القصية . كان يلاقى بالترحاب احياناً ويعيّن من قبل الامراء والخانات المحليين اميراً وحاكماً . وكان يعتقل احيانـاً اخرى ويلاقي من العذاب اشكالاً وألوانـاً . ولكنه في آخر الامر عاد الى بلاده ، وكتب عن مفاتن الممالك التي زارها ، ووصف اهلها ومحاصيلها وخيراتها . فشوّق الكثيرين اليها ، كما سخر الكثيرون منه . غير ان مغامرة ماركوبولو كانت دافعاً لمغامرات الرحالة الذين أتوا من بعده . على ان كتابات ماركوبولو واكتشافاته ، على الرغم من كونها انطلاقـاً علمياً وفكرياً – وهو ما لم تكن تستسيغه السلطات الحاكمة – لم تلاق من المقاومـة والتسفيه ما كانت تلاقيه انطلاقـات باكون ودانتي وغيرها . ولعل سبب ذلك ان كتابات ماركوبولو كانت ذات فائدة تجارية وكسبيّة للسلطات ، قد تفتح لها باباً جديداً لجـني الارباح وجمع الاموال ، مما يزيد في غناهـا ويقوي جبروتها ، على عكس انطلاقات الفكر الحاملة معها خطراً اكيداً على سلطانها .

* * *

إن النسمة التقدمية التي هبت في غضون القرن الثـالث عشر اقلقت السلطات الرجعية ، الروحية والزمنية ، فجردت هـذه السلطات جميـع اسلحتها لاخمادها . وقد اصابت قدراً كبيراً من النجاح . واخمد التيّـار التقدمي الى حدٍ ما . ولم يستيقظ مرة ثانية الا قبل عشية القرن الخـامس عشر وفجر القرن السادس عشر ، ممهداً الطريق للنهضة الحقيقية الدائمة التي اسدلت الستار على ظلمة القرون الوسطى ، وكان للتفاعل بين الشرق المتقدم والغرب المتأخر اليـد الطولى في هذه النهضة ، كـما ذكرنا في

فصل سابق .

* * *

كانت الاسفار من مميزات هذا القرن . كانت مغامرة ماركوبولو في رحلته الى الشرق الاقصى في القرن الثالث عشر ، دافعاً لمغامرات اخرى قام بها مغامرون آخرون ، وقطعوا البحار الواسعة على مراكب شراعية بغية اكتشاف أرض جديدة واستثمار ما يمكن من خيراتها . لقد أفاقت اوروبا على نفسها ، فوجدت انها بحاجة الى ثروات اكثر مما هو موجود فيها . وكانت نهضتها دافعاً للاوروبيين ، كي يحصلوا على ما يمكنهم مادياً من تغذية نهضتهم . وغرّهم ما قرأوه في كتابات ماركوبولو عما في الشرق الاقصى من ثروات ومكاسب ، فوضعوا أعينهم عليهـا ، وطمعوا في استثمارهـا والتسلط عليها ، فعمدوا الى فتح البحار ومـا وراء البحار .

* * *

كان الفينيقيون أول من اخترع الشراع وقطع البحار . ولكن أسفار الفينيقيين بقيت محصورة في نطاق ضيق لم يتعدّ الشواطىء من فينيقية الى افريقيا ، واليونان ، واسبانيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، (يقول بعض المؤرخين ان الفينيقيين وصلوا الى شواطىء البرازيل). أما مغامرو القرن الخامس عشر فقد ذهبوا الى ابعد من ذلك بكثير ، إذ قطعوا البحار والاوقيانوسات الواسعة البعيدة . كان ذلك نتيجة لتوطيد الفكرة القائلة بأن الأرض مستديرة لا مسطحة ، الامر الذي لم يكن يعرفه الفينيقيون . وعلى الرغم من أن نظرية تسطح الارض واستـدارتها هي في الاصل نظرية العالم الجغرافي بطليموس الذي عاش في القرن الثاني للمسيح ، فقد انتسخت هذه النظرية وقضي عليها عـلى يد رجعية القرون الوسطى ، وبقيت نائمة ثلاثة عشر قرناً ، إلى أن أيقظها العالم البولوني «كوبرنيكوس» في أوائل القرن الخامس عشر ، دون ان يجسر على إعلانها قبل عـام

١٤٥٣ . فاعتمدها مغامرو الاسفار أساساً لمغامراتهم ورحلاتهم الخطرة .

***

ان أشهر رحالة في التاريـــخ هو « كرستوفوروس كولومبوس » الجنوي الذي اكتشف القارة الاميركية ، أو الذي نسب اليه – برأي نفر من المؤرخين – اكتشاف هذه القارة . قلت أشهرهم وليس اجرأهم حفاظاً على حق المغامر الأول ماركوبولو بهذه الصفة .

كان كرستوفوروس كولومبوس مقتنعاً بامكان الوصول الى الشرق الاقصى عن طريق الغرب . فأبدى رأيه الى السلطات طالباً مساعـــدتها كي يستطيع القيام بمغامرته ، وتضع تحت تصرفه الوسائل المـــادية من مراكب ومساعدات مالية . ولكن السلطات اعتبرته مجنوناً فلم تأبه برأيه . غير انه بقي مصراً بعناد وثقة ، فتوسل الى اقناع ملك اسبانيا فردينان وزوجته ايزابلا ، بوجهة نظره وبما تجنيه أسبانيا من فائدة من رحلته . وعقد مع الملك اتفاقية تقضي بأن تكون الأراضي الـــتي يكتشفها ملكاً لاسبانيا . ثم قدم له الملك ثلاثة مراكب شراعية وأرفقه بأربعين رجلاً من المجرمين المحكوم عليهم بالاعـــدام او بالسجن المؤبد . فسافر في الثالث من شهر اوغسطوس عام ١٤٩٢ بحراسة الاوقيانوس الهائج وثقته بنفسه وعدم اكتراثه بمصيره . فكان كلما حط بيابسة يبشر مليكه بأن العلم الاسباني أصبح يرفرف على ممتلكات جديدة . وعندما نزل عـــلى شواطىء اميركا ، لم يخطر بباله انه على ارض قارة مستقلة ، اذ حسب شواطئها محطة من المحطات بين اوروبا والشرق الاقصى . ومات عام ١٥٠٦ دون ان يعـــلم انه اكتشف قارة تتوسط بـــين اوروبا والشرق الاقصى . ومع هذا فالعـــالم يعتبر كولومبوس مكتشف اميركا ، لأن بعثته كانت اول بعثة نزلت في هذه القارة .

وقد أثار نجاح اسبانيا واستيلاؤها على ممتلكات جديدة حفيظة جارتها مملكة البورتغال . فقام منها الرحالة « فاسكو ده غاما » في عام ١٤٩٨

وعام ١٥٠٢ برحلتين ، عاد منها حاملاً الخيرات . وكان يرفع علم بلاده على المقاطعات التي يكتشفها وينزل فيها .

وواصلت الدولتان اللاتينيتان التنافس والتسابق في الاسفار . وكانت أسبانيا متفوقة . فأرسلت بعثة جديدة عام ١٥١٩ مؤلفة من خمسة مراكب يقودها بحارٌ بورتغالي منفي في اسبانيا (فرديناند ماجلان) وتوجهت هذه البعثة صوب الغرب ، وقطعت المحيط الاطلنطي الى البرازيل ، ونزلت جنوباً ، ووجدت محيطاً أقل هياجاً من المحيط الأطلنطي ، واطلقت عليه اسم المحيط الباسيفيكي او المحيط الهادي تدليلاً على هدوء أمواجه . وعلى الرغم مما واجهته هذه البعثة من المصاعب والاخطار ، ظلت توالي سفرها ، واكتشفت ارخبيلاً كبيراً ، أطلق عليه ماجلان اسم الفيليبين تيمناً باسم فيليب ولي عهد سيده الملك شارل الخامس . غير ان ماجلان لقي حتفه مع عددٍ من رفاقه اذ صرعهم سكان تلك البلاد المتوحشة ، عندما سلطوا عليهم الثيران ، لأن افراد البعثة حاولوا ان يرغموا السكان الاصليين على اعتناق الديانة المسيحية بالقوة . ولم يسلم منهم إلا نفر قليل تمكن من الهرب الى بلاده .

كانت بعثة ماجلان من أعظم البعثات واكبرها . فقد دامت رحلتها ثلاث سنوات وكلفت الاموال الطائلة ، واليها يرجع الفضل في توطيد نظرية استدارة الارض . وكان لها فضلٌ آخر ، وهو إعطاؤها الدليل على ان الارض التي وطئها كولومبوس هي قارة مستقلة .

وأخذ النزاع يشتد بين اسبانيا والبورتغال على ملكية الاراضي المكتشفة. فتدخل البابا وحسم النزاع بين المملكتين المؤتمرتين بأمره، وقسم الاراضي بينهما ، على ان تكون كلها خاضعة لسلطته الروحية . على انه لم يأتِ القرن السابع عشر حتى استقوى الاستعمار البريطاني والهولندي على الاستعمار الاسباني والبورتغالي ، وأخذ الاستعمار الغالب يقتطع بلاداً بعد

بلاد ويضمها اليه .

كانت مغامرات اولئك الرحّالين مفتاح استعمار الغرب للشرق . وانبرى تجار الغرب الى استثمار خيرات الشرق ، وتعرّف الشرق الى مدنية الغرب ، وكان معظم الفضل في هذا التعارف عائداً الى رجل الماني اسمه « غوتنبرغ » الذي أخذ عن الصينيين اكتشافهم للطباعة . فحسنها واستبدل الاحرف الخشبية بأحرف سبكها من الحديد ، كي لا تهترىء، فكان اكتشاف غوتنبرغ الوسيلة المثلى لنشر الفكر الغربي ، والعلم الغربي ، والمذاهب الغربية ، والدعاوات الغربية ايضاً ، في الشرق ، مما دعا له أعظم الاثر في التفاعل بين الغرب والشرق . وسنرى في الفصول القادمة ، كيف أفاد الغرب من هذا التفاعل ، وكيف جعله وسيلة لاستعمار الشرق واستثمار خيراته التي لا تعرف النضوب .

١٣ . عصر الغليان الديني
وثورة لوثيروس

●

تبيّن لنا من الفصلين السابقين ان بوادر النهضة الفكرية قد ظهرت في غضون القرن الثالث عشر ، ثم اخمدت الى حدّ بعيد في القرن الرابع عشر ، ثم استيقظت مرة ثانية في القرن الخامس عشر . غير ان أبرز مظاهر النهضة انما بدت في القرن السادس عشر . وليس خطأ إذا قيل ان أبرز شخصية عرفها هذا القرن هي شخصية « لوثيروس » الذي قام بثورة إصلاحية طبعت ذلك العصر بطابعها فسمّي عصر الاصلاح .

* * *

كان لوثيروس راهباً كاثوليكياً دومينيكياً ، وكان مثقفاً الى حد بعيد . وكان خطيباً مفوهاً ساحراً . وكان هاوياً للموسيقى ، فكرّس حياته لها بعد ان استقرّت نوعاً ما ثورته الدينية . وقد عاب عليه البعض عدم استقراره على امرٍ ما ، واتهمه البعض الآخر بالرجعية لأنه كان يقول بسيادة الدولة . وكان يتبادل الكره مع اليهود مما جعل الكتّاب والمؤرخين اليهود ومنهم — ولربما اكثرهم اتهاماً له — الكاتب اميل لودويغ ، الذي قلما قسا على أحد من رجال التاريخ كما قسا في كتاباته على لوثيروس . ولكن مهما قيل بلوثيروس ، ومهما وُجّه اليه

من اتّهامات ، فالشيء الذي لا يستطاع انكاره عليه ، مناقبيته وايمانه بعقيدته الاصلاحية واخلاصه لها ، وهي المناقبية التي قال فيها غوته : « ان شيئاً واحـداً يعطي عهد الاصلاح مظهراً فريـداً وهو مناقبية لوثيروس ، وكل الاشياء غيرها قد تكون قابلة للجدل » .

عكف لوثيروس، وهو في دير الرهبان الدومينيكيين على دراسة التعاليم المسيحية ، فهاله ما ألحقه بها رجال الكنيسة من تشويه ، وثارت نفسه على الطريقة التي تطبق بها تعاليم المسيح من قبـل من يُسمّوْن خدام المسيح ، وبدأت تجول في خاطره فكرة تشهيرهم ، وتعريـف الشعب الذي يخدرونه بمواعظهم عن اكتشاف ريائهم ونفاقهم ولصوصيتهم . وما عتم حتى انقلب لوثيروس من راهب دومينيكي وديع ومطواع لرؤسائه ، الى ثائرٍ عليهم .

كانت الكنيسة في ذلك الحين تتخبط في متاعب مالية . فالضرائب والجعالات التي كانت تجبيها من الملوك والامراء والاقطاعيين بدأت تنقص يوماً عن يوم ، بسبب تمرد البعض من هؤلاء عن تأديتها لها . وأفلت من يدها توزيع الاملاك على الارض لقاء ما تستوفيه من أموال لتغذية خزينتها . وإذ أجدبت أمامها سوق الارض فتحت سوقاً في السماء ، فمن يدفع كثيراً تبيعه مساحة ما من الجنّة ، ومن يدفع اقلّ ، يسهل عليه عبور المطهر بمدة أقصر ممن لا يدفع الا القليل . ومن يـدفع لا كثيراً ولا قليلاً تحرمه الجنة وتقفل عليه باب المطهر ايضاً . وهكذا اصبحت القيم الروحية تقدر بالأثمان والهبات الـتي يدفعها الناس للكنيسة . السماء مفتوحة للاغنياء . والمتوسطون امامهم المطهر . والفقراء لهم نار جهنم .

لم يكن لوثيروس اول من ثار على اعمال رجال الكنيسة . فقد سبقه « ايرازموس » و « ويكليف » و « هس » من قبلـه ، فاخفقوا واضطُهدوا على يد محكمة التفتيش . كان نصيب « هس » ان أحرق وهو حيّ . وكان نصيب « ويكليف » ان نبشت جثته من القبر بعد

موته وأحرقت . وكان نصيب ايرازموس الذي ساعده الحظ واختفى من الحكم الرهيب ، ان أحرقت نشراته انتقاماً منه . ومما ساعد محكمة التفتيش على تنكيلها بهؤلاء الثلاثة كون الشعب في زمنهم كان تحت تأثير المخدرات التي كانت تحقنه بها الكنيسة . كانت ثورة ايرازموس وويكليف وهس قبل أوانها ، ففشلت كما تفشل كل ثورة تضرم قبل الأوان المعدّ لها .

اما لوثيروس فقد نجح في ما اخفق فيه اسلافه الثلاثة .

اولاً : لأن الشعب كان قد طفح كيله من مباذل رجال الكنيسة ومن نفاقهم عليه ، ومن مواعظهم المبطنة لأعمالهم القذرة، مهيئاً الطريق لقائدٍ ما يدلهم على طريق الحق: ويقودهم في طريق الحق . كان لوثيروس هو ذلك القائد .

ثانياً : لأن لوثيروس كان عالماً وخطيباً ، ولأنه كان مؤمناً ومخلصاً، ولأنه كان قد اكتسب ثقة الشعب .

ثالثاً : لأن الكنيسة كانت قد وصلت الى حالة من الضعف يسهل معها الهجوم عليها . رجالها يتمرغون بالفساد ، وماليتها ضعيفة،وسلطانها الزمني آخذٌ بالتضعضع ، وفي طريقه الى الانهيار .

كانت الخطوة الاولى في ثورة لوثيروس الاصلاحية ، اقدامه على تعليق بيانه الثوري « مانيفستو » على باب المحكمة الكنسية في ٣١ اكتوبر ١٥١٧ . وقد احتوى هذا البيان خمساً وتسعين مادة ، اوضح فيها لوثيروس التعاليم المسيحية الحقيقية ، وهاجم في البيان اعمال رجال الكنيسة ، واظهر الضلال الذي يضللون به الشعب ، وفضح مؤامراتهم عليه ، وصوّرهم لصوصاً فيما يشرعونه له ، مثل بيعهم الروح وأراضي الجنة ، الى ان ينهيه أخيراً بدعوة الشعب الى الانقضاض على الكَذَبة واللصوص ، والثورة عليهم ، والعودة الى تعاليم المسيح الصادقة ، الصافية ، النقية ، الطاهرة .

كان طبيعياً ان يكون مانيفستو لوثيروس موضوعاً للجدل ، والاخذ والردّ من الذين اطلعوا عليه . وكان طبيعياً ان تغضب السلطات الروحية ورجالها على صاحبه ، وعلى كل من أخذ به او اقتنع بما جاء فيه . وكان طبيعياً ان تحصل ردّة رجعية مستقتلة لتصوّره كفراً بالله والدين، وتجعل من صاحبه زنديقاً وكافراً ، مستحقاً عقاب الموت ونار جهنم .

وإذ رأت الكنيسة ما فعله بيان لوثيروس في جماعات الناس، وكانت هذه قد تلقفته بالمزيد من الاهتمام وجعلت الجموع توزعه فيما بينها ، عمدت في بادىء الامر ، الى اتخاذ اجراءات قانونية بحق لوثيروس . كان القانون من اشتراع الكنيسة ، وكانت قانونية القانون من تفسير رجال الكنيسة ، وكانت عدالة القانون بيد قضاة الكنيسة .

وكان الاجراء الاول ، ان دعت المحكمة الكنسية الراهب لوثيروس الى روما ، كي تستجوبه عن عمل عدته المحكمة تحدّياً للسلطة الروحية العليا ، فعصا لوثيروس أمر روما ، ولم يذهب الى المحكمة ، حيث كان ينتظره الحكم بالاعدام ، وهرب الى المانيا ، حيث لم يكن للبابا السلطان الكبير المطلق . واستقرّ في المانيا ، تحت حماية كبير ناخبي سكسونيا . وأخفق الامبراطور شارل الخامس ، عميل البابا ، في محاولته تسليم لوثيروس ، والقضاء عليه وعلى تعاليمه . والتفّ حوله في المانيا طلاب الجامعات واساتذتها ، واكتفت روما عندئذ بانزال الحرم المقدس به . وأصبح لوثيروس قائد الجبهة المعارضة للكنيسة ، وسمّي اتباعه البروتستانت من (Protest) ، وكانت نشأة الطائفة المسيحية البروتستانتية التي ما لبثت حتى اخذت في اكتساح الديانة المسيحية في المانيا بالدرجة الأولى ، ثم في اجزاء كثيرة من اوروبا في الدرجة الثانية .

وفي المانيا اعتكف لوثيروس في قلعة من قلاع مقاطعة سكسونيا ، وترجم الكتاب المقدس من اللغة اللاتينية الى اللغات الحيّة (وكان ذلك ممنوعاً من الكنيسة) . فتلقفت كتبه الناس ، وانضم الى جبهته كل

الناقمين على اعمال السلطة الكنسية البابوية ، فضلاً عن الذين انضموا اليه اقتناعاً بطوبية تعاليمه وعقلانيتها .

كان جهاد لوثيروس الديني قد ارهقه وانهك جسمه ، فأخلد في آخر حياته الى شيء من الراحة ، وانتقل هيامه في الكفاح الى هيام في الموسيقى . ولكن الغليان الديني لم يهدأ حتى بعد وفاته عام ١٥٤٩ . كان هذا الغليان المرحلة الحاسمة في تقويض السيادة البابوية .

لم يكن لوثيروس بطاشاً في ثورته على الكنيسة ، بل اعتمد في نشر رسالته على عاملي التثقيف والتنوير الفكري . لقد اضرمها ثورة فكرية ، روحيّة ، بيضاء ، اذ انه كان يعزف عن سفك دماء الشعب ، ولأنه كان يحترم سيادة الدولة الزمنية مهما كانت الدولة . كان لوثيروس يقود ثورته بالانجيل وليس بالسيف ، اذ ان استعمال السيف — في عرفه — هو من صلاحية الدولة وحدها .

* * *

ولكن البروتستانتية لم تعدم زعماء بطاشين ، اخذوا عن زعيمهم الاول تعاليمه ، غير انهم لم يتقيدوا بتكتيكه . ففي فرنسا مثلاً تزعم البروتستانتية « كالفن » . كان كالفن زعيماً روحياً وسياسياً في آن واحد ، فقابل قسوة الكاثوليك بقسوة مثلها ، وأعدم الخارجين عن طاعته وعقيدته . فكانت الواقعة بين الكاثوليك والبروتستانت . وقضت اوروبا زمناً في صراع دامٍ بين هؤلاء وأولئك ، كل منهم يتهم الآخر بالهرطقة والكفر ، ويستبيح دماءه قرباناً لله . وفي ابان ذلك الصراع الدامي ، حصلت المأساة التاريخيّة في ليلة « مار بارثلماوس » عام ١٥٧٢ ، التي ذُبح فيها البروتستانت الفرنسيون ، بتحريض من الملك فيليب ، بنعمة الله وبركة الكرسي الرسولي .

واذ كانت الكاثوليكية أقوى من البروتستانتية في فرنسا ؛ وإذ رأت المقاطعات البروتستانتية الشمالية السبع انها لن تتمكن من الوقوف امام

الجبهة الكاثوليكية ، لجأت الى عقد محالفة فيما بينها لكي تقف موحدة في المعركة ضدّ الجبهة الكاثوليكية الموحدة ، وانتخبت الامير الالماني « وليم اورانج » رئيساً عليها كلها . فجرد الامير جيشاً بحرياً من البلاد التي تدعى البلاد الواطئة ، اي هولندا ، وحفر مساحات واسعة من الاراضي غمرتها المياه ، وسيّر فيها السفن ، واستطاع بذلك الدفاع عن بلاده ضدّ عدوّه الكاثوليكي ملك اسبانيا بنعمة الله . فكان لانتصار وليم اورانج البروتستانتي على الملك فيليب الكاثوليكي اثر بالغ الأهمية في النزاع بين الطائفتين ، اذ وضع حداً لاعمال الوكالة الروحية على الارض. وعلى الرغم من مقتل وليم بيد احد اتباع فيليب ؛ بقي الحقد يتأجّج في نفوس بروتستانت الشمال على الكاثوليك . وكان هذا الحقد يزداد يوماً عن يوم ، وتجلّت القطيعة بين شقّي المسيحية باجلى مظاهرها .

***

ظل الخلاف يزداد سعيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وتعدّى الى نواحي الحياة ، من اجتماعية وثقافية وسياسية ونظمية ، بالنظر لما بين العقيدتين الدينيتين من تباين نظري وفلسفي . فالكاثوليكية هي اكثر من دين ومذهب . انها نظام كلّي ، تفرضه سلطة عليا تتمتع بالعصمة عن الخطأ . ومع ان عصمة الكرسي الرسولي تقتصر – نظرياً – على المسائل الروحية ، فهي سلاح بيد روما ، طالما استعانت به في الأمور الزمنيّة ، بمجرد تفسير او اجتهاد ، يعطيه الأب الأقدس او مجامع الكنيسة اللاهوتية .

ان الاديان كلها مؤسسة على الميتافيزية . هذا صحيح .. فالايمان يقوم على ما لا يُرى ، والايمان في كل الاديان يجب ان يكون مطلقاً، ولكن الكاثوليكية لا تقبل بان يقتصر الايمان بمن لا يُرى ، وهو الله ، بل هي تفرض الايمان بمن يُرى ايضاً وهو البابا ، « ممثل الله على الارض » المطاع طاعة مطلقة من جميع ابنائه . هذه المعصوميّة ؛

التي يتبعها حتماً الطاعة لانسان معصوم عن الاخطاء ، والتي طالما اتخذ منها وسيلة لفرض تعاليم وقوانين وطقوس وموجبات ، لا يقرها العقل ولا العرف ، وتحول دون التقدم والتطور الانساني ، هذه المعصوميّة هي التي تجعل أصحاب الفكر الحر – حتّى المتدينين منهم – يخاصمون الكاثوليكية .

اما العقيدة اللوثيرية ، التي انبثق منها المذهب البروتستانتي ، فان فاضليتها على العقيدة الكاثوليكية ، انها تتفاعل مع العقل ، وتجيز البحث في شؤون تحرّم البحث فيها كنيسة روما ، اذ فيما عدا الايمان بالوجود الإلهي ، ليس في البروتستانتية اطلاق ولا معصوميّة . هذا ما جعلها أقرب الى الحضارة الانسانية ، وهذا ما جعل العالم البروتستانتي يسبق العالم الكاثوليكي في المجالات الحضارية والعلمية والانفتاحية . وهذا هو الواقع بالفعل .

ليس من قبيل التعصب اذن ان تُتهم كنيسة روما بالرجعيّة ، كما كان يتهمها اخصامها اللوثيريون ، إبان انتفاضتهم عليها . هذا مع الاعتراف بان اللوثيريين لم يكن ينقصهم التعصب . ولكن مهما كان من أمر تعصبّهم ، فالكنيسة البابوية هي التي كانت تغذيه بتعاليمها غير المنسجمة مع روح المسيحية ومبادئها ومثالياتها ، وبفرضياتها على الشعوب والحكومات التابعة لها ، وبأحكامها القاسية الظالمة على كل من يحيد عن اوامرها ، ولا يسجن عقله وفكره في سجونها .

ان غاليليو ، العالم الايطالي الذي كان من اوائل مكتشفي الجاذبية ، وأول من صنع المنظار الفلكي ، والذي اثبت بصورة عملية نظرية كوبرنيكوس في دوران الارض حول الشمس ، ان غاليليو هذا الذي لم يعش في القرون الوسطى ، بل عاش في القرن السابع عشر ، لم يسلم من حكم محكمة التفتيش الكنسية عليه عندما جاهر بنظريته العلمية . وليس أدلّ على رجعية الكنيسة وقتئذٍ ، ووقوفها موقف العداء ضدّ

التقدم العلمي والحضاري من هذا الحكم الذي اصدرته عليه محكمة التفتيش . وهذا هو الحكم بنصه :

« بناءً على ما بلغ المجمع المقدس من انك تؤمن بصحة المذهب الخاطىء (!) والقائل بان الشمس مركز العالم .. وبناءً على أمر سيدنا بولس الخامس (البابا في ذلك الحين) واصحاب النيافة ، كرادلة المحكمة العليا .. يرى اللاهوتيون ، أصحاب الرأي والتصريف ، ان القضيتين المتعلقتين بسكون الشمس وحركة الأرض مناقضتان للعقل (!) ومغلوطتان في اللاهوت .. فالأول هرطقة صريحة .. والثانية فيها خطأ من ناحية الايمان .. فنحن نقول ، ونلفظ ، ونحكم ، ونعلن ، انك انت غاليليو المذكور ، اصبحت في نظر المجمع المقدّس ، محل شبهة قوية بالهرطقة ، باعتقادك وتمسكك بنظرية خاطئة ومناقضة للكتب الإلهية المقدسة . ونحن نأمر بمنع كتاب « محاولات غاليليو » بموجب مرسوم علني ، ونحكم عليك بالسجن بالمدة التي نرى تحديدها » .

ان مذهباً يجيز إصدار مثل هذا الحكم ، ويفرض خضوع العقل البشري للاهوتيّة غيبيّة ، يشترعها اللاهوتيون الغيبيون بالذات ، ويقيّد العقل البشري بسلاسل الايمان الذي لا يجادل ؛ ان هذا المذهب ، وكل مذهب آخر يضع السدود بوجه الانطلاق العقلي والفكري ، ليس غريباً ان يرى فيه المفكرون والمنوّرون مذهباً رجعياً ، لا يفيد الحضارة الانسانية بشيء بل على العكس يؤخرها الى الوراء .

* * *

على انه لم يكن سهلاً ان تفوز قوى التقدم على قوى الرجعية . ولم تستطع تقدميّة القرن السابع عشر (بالنسبة للقرون التي سبقته) كبح رجعيّة السلطة الكنسيّة . وما استطاعت ثورة اللوثريين ان تقضي على الشعوذة باسم الدين . ولم يسلم الهجوم البروتستانتي من هجوم معاكس ضدّه ، وأقوى منه . كان بطل هذا الهجوم جبّار من جبابرة الكنيسة

الكاثوليكية . كان هذا الجبّار « اغناطيوس لويولا » .

كان اغناطيوس لويولا جندياً اسبانياً ، اشتهر بشجاعته كما اشتهر بتهتكه وسوء أخلاقه – على ذمة بعض المؤرخين – ، ولكنه كان على قسط وافرٍ من العلم والثقافة ، وفضلاً عن كونه داهية زمانه . واذ تراءى له ذات ليلة ، ان الإله حضر عليه ، وأنبّه على ماضيه ، وأوحى له القيام بدور المخلّص للكنيسة المتداعية ، تاب عن خطاياه ، وعزم على التكفير عنها ، فأسس عام ١٥٣٤ جمعية دينيّة لخدمة الكنيسة واعادة مجدها .

لم يكن اغناطيوس لويولا اقل قسوة في نشاطه الديني مما كان في نشاطه العسكري ، فوضع لجمعيته نظاماً عسكرياً قاسياً . وأخذت الجمعية على نفسها مهمّة التثقيف الديني بصرامة العسكريّين التي لا تهاود . ونمت الجمعية نمواً عظيماً . وانضمت اليها الحشود من كل المقاطعات الكاثوليكية ، وأصبح لها شأن وأي شأن في الحركة الدينية . وأجلّها البابا بولس الثالث ، ثم عمّدها بأسم « جمعية يسوع » . فكانت العماد الاكبر والاقوى للكنيسة الرومانيّة .

كان نفوذ الجمعية اليسوعية يتزايد يوماً بعد يوم . وجعلت تتدخل في كل امر من امور الدين والدنيا . كانت لا يلين لها عود ، ولا تأبه بأيما سلطة . كانت المؤامرات على الملوك والامراء تحاك فيها . وكانت تثير الاحقاد والضغائن ضد السلطات التي تخرج عن تعاليمها وأوامرها . كانت تسقط ملكاً او اميراً وتقيم ملكاً او اميراً محله . كانت البعبع الذي يقض مضاجع الساطات .

وبقيت كذلك اكثر من مائتي عام . وضج منها الملوك والامراء الكاثوليك واتهموها باثارة حرب الثلاثين سنة ، وأجبروا البابا على الغائها . كان ذلك عام ١٧٧٣ .

غير ان هذا الالغاء لم يثنها عن جبروتها ، بل زادها تحمساً له .

ودخلت منذ ذلك التاريخ في عهد السرية . وكان نشاطها في الخفاء اكثر فعالية من نشاطها في الجهر . وما تزال حتى عصرنا هذا تتمتع بقوة يحسب لها حساب . على ان عهد سرّية الجمعية لم يعد قائماً منذ الثلث الاول من القرن التاسع عشر ، ذلك لأن البابا بيوس السابع أعاد لها امتيازاتها ، نظراً للخدمات التي قامت بها لنشر الكاثوليكية ، ومقاومة المسيحيين الخارجين عنها ، ولا سيما البروتستانت منهم .

* * *

قد يكون لعمل محض شخصي ، أحياناً ، تأثير في مجرى التاريخ . هذا ما حصل في الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية .

كان قد اعتلى عرش بريطانيا الملك هنري الثامن ، الكاثوليكي المذهب . وكان هذا الملك شهوانياً ومزواجاً . واذ رفض البابا ان يسمح له بالطلاق ، غلبت شهوانيته على اخلاصه للبابا ، فاعتنق البروتستانتية: فطلّق وتزوج .. ثم طلّق وتزوج .. ثم ترمّل وتزوّج .. ثم قتل امرأته وتزوج .. وبلغ عدد زوجاته الثماني ..

وبلغ حقده على الكنيسة البابوية حداً جعله يسعى الى القضاء على المذهب الكاثوليكي في بلاده . وشجّع على نشر المذهب البروتستانتي وأقام نفسه رئيساً عليه ، وصادر الممتلكات البابوية في انكلترا ، واغنى خزينته منها . وحذا حذوه الكثيرون من رعاياه ، لا سيما التجار واصحاب الاملاك والثروات ، الذين كانوا ينقمون على الكنيسة البابوية لسببين : اولهما ، الجعالات الضخمة التي كانت تفرضها عليهم الكنيسة ، وثانيهما ، كره الانكليز للممثلين الايطاليين الذين كان يعتمدهم البابا ، لعدم ثقته باخلاص رجال الكنيسة الانكليز . وهكذا استمرّ الصراع الحادّ بين المذهبين زمناً طويلاً . على ان الغلبة الاخيرة كانت للكنيسة الجديدة – اي الكنيسة البروتستانتية – المتمردة . وأصبحت انكلترا بعد ذلك ، القوة المركزية للبروتستانت ، مما كان له اعظم الاثر في تفاقم

الخلاف التقليدي بين الشعوب الانكلوسكسونية والشعوب اللاتينية.

* * *

مما لا شك فيه ان الثورة اللوثيرية ، كانت دعامة كبرى للنهضة الفكرية في القرن السادس عشر وبعد . ومما لا شك فيه ايضاً ، انها كانت ذات تأثير محسوس في تطور الحضارة الاوروبية . وعلى الرغم من ان عامل التعصب الديني والمذهبي ، لم يكن عند البروتستانت اقل منه عند الكاثوليك . على الرغم من كل ذلك ، فان للثورة اللوثيرية فضل القضاء على عصمة فلسفة الوحي والالهام والتنزيل ، وعصمة الذين قالوا : « انما نحن وكلاء الله على الارض » ، واخضعوا العقل البشري لوحيهم واستيحائهم ، وغمروا تلك العصور بالجهل والذل والمسكنة . ومما لا شك فيه ايضاً وايضاً ، ان الوثبة اللوثيرية ، قد فسحت المجال لتبدل المفاهيم الاجتماعية والسياسية وهيأت السبل للتطورات التي حصلت في القرون التالية ، كما سيجيء الكلام في الفصول الآتية .

١٤ . الديمقراطية البورجوازية
تحلّ محل الاقطاعية

●

يتصل نشوء الديمقراطية البورجوازية وتاريخها اتصالاً وثيقاً بتاريخ بريطانيا ، اذ أن بريطانيا كانت أول بلاد قامت فيها حركة بورجوازية ضد الملوك ، المالكين سعيداً بإرادة الله ، ليس لشعوبهم حقوق إلا ما يتكرمون بها عليها هم ، وقلما كانوا يتكرمون .

على أن انكلترا لم تتوصل الى ما وصلت اليه في القرن السابع عشر، إلا بعد قرون سبعة من الكفاح ، فكأن الطبيعة التي اوجدتها جزيرة على سطح البحار ، ومنفصلة جغرافيا عن يابسه اوروبا ، جعلتها ايضاً تتطلع الى الاستقلال عن الممالك الاوروبية القاريّة .

* * *

قبل القرن الحادي عشر ، كانت انكلترا مستعمرة يتجاذبها الغرباء الطامعون بها . كان يحكمها الفرنسيون تارة ، وتحكمها قبائل دانمركية تارةً اخرى ، الى أنّ اكتسحها وليم دوق نورماندية عام ١٠٦٦ ، وأسس ملكاً مستقلاً عن فرنسا والبلدان الشمالية . غير ان فرنسا بقيت تطمع بها وتسعى الى إعادتها لها . وبقيت الحروب سجالاً بين الدولتين قروناً ، كان الفوز فيها لانكلترا ؛ فاحتلت شمالي فرنسا ،

وامتلكت مقاطعة نورماندیا،ولم تتخلص فرنسا من سيادة انكلترا عليها ، إلا عندما قيّض الله لها فتاة « أوحت لها روح الله » طريقـة تخليص فرنسا من الانكليز وألهبت جـان دارك « الفتاة القديسة » — حماسة مواطنيها ، فشنوا هجومهم الكاسح على الجيوش الانكليزية ، ونظفوا فرنسا من الاحتلال الانكليزي ، وتنازل الانكليز عن كـل المقاطعات الفرنسية التي كانت تمتلكها بريطانيا ، بعـد أن كانوا أحرقوا عدوتهم اللدود جان دارك . كان ذلك في منتصف القرن الخامس عشر .

ومنذ ذلك الحين عكف الانكليز على تثبيت ملكهم في الجزيرة العريقة . وتولى العرش الملك هنري السابـع من بيت « تيودور » الكاثوليكي . وبقيت انكلترا تابعة للكنيسة الكاثوليكية في عهد ملكه . ولكنها اعتنقت البروتستانتية في عهد خلفه هنري الثامن ، كما جاء في الفصل السابق .

وخلف هنري الثامن ابنه . وخلف ابنه اخته ماري . وخلفت ماري الملكة اليصابات ، ابنة هنري الثامن من زوجته « آنا بولين » الـتي قطع هنري الثامن رأسها .

كانت اليصابات أشد اعداء الكاثوليكية . وقـد دام حكمها نصف قرن . وكان عهدها أعظم عهود الامبراطورية البريطانية . وانشأت اكبر اسطول بحري . وحطم اسطولها « الأرمادا » الاسبانية عـام ١٥٨٨ ، وجاب البحار البعيدة ، ورفع العلم البريطاني على مستعمرات شاسعـة ، واحتـل الجزر في الاوقيانوسات . واتصـل لأول مرة بالامبراطورية الموسكوبية ، وانشأ علاقات تجارية . وأصبح الاسطول البريطاني منذ عهد اليصابات ، الركن الاساسي لسيادة بريطانيا وعظمتها .

* * *

كان العهد الايصاباتي ، عهد حروب ، وعهد عمل ، وعهد انشاء ، وعهد أدب وشعر . ففي ما عدا الحروب مع الخارج ، كانت اليصابات في نزاع مميت مع نسيبتها ماري ستيوارت ملكة اسكوتلندا ، المحافظة على

كاثوليكيتها . غير أن اليصابات استطاعت ان تتخلص من ماري ستيوارت أيضاً ، وذلك عندما قامت ضدّ هذه الاخـيرة ثورة في قلب مملكتها ، واضطرت الى الهرب من اسكوتلندا الى انكلترا ، طالبة من نسيبتها اليصابات أن تحميها . فاغتنمت اليصابات الفرصة للتخلّص من مزاحمتها الخطرة ، واعتقلتها في الاسر تسعة عشر عاماً . ثم استيقظ في اليصابات كيـد المرأة ، وأوجبت على المجلس الاستشاري أن يحـكم على ماري ستيوارت بالموت ، واعدمت ملكة اسكوتلندا بقطع الرأس ، واطمأنت اليصابات ، وصفا لهـا الجو لتنظيم بلادها ورفع مستواهـا السياسي والتجاري والاجتماعي .

* * *

يقضي الانصاف بالاعتراف ، أن اليصابات كانت أعظم من اعتلى عرش انكلترا . فهي لم تترك ناحية من نواحي التقـدم إلا وأولتها من اهتمامها وجهودها ما يساعد على ازدهار بلادها . لقـد فسحت المجال لرجال الأدب والفكر ، وقرّبت اليها الشعراء والكتّاب والعلماء ، وكانت تأخـذ عنهم آراءهم ودروسهم ، وتطبقها في مجالسها السياسية ، وتضع بموجبها انظمة الملك الاقتصادية وغـير الاقتصادية ، وأمدت انكلترا بالوسائل القمينة بتثبيت العهد البرلماني البورجوازي ، وأعلت شأن الأدب والادباء ، وأنشأت المسارح ، وافادت من ظهور أعظم شاعر مسرحي « شكسبير » . وأوجدت نهضة أدبية وفكرية في انكلترا قبـل أي بلد آخر . ولعله من أكـبر حظوظ الملكة اليصابات أن وجد شكسبير في عهد ملكها .

* * *

كان شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦) ممثلاً قبـل أن يكون كاتباً مسرحياً . ولعل ميله للتمثيل هو الذي دفعـه الى تأليف المسرحيات ،

فأنشأ شركة تمثيلية ، كان هو رئيسها وواضع تمثيلياتها . ولم يترك ناحية من نواحي الحياة إلا وعبّر عنها في مسرحياته . في التاريخ . وضع المسرحيات عن معظم ملوك انكلترا .. هنري الرابع .. ريكاردوس الثاني.. ريكاردوس الثالث .. هنري السادس .. الملك يوحنا .. هنري الخامس .. في المأساة ، وضـع روميو وجولييت .. يوليوس قيصر .. هملت .. عطيل .. ماكبث .. انطونيوس وكليوباطرة . في الكوميديا ، وضـع أكثر من عشرين تمثيلية ، أهمها تاجر فينيسيا .. كما تشاء .. ضجة على لا شيء .. الليلة الثانية عشرة الخ .. الخ ..

كان شكسبير شاعراً ، ولذلك كانت مسرحياته شعرية الشكل ، حلل باسلوب ابداعي مختلف نواحي الحياة .. أفراحها ومآسيها .. ظلم الملوك وحرمان الشعب .. المبـاذل المخجلة ، والمهازل المضحكة ، والمآسي المرعبة .

كان شكسبير أقدر روائي في خلق الشخصيات . وكانت كـل شخصية منها تجسّد ، على اروع صورة ، ناحيـة ما من نواحي الخلق الانساني .. الشجاعة .. الجريمة .. الخوف .. الحزن .. الميل الى الأخذ بالثأر .. الكبرياء .. الحقارة .. العنفوان .. وفي كل هـذه النواحي ، كان شكسبير يجعل هدفه الأخير ابراز انسانية الانسان وتمجيدها .

وكان شكسبير واقعياً ، على انه كان يميل الى تغليف واقعيته بصور رمزية ورومانطيقية واسطورية وتاريخية . كل ذلك باسلوب اخّاذ جعل له مركزاً فريداً بين كتاب عصره وما بعد عصره . ويقول فيه فيكتور هيغو : « ان شكسبير من أرفع النوابـغ ، وهو قـد توّج الحضارة الانسانية ، ونوّر باشعاعه النوع الانساني » .

ان اسم شكسبير يتألق اكثر واكثر كلما مرّت الأيـام والسنون ، وان مؤلفاته الخالدة لن يقضي عليهـا الزمن . ان الانكليز مـا زالوا يفاخرون بما يسمّونه العهد الاليصاباتي . أولى بهم يسمّوا هـذا العهد

« العهد الاليصاباتي الشكسبيري » . ذلك يكسبهم فخراً اكبر .

* * *

سبق القول ، أن نشوء الديمقراطية البورجوازية وتاريخها ، يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ بريطانيا ، وقلنا ان بريطانيا كانت أول بلاد قامت فيها حركة بورجوازية ضد الملوك المالكين سعيداً بارادة الله وبركة قداسة بابا روما ، وقلنا ايضاً ان الطبيعة التي اوجدت بريطانيا جزيرة على سطح البحار تتطلع الى الاستقلال ، ونفخت في شعبها روح التحرر من استبداد الملوك ومن طغيان الحكم الآلهي . فجدير بنا اذن ان نعود الى الوراء ونأتي في لمحة من تاريخ الحركة الانطلاقية في انكلترا ، ونربطها بتاريخ العهود التي مرت بها ، وما جرى فيها من احداث وتقلبات .

* * *

انطلقت الحركة هذه عام ١٢١٥ . كان الشعب قد ضاق ذرعاً باستبداد ملوكه ، وبلغت الضرائب المفروضة عليه حداً لم يعد بوسع الشعب ان يتحمله ، وكانت الضرائب تجبى بقسوة وحشية ، لا سيما في عهدي ريكاردوس قلب الأسد وخليفته يوحنا ، وكان هذا الاخير قد وضع نفسه وتاجه وشعبه تحت الخدمة البابوية ، وكان لا بد من الانفجار .. وحدث الانفجار .

جاء الانفجار نتيجة لتمرد الاشراف ورجال الدين على الملك يوحنا . لم يكن تمرد هؤلاء ثورة ،اذ ان العنصر الشعبي كان مفقوداً منها . كان الانفجار تمرداً او فتنة . ولكنه على كل حال كان انتفاضة تحررية الى حدّ ما ؛ بمقدار ما يفهم رجال الدين والبارونات التحرر ، وهؤلاء بالطبع يفهمون التحرر على أنه تحررهم هم ، لا تحرر عامة الشعب .

كانت نتيجة هذا الانفجار ان اجبر الملك يوحنا على امضاء الوثيقة العظمى Magna Carta فكانت هذه الوثيقة نقطة الانطلاق للتحرر من

استبداد الملوك . ثم اعقبها في عهــد الملك هنري الثالث ، إنشاء مجلس استشاري مؤلف من البارونات ورجال الدين ، دون سواهم . وكـان اهم غايات الوثيقة والمجلس الاستشاري ، منع الملوك من فرض الضرائب بدون استشارة المجالس .

على ان الملوك الذين تعاقبوا على عرش انكلترا فيما بعد ، لم يرموا سلاحهم بسهولة . فظل الصراع قائماً بين البلاطات والاشراف ، تارة مدّ وتارة جزر ، الى ان برز الى حلبة الصراع القائد «اوليفر كرومويل» ، واضرمها ثورة شعبية على الملك شارل الاول عام ١٦٤٨ .

* * *

كانت حركة كرومويل ثورة وليس فتنة ، وكانت فاتحة عهد الحكم البرلماني ، على الرغم من ان البرلمانية لم تكن برلمانيــة شعبية بالمعنى الصحيح ، بل كانت برلمانية بورجوازية : ضمت اليها عدا الاشراف والبارونات ، طبقة اصحاب الاملاك والتجار ، دون الطبقة العامــة . ولا بد من القول ، إن انتشار البروتستانتية في انكلترا ، كان عاملاً من عوامل بذر فكرة الانطلاق في الامة الانكليزية .

كان كرومويل بروتستانتياً متعصباً . وكان ينكر حق الملكية الآلهي. فنفخ في الشعب روح التمرد على الملك ، وجرّد عليه جيشاً من اتبـاع الكنيسة الانكليكانية — وهي فرع من البروتستانتية — واطلق على جيشه اسم « جيش الله » ، وقهر الجيش الملكي اولاً وثانياً ، ثم حاكم الملك شارل الأول بتهمة الخيانة العظمى ، واعدمه بقطع الرأس عام ١٦٤٩ ، ووضع حداً للحروب الاهلية ، التي لم تكن تنشب بين البروتستانت والكاثوليك فحسب ، بل بين الشيــع البروتستانتية نفسها .. الشيعــة الانكليكانية بقيادة كرومويل من جهة ، والشيعة البرسبيترية بقيادة بيت ستيوارت المالك في اسكوتلندا . غــير ان كرومويل بقي طوال حياته السيّد المنتصر . ذلك لانه كان رجلاً اميناً ومخلصاً ومصلحاً . وهــذه،

الصفات جعلت الانكليز يقبلون ديكتاتوريته ، التي لم تكن أخفّ من ديكتاتورية الملك ، ولكنهـا كانت ديكتاتورية اصلاحيـة ، وليس ديكتاتورية نفعية .

* * *

لم يستقر الحكم الجمهوري في انكلترا بعـد موت كرومويل ، اذ عادت الملكية بشخص شارل الثاني ، ثم خليفته جيمس الثـاني . وكان أول ما سعى اليـه النظام الملكي هو استرداد ما حصـل عليه الشعب الانكليزي من حقوق في عهـد كرومويل . وجعلت السلطة البابوية ، بمعاونة الجزويت ، تمد ملك انكلترا بالمساعدات المالية من خزينة لويس ملك فرنسا . غير ان الشعب الانكليزي ، وقد كان حريصاً على مـا اكتسبه من حقوق في عهد الجمهورية – بقي يناضل ضد الردّة الرجعية الجديدة . فما كاد الملك جيمس الثاني يموت حتى طلب الشعب بواسطة ممثلين عن فئتيه – اذ كان الشعب قد انقسم الى فئتين : فئة المحافظين « Tories » وفئة الاحرار « Whigs » ، من ولـيم الثالث ، صهر رئيس جمهورية هولندا ، البروتستانتي ، أن يتـولى العرش الانكليزي . وهكذا تخلصت انكلترا نهائياً من السلطة البابوية . وتوطد الحكم البرلماني. فأصدر البرلمان قانوناً يقضي بأن يكون ملك انكلترا بروتستانتياً انكليكانياً كما اصدر ايضاً وثيقة يعترف فيها الملك بحقوق الشعب . وجاء في هذه الوثيقة انه لا يجوز للملك ان يجبي الضرائب ولا يجند الجيوش إلا بعـد موافقة البرلمان . واستقر النظام منذ ذلك الحين عـلى نهج دستوري ... ملك يملك ولا يحكم ، والى جانبه مجلس نيابي منتخب ووزارة مسؤولة. ومع ان حق الانتخاب كان محصوراً في فئة قليلة من الشعب لا يتجاوز عُشره – وهي المؤلفة من الاشراف والتجار واصحاب الامـلاك – فان هذا الحق ما لبث ان امتد مع الأيام الى جميع فئات الشعب ، موطداً بذلك النظـام الملكي الدستوري ، الذي ما فتىء يسـود انكلترا الى

يومنا هذا .

* * *

قلنا ان انكلترا صاحبة الخطوة الاولى في الحكم الديمقراطي . صحيح انه كان في هولنده نوع من الديمقراطية الدستورية ، غير ان هولنده لم تكن لها المكانة الدولية الكافية ، كي تمشي سائر الدول على غرارها . اما فرنسا ، كبرى دول القارة الاوروبية ، فقد بقيت طوال المدة التي حكمها آل بوربون مناهضة للحكم البرلماني ، يحكمها الملوك بالحق الآلهي المكرّس لهم من قبل الكنيسة البابوية ، مستأثرين بالحكم مع بلاطاتهم ووزرائهم . واذا كان لا ينكر على هؤلاء الملوك ما عملوه في سبيل تقدم بلادهم العمراني والاقتصادي والتوسعي ، فالشيء الذي لا سبيل الى نكرانه ، حرمانهم الشعب من حقوقه طوال القرون التي سبقت الثورة الفرنسية .

على ان فرنسا بلغت مجداً عظيماً في ايام ملوكها البوربونيين ، لا سيما في عهد لويس الرابع عشر ، الذي دام سبعين سنة . ان لويس الرابع عشر ، على الرغم من استبداده وتفرده في السلطان ، كان يشعر بمسؤولية الحكم . وكان وزراؤه ، وعلى الأخص الكاردينالان «ريشيليو» و « مازارن » ، من دهاقنة السياسة والادارة . وقد عمل لويس الرابع عشر الشيء الكثير من اجل تقدم بلاده وعمرانها ، واسس في باريس اكاديمية الآداب — اكبر جامعة اوروبية في ذلك العهد . واصبح المجتمع الفرنسي ايام حكمه مناراً تحتذيه بقية البلدان . ونشط المسرح الفرنسي الذي اغناه « موليير » و « كورنيل » و « راسين » ، برواياتهم ومسرحياتهم الهزلية والتهكميّة والانتقادية . وارتفع شأن الأدب الفرنسي واصبحت اللغة الفرنسية اللغة الرسمية العالمية ، ودأب لويس الرابع عشر على تنظيم اوضاع فرنسا الاقتصادية ، مستعيناً بوزير ماليته « كولبير » اكبر اقتصاديي زمانه ، وجعل البلاط الفرنسي اعظم بلاط في الدنيا .

ولقب نفسه بلقب « الملك الشمس » ، وذهب قوله المأثور مثلاً « انا الدولة والدولة انا » ، وفاز بعظمة لم يفز بها ملك سواه . وبلغت فرنسا في عهده من الشأن والسؤدد ما يخلده له التاريخ .

* * *

هكذا كانت اوروبا في القرن السابع عشر جبهتين متزعمتين .. جبهة تتزعمها انكلترا وتمشي في خطاها الدول الشمالية التي تحدرت من السلطة الكاثوليكية ، وتخطو الى النظام الديمقراطي بارادة الشعوب ، وجبهة ثانية تتزعمها فرنسا ، وتمشي في خطاها الدول اللاتينية ، وترعاها الكنيسة الرومانية ، وتحكم بارادة الله ، المنقولة لها على يد بابا روما والكنيسة الكاثوليكية لا تعترف بحق الشعب ولا تهضم الحكم البرلماني .

* * *

هذا ما كانت عليه الحالة في الغرب الاوروبي . اما في شرقي اوروبا فقد كانت حالتها بالغة التأخر .

كانت روسيا ، كبرى دول شرقي اوروبا عاملة على تضميد جراحاتها بعد تخلصها من الاستعباد « الجنكيزخاني » والتتري . وكان همها تثبيت كيانها . ثم ما لبثت حتى اخذت في توسيع ملكها صوب الشرق ، فامتلكت الاصقاع السيبيرية الواسعة ، وبسطت سلطانها في الجنوب حتى القفقاس . ولكنها بقيت دولة متأخرة ومنقطعة عن الغرب الاكثر منها تقدماً ، الى ان اعتلى عرشها الملك بطرس الكبير عام ١٦٨٢ .

كان هذا الملك طموحاً الى آخر حدود الطموح . وكان بطاشاً الى آخر حدود البطش . وكان واسع الحيلة في سياسته الداخلية والخارجية. وكان يحلم بجعل امبراطوريته امبراطورية عظمى . وكان له ما اراد .

فمنذ استقر له الملك بعد فوزه في الحرب على اسوج ، وضمه البلدان البلطيقية الى مملكته ، غرّه ما كان يعرفه عن تقدم الغرب . فأخذ على نفسه استصدار تقدم الغرب الى بلاده . فسافر اكثر من مرة الى الغرب.

ودرس عليه ، وعمل بذاته نجاراً في أحواض هولنده ، وتعلّم بنـاء السفن والمصانع ، وكان يعود الى بلاده ينشيء فيها الصناعات والسفن التجارية والحربية ، ونقل عاصمة ملكه من موسكو الى بطرسبرج ، كي يكون على اتصال مع الغرب ، وجعل من روسيا بـلاداً صناعية بعض الشيء ، وحدّ من سلطان الكنيسة على الدولة ، وألغى مقام البطريركية في روسيا ، وجعل نفسه رئيساً للكنيسة الارثوذكسية على غرار ما فعله ملوك انكلترا ، وانشأ ينظم مملكته على أسس غربية ، وكان يفعل كل ذلك بطريقة ديكتاتورية قاسية الى ابعد حدود القسوة ، دون ان يسمح لاحد ان يعترضه فيما يعمل . وبلغت قسوته حدّ اعـدام ابنه ألكسيس عندما ظهر منه شيء من المقاومة لاجراءات ابيه العمرانية والاصلاحية . وعلى الرغم من ان بطرس الكبير انشأ عدداً من المدارس والمستشفيات، بقيت روسيا بمجموعها بلاداً متأخرة الى ابعد حدود التأخر عن الغرب .

* * *

لقد كرّس بطرس الكبير حكم القوة والاستبداد في روسيا ، ومشى خلفاؤه على طريقته في الحكم . على ان ما من أحد منهم كان له من القوة والجبروت والإقدام ما خوّله السلطان المطلق الذي كان يتمتع به بطرس الكبير ، باني الامبراطورية الروسية ، حتى تلك الامبراطورة الكبيرة كاترين الثانية ، التي كانت توصف « بالامبراطورة الكبيرة » و « المستبدّة المنوّرة » و « المرأة المعشاق » .

لقد سميت كاترين الثانية بالامبراطورة الكبيرة ، لانها خاضت الحروب ضد بولونيا واقتطعت قسماً منها وضمتها الى مملكتها ، وخاضت حروب القرم وقوّت نفوذ روسيا . ووصفت بالامبراطورة المنوّرة لانها كانت تراسل « فولتير » و « ديدرو » ، لا سعياً لاقتباس تعاليمهما الحرة — اذ هي كانت من أشد أعداء الثورة الفرنسية — بل مجاملة لهما، ولتحسسها بتأثير افكارهما على الرأي العام . ولربما كانت ، بثاقب بصيرتها ، تفعل

ذلك ،كي تعرف كيف تتقي خطر الافكار الحرة على شعبها. اما وصفها بالمرأة المعشاق ، فلأنها كانت ذات جسد يغلي بالحب الفاحش الى أبعد حدود التهتك والفحش ، وكان اول اعمالها الفاحشة انها خلعت زوجها بطرس الثالث عام ١٧٦٢ ثم أعدمته ، كي تستأثر بالعرش وبالحياة الطلقة إنْ بالحكم وان بالفحش .

وظل آل رومانوف يتعاقبون على عرش روسيا . وظل الحكم المطلق قاعدة القيصرية الروسية . وكان يشارك القياصرة في الحكم المطلق الاشراف وكبار الملاكين واكليروس الكنيسة الروسية الارثوذكسية . وبقي سواد الشعب في كل عهد آل رومانوف ، مرهقاً ومضطهداً ومستعبداً ، مما جعل منه حقلاً خصباً لنمو بذور الثورة .

١٥ . هوس الاستعمار يطغى على اوروبا

●

كان لنشوء الحركة البورجوازية في اوروبا اثر محسوس في تطور الصراع الانساني الحياتي . في عهد الاقطاع كانت فئة الاقطاعيين تكتفي بامتلاك الاراضي ، وتشغيل العامة ، في زراعتها وحراثتها ، مقابل اجور تدفعها لها ، او مقابل لا شيء إلا لقمة العيش السوداء ، او مقابل لا شيء ابداً ، اي بالسخرة . وكان الاقطاعي يأخذ كل المحصولات ، ويقتسمها بينه وبين الخزينة الملكية ، من قبيل الجزية عما تخوّله إياه السلطة الملكية من حق التحكم بالجماعات القاطنة في اقطاعيته . وكان الاقطاعي يسوق هذه الجماعات للحرب ضد غيره من الاقطاعيين ، او يضعها تحت تصرف الملك ، كي يجندها في حرب ما ضد دولة معادية . ولم يكن الاقطاعي يطمع بأكثر من دوام رضى مليكه ، ما دام مليكه يكفل دوام عبودية الناس البسطاء له .

في ذلك العهد ، لم يكن للتجارة ولا للصناعة شأن . ولم يكن هناك غير طبقتين ، طبقة الاقطاعيين ، اصحاب الاملاك الواسعة ، وهي القلة العددية من الشعب ، وطبقة العامة المغبونة والمستعبدة ، وهي الكثرة الساحقة .

غير ان ما حصل من تطور تاريخي — وقد اتينا على ذكره في الفصل السابق — فتح المجال لنشوء طبقة جديدة ، هي الطبقة البورجوازية.

وهكذا اصبح الشعب مقسوماً الى طبقات ثلاث : الطبقة الاولى ، وهي مؤلفة من الاشراف والاقطاعيين اصحاب الامـلاك الكبيرة ، والطبقة الثانية ، وهي مؤلفة من التجار واصحاب الصناعـات ، وطبقة ثالثة نشأت مع نشوء الصناعة ، وهي طبقة العمال وعامة الشعب .

على ان الطبقة الاولى ، أي طبقة الاشراف وكبار الملاكين ، التي كان لها الحول والطول في الماضي ، جعلت تفقد سلطانها شيئاً فشيئاً . ذلك لأن المال أخذ ينتقل من خزائنها الى خزائن الطبقة الثانية ، طبقة التجار والصناعيين ، وهي الطبقة الاكثر اجتهاداً في العمل ، والأكثر مهارة في جمع الثروات .

وكان على ابناء الطبقة الاولى ان يستجـيروا بابناء الطبقة الثانية ، ويستدينوا منهم الاموال كي يحافظوا على مراكزهم الممتازة من جهة ، ويقدموا للملك اثمان الوجاهة التي يخلعها عليهم ، فلم يكن لهم مفرٌ ، والحالة هذه ، من التنازل عن بعض حقوقهم وصلاحياتهم لدائنيهم . وفيما كانت الطبقة الثانية البورجوازية تنتزع هذه الحقوق والصلاحيات من الطبقة الاولى ، كانت الطبقة الثالثة تنتقل من عبودية الى عبودية اخرى ارفق حالاً بعض الشيء ، وأكثر إشفاقاً عـلى مستعبديها بعض الشيء . فالطبقة البورجوازية ، التي تعتمد الصناعة او التجارة للكسب ، لا مفرٌ لها من استخدام ابناء الطبقة الثالثة العاملة ، ولا مفرٌ لها ايضاً — كي تؤمن ازدهار صناعتها وتجارتها — من ان ترأف بمستخدميها .

كانت الطبقة الثانية اكثر وعياً ودهاءً من الطبقة الاولى ، وكانت اكثر اجتهاداً ونشاطاً من الطبقة الثالثة . فبينما كانت الطبقة الاولى تلهو وتعبث ، وفيما كانت الطبقة الثالثة مستسلمة الى حكم القدر ، وقانعة من دنياها بما يؤملها به مستثمروها من سعـادة في الآخرة ، كانت الطبقة الثانية تعمل جاهدة لاستثمار خيرات الارض والافادة منها في تثبيت مكانتها وازدهار معيشتها ، ورفع مستواها المادي والفكري . فما جـاء القرن

الثامن عشر ، حتى بدأت الطبقة الثانية تزحزح الطبقة الاولى من مراكز نفوذها ، لتنتزعه منها كلياً في القرنين التاليين .

* * *

كانت الطبقة الثانية البورجوازية تمتاز عن الطبقة الاولى الارستوقراطية

بمزايا عدّة ، سهلت لها سبل السبق والتفوق . فهي اكثر تقدمية منها اجتماعياً ، واكثر قابلية للأخذ بسنّة التطور ، واكثر وعياً واستطلاعاً وادراكاً وتقديراً للقيم الانسانية . فلم يكن يغرّهـا التحصّن في برج عاجي ، بل خرجت من قوقعتها ، المحنّطة بالاطياب ، الى ميدان الحياة والعمل ، تصارع وتكافح ، لاستخراج ثروات الطبيعة من بطون الارض ، والاستعانة بالعلم والخبرة والتجربة ، على استثمارها لمصلحة الفرد والجماعة والدولة ، باذلة أقصى الجهود لفتح آفاق المعرفة ، وخلق جوّ صالح لحياة تقوم على العمل والانتاج ، والاخذ والعطاء ، فيرتفع بذلك المستوى الانساني مادياً ومعنوياً .

* * *

كانت التجارة في المرحلة الاولى ، والصناعة في المرحلة الثانية ، العنصر الأهم في توطيد سلطة الطبقة الثانية . وكانت هذه الطبقة تنهج مختلف السبل ، من علمية واقتصادية ، لاستدرار الكسب والثراء . وبدأ التزاحم بين الدول الاوروبية ، كل منها تبغي لنفسها اكبر قسط من الارباح . وطمعت اوروبا في خيرات القارات غير الاوروبية . ودفعها طمعها هذا الى القيام بمغامرات توسعية واستعمارية. فبنت الاساطيل التجارية ، كي تحمل اليها ثروات البلدان المتخلفة ، وترسل الى هذه البلدان مصنوعات معاملها . وكانت الدولة التي تملك قسطاً اوفر من وسائل النقل ، صاحبة الحصة الكبرى . وبرزت عظمة انكلترا التي جعلت من التجارة اساساً لسياستها منذ عهد كروميل .

* * *

من الامثال العامة « ان الحاجة أم الاختراع » . وليس من ينطبق عليه هذا المثل اكثر من تلك المجموعة من البشر الذين يسمّون انكليزاً او بريطانيين .

ان بريطانيا جزيرة عائمة في البحر . وليس فيها من الخيرات ما يكفي حاجة سكانها . ولذلك كان على هؤلاء السكان ان يتطلعوا الى غنى الاراضي البعيدة . هذا ، فضلاً عن ان الشعب البريطاني ، كان قد سبق غيره من الشعوب في التطور ، وأصبح عنده مطامع وآمال ، لا يشبعها ما في جزيرته من ثروات ، اذا بقي متحصناً في جزيرته ، ومقتنعاً بما تمن عليه البحار المحيطة به من اسماك ، وبما تزوده به أراضيه القليلة من محصولات .

من هنا انطلقت ثورة الانكليز على البحار ، فأخضعوها لمراكبهم ، وامتدت تجارتهم الى اقاصي المعمورة يقايضون ويتقايضون مع سكان الاقطار البعيدة ، أحياناً بشرف ، واحياناً بالاغتصاب والقرصنة .

وقامت مبارزة حامية في هذا المضمار بين انكلترا وفرنسا ، الدولتين الاوروبيتين الكبيرتين . كلّ منهما تسعى للتفوق على الثانية ، في استثمار ثروات البلدان البعيده ، واستعباد شعوبها ، ووضعها تحت حمايتها ، او وضعها تحت جزمتها على الاصح . وكانت انكلترا أكثر قوة من منافستها فرنسا ، واكثر دهاءً في تدبير شؤون التملك والاستثمار ، وأكثر مهارة في التعامل مع الشعوب المتخلفة ، مما جعلها تنتزع من منافستها القسم الاكبر من تجارة الهند ، بواسطة الشركة الانكليزية الهندية التجارية المنشأة عام ١٦٠٠ ، وقد كان لهذه الشركة الفضل في توطيد النفوذ البريطاني على الهند . فما كاد ينتصف القرن الثامن عشر ، حتى اصبحت الهند من ممتلكات بريطانيا ، ولم تحصل فرنسا من تلك البلاد الشاسعة ، الا على جزء صغير منها ، أطلق عليه — لا أعلم كيف ولماذا — اسم الهند الصينية .

ولم تقنع انكلترا بمنافسة فرنسا في الهند ، واقتطاع القسم الاكبر منها ، بل حطّت عينها على ممتلكات فرنسا في اميركا ،فما عتمت حتى انتزعتها منها ، واستولت عليها ، وضمتها الى ممتلكاتها .

وكانت انكلترا ، كلما ازدادت توسعاً بتجارتها ، تعمد الى فرض نفوذها وسيطرتها على الممتلكات التي تضمّها اليها . كانت مراكبها التجارية تحمل اليها الثروات ، وكانت مراكبها الحربية تحمل الجنود البريطانيين الى الممتلكات ، كي تحمي مصالح بريطانيا من أيّ هجوم قد تقوم به دولة مزاحمة ، او من اي عصيان قد يقوم به سكان هذه الممتلكات عليها او على تجارتها .

* * *

الواقع التاريخي ، ان الدول الاوروبية كلها ،كانت كلما تقدمت صناعياً وتجارياً ، تنهج في سياستها نهجاً استعمارياً امبريالياً . على ان هذا الواقع نفسه ، يشهد بأن بريطانيا كانت اكثر الدول مهارة ودهاء في هذه السياسة . واذا كانت المنافسة في هذا المضمار ، اقتصرت اكثر ما اقتصرت على بريطانيا وفرنسا ، فذلك لأن هاتين الدولتين كانتا زعيمتي الدول الاوروبية ،بل كانتا زعيمتي مدرستين مختلفتين في سياستها الاستعمارية ؛ كل مدرسة لها نهجٌ خاص ، وأسلوب خاص . وقد نجد في التاريخ اسباب تفوّق المدرسة البريطانية على المدرسة الفرنسية .

كانت الدولتان تهدفان الى غاية واحدة ، وهي الكسب الاقتصادي المادي ، عن طريق كسب النفوذ السياسي والسيطرة السياسية على البلدان الطامعتين بها وبمواردها . فلماذا كان نصيب بريطانيا من النجاح أكثر من نصيب فرنسا ، مع ان فرنسا لم تكن أقلّ من بريطانيا قوة عسكرية ، ولا اقلّ منها طموحاً الى التوسّع ؟ لعلنا لا نكون مخطئين في الرأي الذي نبديه في الاسطر القليلة التالية .

* * *

منذ اعتنقت بريطانيا المذهب البروتستانتي ، وخرجت على الكنيسة الكاثوليكية ، انطلقت من النطاق الضيق الذي كانت تضربه حولها الكنيسة البابوية ، واصبحت اكثر انعتاقاً من قيود الروحانية التي تقيّد بهـا الكنيسة الدول الخاضعة لها ، ولو روحياً . وهذا الانعتاق الروحاني فسح لها المجال للانطلاق المادّي . وذلك يعني ان بروتستانتية بريطانيا، كانت اكثر انسجاماً مع مادية الحيـاة من كاثوليكية فرنسا . وعندما نقول بريطانيا ، نشمل معها الدول البروتستانتية الصغيرة الاخرى . وعندمـا نقول فرنسا ، نشمل معها الدول اللاتينية الصغيرة الاخرى .

ولم تقتصر فائدة هذا الانعتاق على الناحية الروحانية والشؤون الروحية فقط ، بل تعدتها الى الناحية المادية والشؤون الزمنية . فالانطلاق يعني الانطلاق ، ومن المحال ان لا يؤدي الانطلاق بالفكرة الروحانية الى الانطلاق بالفكرة المادية .

بهذا التفسير — الذي قد لا يعجب كثيراً الروحانيين ، او غلاتهم على الاقل — نستطيع ان نتبين اسباب تفوّق بريطانيا على فرنسا في السياسة الاستعمارية . فبينما كانت فرنسا ، وشقيقاتها الصغيرات اللاتينيات تهدف من استعمارها ، فضلاً عن الاستثمار الاقتصادي ، الى نشر الديانة الكاثوليكية ، ونشر الثقافة اللاتينية ، الامر الذي كان يجرّها الى متاعب من قبل سكان البلاد المستعمَرة ، المتعصبين لدياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم، كانت انكلترا تعزف عن اي عمل ،من شأنه اغضاب سكان مستعمراتها . فلا هي تفرض عليهم ديانتها ، ولا تسعى لتبديل عاداتهم ، او التنكر لتقاليدهم، مهما كانت هذه العادات والتقاليد بدائية او بربرية ، اذ ما دامت الغاية من الاستعمار هي الكسب والسيطرة والسيادة ، فما يهم اذا كان سكان المستعمرات يعبدون الله ؛ او يعبدون الشمس ، او يعبدون الشيطان .. او كيف يتزاوجون ، وكيف يتوالدون ، وكيف يفرحون في اعيادهم،وكيف يحزنون في مآتمهم .. وكيف .. وكيف .. وكيف ..

المهمّ ان يكونوا راضين وآمنين وقانعين . يشتغلون وينتجون ويقدمون إنتاجهم لسكان الجزيرة العائمة شمالي بحر المانش ، ويهرعون الى الموت عندما تدعوهم بريطانيا الى الموت .

كانت فرنسا تدّعي أن اسلوبها في الاستعمار ، اسلوب تمديني اكثر من اسلوب بريطانيا ، اذ هي تبغي في ادعائها هذا (المنافق) ، تحضير الشعوب المستعمَرة بواسطة تنصيرهم — او كثلكتهم على الأصح — وكانت تختار لهذه المهمة مبشّريها ، المزوّدين بالتعصب الجزويتي . فكان هذا التعصّب ، يقابل بتعصّب معاكس من قبل شعوب المستعمرات . وكانت فرنسا عندما تدخل مستعمرة جديدة ؛ تعمل على قتل اللغة الوطنية فيها ؛ واحلال اللغة الفرنسية محلّها ؛ بغية فرنسة شعوبها . كانت تعمل كل ذلك بحجة الغيرة على تمدين الشعوب . ولكن متى كان تمدين شعب ما ، لا يحصل إلا اذا استعيض عن لغته بلغة غريبة ، واذا قضى المستعمِر على تراثه قضاء كلياً ؟

نحن هنا نبحث ؛ اي الاسلوبين في الإستعمار كان ادهى من الثاني ، وليس ايهما افضل .. اذ ان الإستعمار إستعمار ، لا يفضل نوعٌ منه نوعاً آخر . بل قد يكون النوع الأدهى اكثر شراً من غيره .. اننا فقط نتوخّى تفسير الواقع التاريخي ، في ان الاستعمار البريطاني كان ينسجم مع الروح الاستعمارية ، والعقلية الاستعمارية ، والغاية من الاستعمار ، اكثر من الاستعمار الفرنسي . ولهذا السبب كان الاستعمار البريطاني هو الغالب دائماً في صراعه مع الإستعمار الفرنسي ؛ كما كان الاستعمار البريطاني اكثر صموداً امام تقلبات الحوادث وتطور الشعوب.

* * *

كان طبيعياً ان يرافق العصر الرأسمالي والاستعماري تقدم في العلم والصناعة والاختراع والاجتماع ، وفي كل حقل من حقول الحياة العامة . فلكي تزدهر الرأسمالية ، ويصير بامكانها ان تتوسع ، وتربح ، وتستعمر ،

وتسود ، عليها ان تبني ازدهارها وتوسعها وسيادتها على وفرة الانتاج . ولكي تستطيع ذلك ، عليها ان تخلق الصناعات ، وتسهل المواصلات بين الاقطار البعيدة والقريبة ، وتؤسس شركات وتكتلات استثمارية ؛ وتضع لها قوانين وقواعد تتمشى عليها ، وتجند عمالاً فيها . هذا ما جعل العهد الرأسمالي عصر علم واختراع . وهذا ما جعل العهد الرأسمالي يهتم بتشييد المعاهد العلمية ، والمختبرات التجريبية ، ودور الصناعات ، والمؤسسات الصحية والاجتماعية ، وكل ما من شأنه ان يسهم في تطور الحياة البشرية .

فمنذ ان اخترع « جيمس وات » المحرك البخاري عام ١٧٧٧ ، استبدلت المراكب الشراعية بالمراكب البخارية ، فسهلت الاسفار والتجارة عبر البحار والاوقيانوسات ، وتحول العلم من الميدان الروحي الى الميدان العملي والصناعي ، وجعلت المادة تحتل مكان الروح في حياة الانسان . وكانت بريطانيا دائماً السابقة الى الأخذ بهذا التحول ، للاسباب التي ذكرناها سابقاً .

كانت بريطانيا – وهي جزيرة بحرية قليلة الموارد ، ويسكنها شعب كثير المطامع – اكثر اهتماماً بالصناعة التجارية ، من كل الدول الاوروبية ، فبنت الاساطيل – التجارية والحربية – ومخرت عليها البحار القريبة والبعيدة ، وشكت رايتها على البقاع المبعثرة في كثير من انحاء الكرة الارضية ، وامتلكت من المساحات ما لم تستطع ان تملك مثله زميلاتها من دول اوروبا . واصبحت عاصمتها ، عاصمة الدنيا ، في الاعمال والسياسة والسيادة المالية ، وحازت بذلك لقب « سيدة البحار » . كانت سيادتها البحرية والتوسعية والاستعمارية السبب الاكبر والاهم ، للنزاعات والحروب ، التي اغرقت اوروبا والعالم كله ، في بحار من الدم ، اذ ما من دولة اوروبية كانت اقل طمعاً من بريطانيا ، ولكن ما من دولة اوروبية كان لديها من المهارة والحذاقة والدهاء

الواقعي ، ما كان لدى بريطانيا .

* * *

هكذا كانت اوروبا القرن الثامن عشر . وهكذا كانت دولها تمتلك أو تستعمر – والاستعمار ابشع من الاستملاك – بلـــدان الدنيا كلها ، وتستثمر مواردها وخيراتها ، وتتحكم بمصائر شعوبهـــا ، اذا اعطتها – منّة منها – القليل ، فلكي تأخذ منها الكثير . حفنة من الاوروبيين تتحكم بمئات الملايين من البشر . المستعمِرون يعيشون عيشة الرفاه والبذخ ، والمستعمَرون يعيشون عيشة القلّة والكفاف ، والذل والمسكنة . هؤلاء يزرعون ، واولئك يحصدون . والاوروبيون يتذرعون بالحجة الكاذبة ، مدّعين انهم يقومون بعمل تمـــديني انساني . ومنـــذ القديم كانت – وما تزال – هذه الحجّة الكاذبة ، ذريعة لاشباع اطماع اهـــل الطمع والجشع .

* * *

ليس من ينكر ، ان اوروبا في ذلك العهد ، بلغت درجة من الرقي العلمي والصناعي والاجتماعي ، لم تبلغها غيرها بقعة من بقـــاع الارض. وليس من ينكر ايضاً ، ان تقـــدم وسائل المواصلات ووسائل الانتاج سهّل تخالط الشعوب بعضها ببعض ، فنتج عن هذا التخالط تفاعل اجتماعي وعمراني فيما بينها ، لما كان ينقله من معالم المدنية من قطرٍ الى قطر آخر . فالتفاعل بـــين الشعوب المتباعـدة – التي كـــان رائـــده تقدم الشعوب المتفاعلة والمتخالطة – هو خير وسيلة لتطور النوع الانساني . فهل كانت غاية الاستعمار من هذا التفاعل ، غـــاية انسانية ، كما هو ادعاؤه ، أم كانت غايته منه مصلحية فقط ؟ هذا ما يجيب عليه بصراحة تاريخ الاستعمار ، منذ ان كان في الدنيا استعمار . وهذا ما تجيب عليـه بصراحة ايضاً ، الحيـــاة التي عاشتها ، وما زالت تعيشها ، الشعوب

المستعمَرة ، على الرغم من « نِعَم » الاستعمار عليها مئات من السنين.

* * *

يشتهر الاستعمار بالدهاء والمهارة والمقدرة على إلباس الباطل لبوس الحق . وهو يقظ الى امره ، وحريص علـــى مصلحته . هو لا يعطي القليل بالشمال ، إلا ليأخـــذ الكثير باليمين . ان ما يدّعيه الاوروبيون المستعمِرون ، من ان امتلاكهم لأراضي الغير ، وسيطرتهم على الشعوب الأخرى ، انما الغرض منه تمدين هذه الشعوب هو ادّعاءٌ ، سداه الكذب ولحمته التضليل . والواقع شاهدٌ على ذلك ، اذ انه لا تجارتهم كانت لإغناء الاراضي المستعمَرة ، ولا بعثاتهم الارسالية كانت لتثقيف الجماعات البشرية المرسلة اليها . وما كانت هذه وتلك ، سوى وسائل اضطرارية ، لا غنى عنها لجني الارباح ، وفرض السيادة الاوروبية ، اما عن طريق الأخذ والعطاء ، او عن طريق التوجيه الثقافي والاجتماعي توجيهاً يخدم الاستعمار ، ويجعله مقبولاً من الشعوب المستعمَرة . ولقد طالمـــا روى التاريخ ، ان المستعمِرين ، لم يتورعوا عن معاملة سكان المستعمرات بجميع ضروب القسوة والارهاب الوحشي ، اذا لمسوا فيهم يقظة تحررية — ولو ضئيلة — او اذا شعروا ان اولئك السكان قد بدأوا يتلقنون من تعاليم البعثات ما يتعرفون به الى حقوقهم . بل لقد طالما قام الاوروبيون باستفزازات مقصودة ، كأن يسهّلوا الاعتداء على مُرسلٍ من مرسليهم ، او على تاجرٍ من تجارهم ، لكي يتخذوا من هذه الحوادث الفردية ذريعة لاستعمال القوة ، وفرض قيود مالية وعسكرية على السكان البسطاء الوادعين ، ضاربين عرض الحائط بالمبادىء التي كان يدّعي نشرها مرسلوهم ومبشروهم ، ويدّعي هؤلاء انهم ما جاءوا الى البلاد إلاّ لخدمتها .

كان الاستعمار بين أمرين لا ثالث لهما . فاما ان يقبل — ولو كرهاً منه — ان تتفتح عيون محكوميه على معالم المدنية ، واغرائهم بالتقرب

اليه – بغية اكتساب ثقتهم ، وتسهيل التعامل معهم ، واستخدامهم للغاية التي يرمي اليها ، واما ان يقفل عليهم باب المعرفـة والتفتح ، فتقل منفعته منهم . في هذا الصراع بين الحاجة والغاية ، كان على الاستعمار ان يظهر كل ما لديه.من دهاء ومهارة .

وكان الانكليز – كما سبق وقلنا – اكثر الاستعماريين دهاء ومهارةً ، اذ انهم عرفوا كيف يوازنون بين رقيّ سكان مستعمراتهم ، وبين العمل على حفظ النصيب الاكبر من الكسب لهم . وقـد أدّت عبقريتهم في هذا المضمار ، الى السماح لسكان المستعمرات ، بقسم من الكسب الماديّ ، على حساب الكسب الفكري والتقـدم الاجتماعي ، على عكس سكان المستعمرات الفرنسية ، الذين كان مستعمروهم الفرنسيون يقترّون عليهم الارباح الماديّة والمعيشيّة ، ويلهبونهم من شظف العيش ، محوّلين انظارهم الى الناحيـة الروحانية الغيبية التي يوجهونهم اليها ، فكان الفرق بـين الاسلوبين الاستعماريين – الاسلوب الانكليزي والاسلوب الفرنسي – ان الانكليز يعتمدون وسائل واقعية لضمان مصالحتهم الاستعمارية ، بينما يأمل الفرنسيون ان تصل اليهم مصالحتهم كاملة ، مجرورة بحبال القوة ، او بخيوط الأوهام ، التي تنسجها دعايات دعاتهم ، كي تصوّر للشعوب، الباطل حقاً ، والحق باطلاً .

***

ليس من الانصاف ان يجرّد العهد الرأسمالي من كل الحسنات . ان الانتقال من العهد الاقطاعي الى العهد الرأسمالي كان خطوة نحو الامام . اذ ان الرأسمالية ، على الرغم من كونها نظاماً استثمارياً ، وعلى الرغم من كونها الأم التي ولدت الاستعمار ، وعلى الرغم من قسوة استعمارها للشعوب المستعمَرة ، لا يجوز نكران ما افادت العالم به في مرحلة من مراحل التاريخ . ذلك لأن المستعمِرين كانوا يدركون ، ان مصلحتهم لا تقوم ، كما يبتغونها ، إلا اذا تسامحوا باعطـاء البلدان ، الطامعين

باستثمارها ، جرعات مقننة من حضارتهم ، وفتاتاً من ثقافتهم وخبرتهم. فقد وجدوا انفسهم مضطرين الى فتح المعاهد وتدريب السكان المحليّين على اصول الزراعة والصناعة ووسائل الانتاج ، مما فتح اعين هؤلاء بعض الشيء ، وأثار اذهانهم بعض الشيء ، وخلق فيهم وعياً اجتماعياً بعض الشيء . هذا التطور ، مهما قيل فيه ، ومهما كانت تسعى القوى الاستعمارية كي تبقيه ضمن حدود معينة ، ومهما كانت غاية المستعمرين منه .. فقد كان بداية انطلاق الوعي الاجتماعي والسياسي في الشعوب المستعمَرة .

كان الاستعمار يخدم نفسه بالدرجة الاولى . ولكن لم يكن له مفرّ — من خلال خدمته لنفسه ، ومن خلال تطلعه الى مصلحته — من خدمة الشعوب المستعمَرة ايضاً . وقد كان عليه ان يجد طريقة ما ، ويعتمد قاعدة ما .. كي لا يحصل من خدمته للشعوب المستعمَرة ما يُفسد عليه خطته الطويلة الأمد . وقد وجد الطريق ، واعتمد قاعدة « فرّق تسد» .

كانت الشعوب هذه ، قبل ان يدخل عليها الاستعمار ، ترزح في عبودية جامحة ، يفرضها عليها رؤساء القبائل والاقطاعيون . وكانت هذه الشعوب مستسلمة وساكتة ، اختياراً أم كرهاً . واذ دخل عليها الاستعمار أدخل معه (على قاعدة « الكوتا ») وسائل الثقافة والحضارة بقدر ما تستوجبه مصلحته ، وبقدر لا غنى له عنه لبلوغ غاياته . فكانت هذه « الكوتا » من الثقافة والحضارة سبباً لايقاظ الشعوب من هجعتها الخانقة ، وكانت حافزاً للشعوب كي تنفر من العبودية وتثور عليها ، كما كانت ايضاً حافزاً لمحاولات الاستعمار ، كي لا يدع نفور الشعوب المستعبدة من عبوديتها وثورتها على مستعبديها القدماء ، يتعديان الحدود المرسومة لها منه ، الى الحدود التي يسهر هو عليها ويحرص على سلامتها .

وكانت جعبة الاستعمار مليئة بالاساليب المبتكرة . ففيما كان ينوّر

الشعوب على حقوقهم من مستعبديهم الاقطاعيين ورؤساء القبائل ، كان في الوقت ذاته يدغـدغ هؤلاء ويوليهم الزعامة المشروطة بالخضوع له والقبول بسيادته عليهم . وكانت دغدغة الاستعمار المشروطة لهؤلاء وسيلة لتعميق الروح القبائلية التعصبيّة ، والقضاء على الروح القومية والتحررية، مما زاد التباغض والتباعد بين مختلف القبائـــل وشعوبها ، ومختلف المذاهب ومن يدينون بها .

* * *

لا بأس من ان نكرر ، ان المرحلة الاستعمارية كانت بمثابة جسر او معبر من معابر التاريخ ، عبرت عليـه الحضارة من العهود الاقطاعية المظلمة الى عهد الانطلاق التقدمي والانساني . ان ما رافق هذه المرحلة من تقدم عمراني وصناعي وانتاجي ، ومن ارتفاع في مستوى الحياة ، مضافاً الى ذلك ، الدور الذي مثّله عنصر العمل ، والوعي الاجتماعي الذي احرزه العامل ، وفتح عينيه على ما يلحقه به المجتمع من ظلامات مقابل ما يقدمه هو المجتمع من خدمات : كل ذلك كان دافعاً ليقظة الطبقة الثالثة العمالية ، ونضالها من اجل تحررها من الطبقة الرأسمالية .

٢٦ . طلائع الحركة التحررية العالمية

•

على الرغم من طغيان الرأسمالية الاستعمارية في القرون الثلاثة التي سبقت القرن العشرين ، وعلى الرغم من الطابع الاستعماري الذي ساد الحكومات في هذه الفترة من التاريخ ، وما رافقه من الضغط الفكري والارهاق الاقتصادي ، وعلى الرغم من فرض شرائع مدنية ودينية واجتماعية واقتصادية ، مستوحاة من نظام قائم على تقسيم الناس الى طبقات ، وعلى الرغم من تشابك الدول في حروب ؛ سداها الجشع ولحمتها شهوة التقلّب والسيطرة الفردية او القومية .. فان هذا العصر لم يعدم بذوراً ثورية تحررية كان ينثرها هنا وهناك افرادٌ احرار ثائرون على الانظمة القائمة .. بذوراً نزلت في ارض جافة كانت تعوق نموّها .. غير انها على كل حال لم يكن في استطاعتها قتل حيويتها بالمرة . فما لبثت حتى نمت واينعت واعطت ثماراً طيبة .

* * *

من الانصاف الاقرار ، بأن طلائع الثورة التحررية الفكرية ظهرت – اول ما ظهرت – في فرنسا . صحيح ان انكلترا سبقت فرنسا في انتهاج النظام الديمقراطي كما قلنا سابقاً . ولكن العقلية الانكليزية المحافظة تؤثر التطور البطيء وترتاح اليه ، على عكس العقلية الفرنسية الملتهبة التي

تجنح الى الطفرة . هذا من جهة . .ومن جهة ثانية ، فالنظام البورجوازي الديمقراطي الانكليزي البروتستانتي ، بعد منتصف القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر – على شذوذه – كان اكثر تسامحاً ، وأقل استفزازاً للانفجارات الفكرية من النظام الاوتوقراطي والثيوقراطي الفرنسي . وفي الأمثال أن الضغط يولد الانفجار ، وقد قام الضغط الاوتوقراطي والثيوقراطي الفرنسي بما ينتظر ان يقوم به كل ضغط ، فولد الانفجار .

كانت انكلترا تبذر بذور الفكر . ولكن فرنسا كانت تحرثها وتحصد غلالها . ولعل الاصح أن نقول ان أفراداً من الانكليز كانوا يزرعون، وأفراداً من الفرنسيين كانوا يحرثون ويحصدون . فالفكر التي بذر بذارها روجر باكون في أرض انكليزية في القرن الثالث عشر ، وغذاها حفيده – أو حفيد حفيده – فرنسيس باكون في القرن السابع عشر .. من أن الاشياء والطوارىء الطبيعية ليست ذات كينونة مقررة ومستقلة بل هي مسببات لاسباب يجب البحث عنها ومعرفتها ، والرجوع اليها في الكشف عن الحقيقة – وهي ما يسمى بالطريقة الاختبارية في العلوم – ان هذه الفكرة التي بذرت في أرض انكليزية ، لم تجد في انكلترا حراثاً يحرثونها ويعنون بانمائها ، بقدر ما وجدت حراثاً يعنون بها ويطبقون مفاهيمها – في الحقل العلمي والاجتماعي – في فرنسا .

* * *

كان باسكال وديكارت أبرز مفكري فرنسا في القرن السابع عشر . كان باسكال عالماً في البحوث الطبيعية التي استمد منهـا فلسفته الفكرية على طريقة باكون . ومع ان باسكال انصرف في آخر حياته الى البحوث الدينية ، غير ان انصرافه هذا لم يمنعه من محاولة تطبيق فلسفته الدينية على نظراته العلمية مما اثار حقد الجزويت عليه . فكان يجابههم بمقالات عنيفة – جمعها في كتابه « الافكار » وأظهر فيها ضلال مناظريه وتضليلهم . وعلى الرغم من تمسكه بروح الدين وجوهره ، لم يسلم من

نقمة رجال الكنيسة عليه ، اذ رأوا فيه ناشزاً عن تعاليمهم وشعوذاتهم .

ولم يكن ديكارت أحسن من زميله باسكال حظاً مع هؤلاء . فديكارت الذي كان ينكر الفلسفة الميتافيزية ، كان مفكراً قبل كل شيء ، وكان يعتمد التفاعل العلمي والفكري في بحوثه ، وكانت بحوثه فسيحة المجال للجدل في الفلسفه الارسطوطالية وفلسفة مار توما الاكويني ، قيدوم العصر في الفلسفة اللاهوتية الكاثوليكية . كان ديكارت رائد الفلسفة الحديثة المستوحاة من التفاعل الفكري ، ميزة الوجود الانساني . وقد التصقت باسمه عبارته المشهورة « أنا افكر اذن انا موجود » . وكانت فلسفة ديكارت تلاقي مناصرة واسعة من الفلاسفة والعلماء . وما كانت اضطهادات الجزويت ورجال الكنيسة له قادرة على طمسها ، بل كانت تزداد انتشاراً كلما ازداد الاضطهاد سعيراً ، فبقي اسم ديكارت يحتل المكان الاول بين فلاسفة الفرنسيس .

* * *

لم يكن يقدر لفلسفة باكون وباسكال وديكارت أن تفعل كثيراً في بث الروح الثورية والفكرية في الجماهير . ذلك لأن افكار وتعاليم هؤلاء الأفذاذ الروّاد ، اقتصر مفعولها على فئة قليلة من الناس ، أي النخبة المتفتحة منهم ولم يكن ليعيرها المجموع المتخلف كثيراً من الاهتمام . فالعامة كانت مسحورة بالتعاليم الدينية الميتافيزية ، ورائعة في حالة من الجهل ، لا تتمكن معها من استيعاب النظريات العلمية والفلسفات الفكرية . غير أن رواداً آخرين من الفئة الواعية المثقفة استمدت من هذه النظريات مفاهيم فكرية جديدة ، ونقلتها الى عامة الشعب بطرق أقرب الى مفهومها ، وسهّلت لها تفهم ما لم تكن تتفهمه من قبل ، عندما كان القيّمون على حياة العامة يحرصون كل الحرص على تجهيلها .

هؤلاء الرواد الآخرون الذين استوحوا نظرياتهم الفكرية الاجتماعية من فلسفة زملائهم العلمية ، هم الذين اشعلوا الثقاب للثورة الفكرية

والاجتماعية في القرن السابع عشر والثامن عشر ، ومهدوا السبيل لانتفاضة الشعب الرائعة في الثورة الفرنسية .

كان التشريع في ذلك الحين بيد الكنيسة ، لا بيد الشعب وتتحكم به على قاعدة الحق الآلهي . وكان الناس لا يشغلون أفكارهم بأنظمة الحكم والتشريع ، بل يذعنون لما يسنّه لهم ملوكهم وحكوماتهم . فاذا « بمونتسكيو » يطلع عليهم ببحوث حقوقية وموضوعيّة ، تحدد مسؤلية الحاكم ومسؤلية المحكوم ، وصلاحيات الحاكم وواجبات المحكوم ، مما جعل من مؤلفة « اصول النواميس والشرائع » مرجعاً في اصول التشريع حتى يومنا هذا .

* * *

وكانت الحياة الاجتماعية تسير — او تُسيّر — بطريقة اعتباطية ، دونما قواعد ولا نواميس . وكانت الحياة التربوية ، هي ايضاً ، تسير — أو تُسيّر — دونما نظم ، إلا النظم الكيفية ، التي يضعها رجال الحكومات وفقاً لغاياتهم ، او رجال الكنيسة ، وفقاً للاهوتيتهم . فاذا بـ « جان جاك روسو » الرجل الطريد ، يثور على مجتمعية المجتمع الذي كان يعيش فيه ، ويشاهد مفاسده ومباذله ، ويتألم منها ، فتدفعه ثورته الى عمل شيء ما ، يصلح أن يكون قاعدة موضوعيّة للحياة الاجتماعية . فطلع على عصره بمؤلفه « العقد الاجتماعي » مبيناً فيه علاقات الدولة مع الشعب ، وعلاقة الجماعات مع بعضها ، على اعتبار أن هذه العلاقات يجب ان تقوم على أساس التعاقد الموضوعي ، ولا تُترك لشهوات الحكام الغائية والطبقات المختارة . كان روسو من عشاق الطبيعة الخلاّقة ، وكان يؤمن بفضيلة كل ما تنشئه الطبيعة التي هي من صنع مهندسها الاعظم ، وكانت فلسفته الاجتماعية منبثقة من هذا الايمان . فالانسان ، في عرفه ، يولد صالحاً ، وما يطرأ عليه من فساد فيما بعد ، انما هو من صنع المجتمع الفاسد . بهذه النظرة كتب مؤلفه « اميل » في الاصول

التربوية . وهو الكتاب الذي جلب عليه نقمة السلطات ، وجعله طريداً حتى آخر حياته .

كانت فلسفة روسو فلسفة طوباوية وروحانية أكثر مما كانت مادية وعلمية . ولكنها على كل حال كانت فلسفة انسانية واصلاحية وشعبية . وكان لبلاغته الأدبية ، ونقاء نياته الضميرية ، واسلوبه الممتع في التهكم على أوضاع العصر والقيمين عليها ، بالغ الاثر في التمهيد للثورة الفرنسية .

* * *

وكان الطغيان السياسي والاقتصادي والكنسي بحاجة الى من يقسو في نقده وتهديمه أكثر من مونتسكيو وروسو . فاذا بالفيلسوف المتمرد فولتير ، يحمل بيده قلماً احدّ من السيف ، ويحمل في عقله عقيدة ، في رأس مبادئها : مقاومة الطغيان دونما هوادة ، لا سيما الطغيان الحكومي والكنسي .

بدأ فولتير حياته الدراسية في مدارس الجزويت . فما عتم حتى انقلب عليهم وعلى السلطات الكنسية كلها ، كما انقلبوا هم عليه ، وجعلوه الهدف الأول – بين رجال الفكر – لاضطهاداتهم .

كانت فلسفة فولتير إلحاديّة على طريقة خاصة تقرب بعض الشيء من فلسفة روسو . كان فولتير كما كان معاصره روسو – على ما بين الاثنين من اختلاف في المزاج – يؤمن بوجود مهندسٍ أكبر للكون . غير ان هذا المهندس الاكبر ، الذي هو مصدر الفضائل الانسانية والمناقبية الخلقية ، ليست له صفة الالوهية ، ولا هو كما تصوّره الديانات الآلهية والمعتقدات الكنسية ، التي كان فولتير يسخر منها ، ولا يهاود في التهكم عليها . كانت إلحادية فولتير إلحاديّة فلسفية لا علمية ، اذ ان العلم ، في العصر الذي عاش فيه (١٦٩٤ – ١٧٧٨) لم يكن قد توصل الى ما توصل اليه في العصر الداروبني والماركسي . على ان إلحادية

فولتير هذه ، وان لم تكن إلحادية مادية بالمعنى الكامل ، لم تمنع السلطات الكنسية من أن ترى فيها تهديداً لها وتهديماً لسلطانها . فاتهمت فولتير بالكفر والزندقة ، ورفضت اعطاءه سر الغفران عند موته (ولا أعتقد ان فولتير قبل موته كان يريد أن يُعطاه بدليل رفضه مقابلة رجل الدين الذي أُتي له به وهو على فراش الموت) كما رفضت السماح بدفنه في مدافنها . فدفنه كاهن من انسبائه في مدفن بعيد في مقاطعة شامبانيا . ولكن كل هذا لم يحل دون نقل رفات الفيلسوف الكبير الى البانتيون عقب الثورة الفرنسية .

غير ان فلسفة فولتير ، على الرغم من توافقها مع فلسفة معاصره روسو بالنظر الى الالوهية ، كانت اكثر واقعية من فلسفة روسو ، واكثر منها صلة بواقع الحياة . فجعلت له شعبية لم يسبق أن احرزها أحد . كان اسمه على كل لسان ، وكانت الجماهير تتزاحم على حيازة مؤلفاته ، كما يتزاحم الجياع على الافران أيام المجاعات . لقد رأى فولتير مجده قبل أن يموت .

كان فولتير في أدبه صريحاً الى حدّ الوقاحة . وكان عنيفاً الى آخر حدود العنف . وكان ساخراً الى آخر حدود السخرية . هاجم الكنيسة بقسوة ، وأعلنها حرباً لا هوادة فيها على التعصب الديني ، وفضح شعوذات رجال الدين ، وتهكّم على الملوك والحكومات الطاغية .. كل ذلك بلغة شعبية صافية حببته الى قلوب العامة ، وجعلته هدفاً للاضطهاد والتشريد .

عاش فولتير اكثر حياته اما سجيناً أو طريداً . سجن مرتين في قلعة الباستيل . وفر مراراً الى انكلترا وسويسرا ، وعاد الى باريس ، واقتحم عضوية الاكاديمية الفرنسية ، وتألق نجمه الى حد انفتحت له بلاطات الملوك ودور محظياتهم . ولكنه ما عتم حتى سئم هذه الحياة ، وغادر فرنسا الى المانيا بدعوة من ملك بروسيا فريدريك الثاني الذي

قدّم له بلاطه ملجأ له . غير أن فولتير المتمرد على الملوك وكل سلطة مستبدة ، والذي كان ينفر من القيود ، حتى قيود المجاملة والتودد ، رأى في حماية فريدريك له ، وفي ما كان يسبغه عليه من النعم ، وفي ما تتركه عليه هذه من المنّة ما تأباه عليه شخصيته النافرة .. تحدياً لعنفوانيته ، وانتقاصاً من كرامته .. ففضّل الانتقال الى سويسرا ، ليعيش طليقاً من كل قيد . وهناك وضع أحسن وأشهر كتبه في النقد والتاريخ ، ورواياته وملحماته الشعرية ، التي خلّدته ككاتب وشاعر وثائر انساني لا يشقّ له غبار . على أن فولتير ما كان يبتعد عن وطنه وشعبه حتى يضطره الحنين اليهما للعودة الى فرنسا كي يموت فيها ويدفن في ترابها .

* * *

ان هؤلاء الاعلام الذين أتينا على ذكرهم ، وعلى شيء من أعمالهم ، هم الذين بذروا بذور الثورة التحررية بعد منتصف القرن الثامن عشر ، في ارض فرنسية لتنطلق الى ما وراء فرنسا . وقد انطلقت بالفعل وكان انطلاقها هائلاً ورائعاً ، وأعطى ثماره الطيبة حيث انطلقت اليه قبل أن تعطي هذه الثمار من حيث انطلقت . مرجع ذلك ، على ما نعتقد ، جبروت الطغيان في فرنسا آنذاك ، وبعد الردّة للبوربونية التي عقبت الثورة . على أنه في كل حال ، يبقى للشعب الفرنسي الفضل الاكبر في اطلاق الفكرة التحررية في جميع أقطار العالم .

* * *

كان الشعب الاميركي – أي شعب الولايات الاميركية المستعمرة من بريطانيا – أول من استجاب لهذه الفكرة المنطلقة من فرنسا . اما لماذا استجاب الشعب الاميركي قبل الشعب الفرنسي الذي أطلقت الفكرة من أرضه ، فنظنه راجعاً الى عاملين : العامل الأول والاهم عامل اقتصادي ومعيشي ، والعامل الثاني وهذا يجيء في الدرجة الثانية ، فهو مستوحى من

العامل الاول ويصح تسميته بالعامل القومي الناشيء .

كان الشعب الاميركي مجموعة مختلطة من شعوب اوروبا ، هاجرت من بلدانها بسبب ضيق المعيشة فيها أو بسبب الاضطهاد الذي كانت تعانيه من استبداد حكوماتها . هذا فضلاً عن قبائل الهنود الحمر القاطنين في اميركا . والشعب الخليط لا تتبلور فيه الذهنية القومية قبل مدة طويلة من الزمن تتفاعل فيها الشعوب المتعددة ، اقتصادياً ونفسانياً واجتماعياً ، فهاجرو اوروبا لم ينسجموا مع الهنود الحمر سكان اميركا الاصليين . وانسجامهم مع بعضهم ما كان له أن يتم في حقبة كانوا فيها مستعمرين أو مستعبدين من قبل دولة كبيرة . لذلك قلنا إن العامل الاقتصادي والمعيشي هو الذي كان العامل الاول والأهم لاستجابة الشعب الاميركي للفكرة التحررية المنطلقة من فرنسا قبل الشعب الفرنسي بالذات . ان الحكومة الفرنسية آنذاك كان لديها من وسائل البطش والتنكيل في بلادها ما يساعدها على ضرب الحركات التحررية . وكانت الدول الاوروبية كلها تساعدها على ذلك . أما الشعب الاميركي فكانت له فرصة أسنح، اذ ان حكامه ومستعمريه كانوا بعيدين عنه الى الجانب الآخر من العالم. وما كان في طاقة حكومة بريطانيا أن تضع من وسائل البطش في مستعمرة تبعد عنها آلاف الاميال . فكانت بريطانيا والحالة هذه تعتمد طرق الاستثمار والضغط الاقتصادي اكثر مما تعتمد الضغط العسكري .

كانت حكومة جورج الثالث ورئيس وزارته « بت » تجور على شعب المستعمرة الاميركية وترهقها بالضرائب ، دون سؤال ولا جواب، من أجل انتشال اقتصاديات بريطانيا المنهارة وقتئذ بسبب حروبها مع فرنسا واسبانيا .

كانت اوروبا ومنها انكلترا تصدّر الزنوج من افريقيا الى اميركا من قبيل المتاجرة بالرّق . وكان الانكليز يحملون هؤلاء الزنوج على مراكبهم الى اميركا ليشغلوهم إما بالزراعة واما بالسخرة أو باجور زهيدة لا يقبل

بها غيرهم . وكانت البقاع الجنوبية من اميركا موضع استيطان الزنوج لحاجتها الى الايدي العاملة في الزراعة أكثر من البقاع الشمالية . كانت بريطانيا تستثمر هذه الايدي العاملة الرخيصة لتربح هي من انتاجها .على ان ذلك وحده لم يكن كافياً ، فأرهقت الشعب الاصلي والمهاجر والمستورد بالضرائب . وبلغت نقمة الشعب الاميركي على انكلترا أوجها عندما حاولت انكلترا إجبار الاميركيين على استهلاك شاي شركة الهند الشرقية وهي شركة انكليزية باسم هندي . وعندما اراد الشعب الاميركي أن يقاطع شاي شركة الهند الشرقية حفاظاً على اسباب معيشتهم وقذفوا باحدى الشاحنات الى البحر ، تحوّلت حرب المقاطعة السلمية الى حرب فعليّة بين الشعب الاميركي المستعبَد والدولة البريطانية المستعبدة .

كان الاستعمار كما هو دائماً وسيلة لنهب الثروات من الشعوب المطموع باستثمارها وافقارها .

كانت الحرب بين بريطانيا واميركا اذن حرباً استعمارية من جانب بريطانيا ، وكانت ثورة تحررية من جانب اميركا . وكانت ثورة الشعب الاميركي انطلاقاً من ثورة الشعب الفرنسي وتكملة لها .

وما كاد الشعب الاميركي يتحرك في انتفاضته الثورية ضد بريطانيا ، حتى انطلق الشعور المكبوت في الشعب الفرنسي . وهرع أحرار من فرنسا ، متشبعون بالفكرة التحرٰرية من جهة ، ومتشبعون بالحقد على بريطانيا من جهة ثانية ، ليس بسبب منافسة بريطانيا لفرنسا وانتزاعها المستعمرات الفرنسية في لميركا وحسب ، بل لوقوفها سراً وجهراً ، ضد الموجة التحررية التي كانت قد بدأت تجتاح الشعب الفرنسي كله .

كان مشهوراً عن الجنرال الفرنسي « لافاييت » اعتناقه مبادىء الثورة الفرنسية . فاذا ما تأخرت هذه المبادىء عن أن تفعل فعلها في بلاده ، فماذا يمنعه من التجند لها في ايما بلاد اخرى ؟ ان انتصار

الحرية في بلدٍ ما ، يسهّل انتصارها في كل بلدٍ يتوق اليها شعبه . بهذه الفكرة تطوّع الجنرال لافاييت الذهاب الى اميركا والاشتراك في حملة جورج واشنطن على رأس فرقة من الجيش الفرنسي . وأبلى في الثورة الاميركية البلاء الحسن ، وأظهر حقيقة الشعب الفرنسي . وما زال اسم الجنرال لافاييت ، على الرغم مما لحقه من شوائب في بلاده بعد ذلك ، مقترناً بالثورة الاميركية . لقد اسهم الجنرال لافاييت في نجاح الثورة الاميركية عسكرياً ، كما أسهم « توم بين » في نجاحها فكرياً وشعبياً .

وفي شهر تموز عام ١٧٧٦ انتصرت الحرية في اميركا بعد نضال عنيف استمر ست سنوات . وانكفأت بريطانيا عن استعمارها لاميركا . وأصدر الكونغرس الاميركي وثيقة استقلال الولايات المتحدة ، وتأليف حكومة وطنية ديموقراطية . كان ذلك في الرابع من تموز عام ١٧٧٦ ، وهو اليوم التاريخي الذي يعيّده الاميركان كل سنة .

وليس أدلّ على تطور الثورة الفكرية في ذلك العصر ، من تلك الوثيقة التي وضعها « توماس جيفرسون » وهو قابع في مكتبه في احد فنادق فيلادلفيا ، وأقرّها بالاجماع الكونغرس الاميركي ، جاعلاً منها دستور الولايات المتحدة . وهي الوثيقة التي ما زالت تحمل اسم واضعها جيفرسون ، ثالث رؤساء الولايات المتحدة الاميركية . انها أهم وأشرف ما ابدعته الفكرة الانسانية الخلّاقة . حبذا لو يتبعها خلفاء جيفرسون الحاليون، كي لا يكون ادعاؤهم بأن اميركا بلاد الحريات مشكوكاً فيه . هذا ما تقوله وثيقة جيفرسون :

« إننا نعدّ الحقائق الآتية من البديهيات : خلق الناس جميعاً متساوين . وقد منحهم الخالق حقوقاً خاصة لا تنتزع . . منها الحياة والحرية ، والسعي لنيل السعادة . ولتأمين هذه الحقوق تكونت من الناس حكومات ؛

تستمد سلطانها العادل من رضى الشعب المحكوم. فاذا قامت أية حكومة لتقضي على هذه الغايات ، أصبح من حق الشعب ان يستبدلها ، او ان يلغيها ، وان يقيم مكانها حكومة جديدة تعتمد على اسس المبادىء والانظمة التي يراها اجدى وأصلح في صون سلامته وسعادته » .

كان « وليم بت » رئيس حكومة بريطانيا آنذاك. وكان بت هذا اكثر من اشتهر بالجور على المستعمرة البريطانية في اميركا . كان هو عود الثقاب الذي أشعل الثورة الاميركية . على انه لم يتمالك – في دهائه التراجعي – ان يقول في دستور جفرسون : « ان هذا الدستور سيكون نموذجاً لجميع دساتير المستقبل ، وموضع إعجاب الاجيال القادمة كافةً » .

لقد خاضت اميركا معركة الاستقلال وكسبتها ، وانتزعت قيادتها من جورج الثالث البريطاني ، وأحلّت محله بطلها الاميركي جورج واشنطن ، وشيدت على بابها الغربي نصباً شاهقاً ، رمزاً للحرية ، قبل ان يكون شعب اميركا قد خاض معركة الحرية ، وقبل ان تكون حكومات الولايات التي استقلت قد أدركت وآمنت ، ان الحرية حق لشعبها كله ، وليس لبيضه فقط . اذ ان الزنوج من شعب اميركا الذي دفع من دمائه ثمناً للاستقلال لم ينالوا من الغنيمة غير « اللنشنغ » والانتقال من عبوديتهم للمستعمر البريطاني، الى عبوديتهم لمواطنيهم الاميركيين البيض.

وكان ان أطلّ على البيت الابيض الرئيس ابراهيم لنكولن ، فشاء ان يمحو عار الرق عن بلاده ، وتزعّم حرب التحرير عام ١٨٦٠ ، وعلى الرغم من انتصاره العسكري في هذه الحرب ، وعلى الرغم من ان الرق قد ألغي بقرار دستوري ، ما زال زنوج اميركا حتى اليوم ، يرسفون في عبوديتهم ، وسيف «اللنشنغ» فوق رقابهم ، ويرددون – في سرّهم بالطبع – ما قاله الكاتب الفرنسي « هنري باربوس » عندما وقف امام

تمثال الحرية: « .. لو سُمح لنا بتطبيق كلمة «قانون » على طريقة قطّاع الطرق التي تنبض بالعار وترجعنا الى العصور الوسطى ، فاننا لا نجد هنا سوى مشكلة الزنوج والفزع والرعب وقسوة « اللنشنغ » ووحشيته .. ان هذا التمثال هو كفر وعار » .

لقد كسب جورج وشنطن معركة الاستقلال العسكرية ، فاستقلت اميركا . وكسب ابراهيم لنكولن معركة الحرية العسكرية ، وبقيت الحرية حتى الآن تائهة في سماء اميركا ، لا تعرف ان تستقر ، ولا تعرف كيف تستقرّ ، ولا تعرف على من تستقر .

ان معركة الحرية تحتاج الى نضال أشدّ واعم من معركة الاستقلال .

لقد استقلت اميركا عن بريطانيا من حوالي مائة عام . وخطت خطوات جبارة في الانعاش الاقتصادي والعمراني ، وعكفت على تنمية صناعاتها واقتصادياتها . واجتازت سياسة العزلة عن اوروبا حتى القرن العشرين . وبقيت امينة لمبدأ «منرو» احد رؤساء الجمهورية الاميركية . واقتنعت بالسيطرة الاقتصادية على دول اميركا اللاتينية، التي ما زالت حتى الآن مستعمَرة من الولايات المتحدة اقتصادياً ومكتفية باستقلالات سياسية مزيفة . وجعلت تقنع العالم انها ليست دولة استعمارية ، كما هي بريطانيا وفرنسا وسائر الدول الاوروبية الغربية . كانت اميركا تعزف عن التدخل السياسي في الدول الاخرى . ولكنها كانت وما تزال ، تحاول السيطرة عليها اقتصادياً . فالشعب الاميركي بكونه خليطاً من مهاجرين اوروبيين ، تتغلب فيه الذهنية الاقتصادية والتجارية على الذهنية السياسية والقومية . هذه الذهنية جعلته يفضّل الاستعمار الاقتصادي على الاستعمار السياسي والعسكري . اذ ان الاستعمار الاقتصادي يدرّ عليه كسباً أكبر بتكاليف أقل من الاستعمار العسكري ، فضلاً عن ان المستعمر يستطيع تغليف حقيقته بمظاهر تشويقيّة وتعامليّة ، واحياناً

إحسانية ، لا تحفل منها الشعوب المستعمَرة المتخلفة . ان الدول الاستعمارية الاوروبية مشت الى مستعمراتها وبيدها السيف والمدفع . ولكن امــيركا مشت في استعمارها وبيدها الدولار والرساميل الاميركية ، وهي لا تحمل بيدها السيف والمدفع إلا عندما تجد انه لا بـــدّ من ان تستعين بالقوة العسكرية لخلق ثورات في البلدان الطامعة بها ، مع الحكم القائم او ضد الحكم القائم ، كما فعلت في حربها مع اسبانيا ، بسبب جزيرة كوبا عام ١٨٩٨ تلك الحرب التي أدت الى انتزاع كوبا وجزر الفيلبين من اسبانيا .

كان لاميركا الدور الفعّال في تحويل الاستعمار من استعمار سياسي الى استعمار اقتصادي ، الذي هو شر أكبر .

١٧ . الثورة الفرنسية

•

لا شك بأن الثورة الاميركية أيقظت الشعوب المظلومة من غفوتها ، كما أهابت بالحكومات الى الحذر من انتفاضات الشعوب ضد الظلم والعبودية . ولكن لم يكن للثورة الاميركية ذلك التأثير العالمي الواسع ، ولم تستطع الفكرة الاميركية غزو الاقطار البعيدة عنها . اما سبب ذلك فيعود – على ما نعتقد – الى عوامل عدّة نذكر منها العوامل التالية :

اولاً : الأبعاد الشاسعة بين اميركا – وقد اصبح اسمها العالم الجديد – وبين غيرها من الاقطار ، وهو ما يسمّى بالعالم القديم ، مما يجعل التخالط بين العالمين أمراً صعباً . ان الدنيا في ذلك العصر لم تكن دنيا سرعة وإذاعات وطائرات وذرّة . حتّى الأسفار البخارية لم تكن قد توفّرت لها بعد كل الوسائل التكنيكية والعلمية . فلا الاوروبي كان يعرف كثيراً عن الاميركي ، ولا الآسيوي كان يسمع كثيراً بما يجري في خارج محيطه . كان العالم منقسماً ، ليس الى عالمين فقط ، عالم جديد وعالم قديم ، بل الى عوالم متعدّدة ، متقاطعة ومتباعدة . فكان طبيعياً والحالة هذه ، ان تعوق الحدود والسدود والأبعاد بين البلدان ، تمازج الآراء ، وتفاعل الافكار ، بين مختلف شعوب هذه البلدان .

ثانياً : ان سكان اميركا لم يكن لهم قبل الاستقلال قومية واحدة ،

ولا تاريخ مشترك ، كما انه لم يكن لهم تراث ثقافي وفكري ، يصح اعتماده شعلة يستنيرون بها وينيرون . كان سكان امير كا خليطـاً من شعوب مختلفة ، لا تربط بينهم رابطة قومية وثقافية واحـدة . كان منهم ، كما سبق وقلنا ، الهنود الاصليون ، وكان منهم المهاجرون من مختلف البلدان الاوروبية وغير الاوروبية .. مذاهبهم مختلفة .. وتقاليدهم مختلفة .. وانماط معيشتهم مختلفة . وشعبٌ هذه حالته ، لا يُعقل ان يكون له تأثير في ماجريات الشعوب الأخرى .

ثالثاً : ان اكثر ما كان يحرص عليه الامير كيون ، عـدم تدخل أوروبا بشؤونهم . ولذلك فضّلوا العزلة في عالمهم الجديد . وجاء رئيسهم الخامس « مونرو » بمذهبه الانعزالي المعروف باسمه ، وهو يقضي بعزل العالم القديم عن العالم الجديد ، وعدم السماح للسلطات الاوروبية ، بأيّ تدخل في امير كا . وهذا يعني — ولو لم يذكر في صلب المـذهب المذكور — امتناع امير كا عن التدخل في شؤون غيرهـا . وقد بقي مذهب مونرو معمولاً به الى حـين قضى عليه الرئيس « فرنكلين روزفلت » اثناء الحرب العالمية الثانية . هذا مع العلم ان الرئيس «ولسن» كان أراد ان يقضي على مذهب « مونرو » اثناء الحرب العالمية الأولى حين أدخل الولايات المتحدة في الحرب الى جانب الحلفاء . ولكن ما ان انتهت تلك الحرب حتّى قام الكونغرس الامير كي عـلى الرئيس ، وأعاد مفعول مذهب مونرو — ولو جزئياً — وكان ذلك سبب انهيار نفوذ ولسن ، وانهيار صحته ايضاً ، واستعجال اجله .

هذه العوامل الثلاثة هي أهمّ العقبات الـتي حالت دون ان يكون للثورة التحررية الاميركية تأثير عملي ومحسوس في الحركات التحررية العالمية .

* * *

ولكن ما قصّرت في القيام به الثورة الامـيركية ، قامت به الثورة

الفرنسية ، اذ ان فرنسا كانت في ذلك الحين حجر الرحى في دولاب السياسة الاوروبية والعالمية .

كانت الفكرة الثورية قد اختمرت في الشعب الفرنسي . وتبين ان ما زرعه فولتير وروسو وديدرو ومونتسكيو ، لم يكن عبثاً . وجاء موسم قطاف ثمار هذا الزرع . وكان موسم القطاف هذا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر .

وبعد الثورة الفكرية التي أجّجها في الشعب الفرنسي ادباؤه الأحرار ، نضجت فيه اسباب الثورة العملية المسلحة . وقد ساعد في هذا النضوج طغيان البلاط وحاشيته ، وارهاق الشعب بالمكوس والضرائب ، وإسراف الملكة ماري انطوانيت وفحشها ، التي كان يكرهها الشعب الفرنسي ، لكونها نمساوية وابنة امبراطور النمسا . كل هذه العوامل ساعدت في اشعال الثورة الفرنسية . وما كانت فضيلة الملك لويس السادس عشر وتقواه وبساطته ، ولا كان قبوله ببعض المطالب الدستورية ، ليعطي الشعب ضمانة كافية تردعه عن القيام بثورة جذرية لاقتلاع مفاسد البلاط ومفاسد الحكم .

يحدّد التاريخ الثورة الفرنسية بعام ١٧٨٩ ، ويعيّد الفرنسيون في الرابع عشر من شهر تموز كل سنة ابتهاجاً بذلك التاريخ ، يوم هاجم الشعب الفرنسي قلعة الباستيل ، رمز الطغيان الملكي ومعتقل الأحرار .

غير ان هذا اليوم كان بداية تكريس نجاحات الثورة الحاسمة ، إذ ان الثورة كانت متأججة في الشعب قبل ذلك بكثير . وقد رأينا في الفصل السابق ما قام به رسل الثورة والتحرر الفكري ، لتهيئة العدّة لهذا اليوم الخطير .

صحيح ان الثورة اشتعلت في عهد الملك لويس السادس عشر ، غير ان عهد سلفه الملك لويس الخامس عشر هو الذي خمّرها وكان له

فضل كبير في تثبيت مهيئاتها .

غير ان الثورة الفرنسية دامت اكثر من ثلاث سنوات ، كانت فرنسا في اثنائها ، تتخبط في فوضى لا حدّ لها ، بين خمسة وعشرين مليون جائع ، وبين حفنة من الخاصة الارستقراطية يرأسها الملك ، ويتآمر معها على الشعب الثائر . بينما كانت الملكية في اوروبا تساند المتآمرين وأخصهم الملكية النمساوية ، عرابة الملكية الفرنسية ، عن طريق مصاهرة لويس السادس عشر للبلاط النمساوي .

* * *

كان لويس الخامس عشر ملكاً مستهتراً ومعشاقاً . وقد طغى عليه سلطان الحب ، فانقاد الى عشيقته الاولى مدام بومبادور ، ثم الى عشيقته الثانية مدام دي باري . وسلّم قيادة الدولة الى وزراء من اخصاء هذه وتلك ، فأمعنوا في تفسيخ ادارة الدولة والحكم . وقد انصرف لويس الخامس عشر الى حياة اللهو والمرح ، متغاضياً في لهوه عن الخطر المدبّر على ملكه ونظامه من قبل الحركات المناوئة للنظام الملكي . وكان يظهر بين الفينة والفينة كتب ونشرات ، تقدمية وانتقادية جارحة ، سواء للادارة الحكومية ، ام للسلطة الكنسية المالكة سعيداً . وكان تغاضيه هذا سبباً لغضب رجال الدين عليه ، ولا سيما الجزويت منهم ، لما كان ينالهم منه من اضطهاد ، متجاهلاً ان هؤلاء هم ركن الملكية الفرنسية . كان لويس الخامس عشر – عن غير قصد – عنصراً من عناصر استعجال الثورة .

وعندما اعتلى العرش خلفه لويس السادس عشر ، تنفس الرجعيون والملكيون والاكليروس الصعداء . وخيل لهؤلاء ان الملك الجديد ، البسيط جداً في عقله وادراكه ، والمؤمن جداً بألوهية السلطة الكنسية ، والورع الى اكثر حدود الورع ، والتقيّ حتى حدود البلاهة . . خيّل لهم ان هذه الفضائل في المليك الجديد ، تكفل للملكية الفرنسية عهداً

من الاستقرار ، قائماً على تدعيم النظام الملكي من جهة ، وتحذير الشعب من جهة اخرى . وإذ رأى هذا الملك ، او إذ رأت بطانتـه ، النار تحت الرماد ، عمدت الى جميع وسائل المساومة والتهدئة . فدعا لويس السادس عشر الى انتخاب مجلسٍ تمثيلي ، متظاهراً برغبتـه في تحقيق مطالب الشعب .

غير ان لويس السادس عشر ، الـذي تنزه عن الوقوع في قبضة المحظيات ، وقع في قبضة أشد وأدهى ، هي قبضة زوجتـه ماري انطوانيت . ولم تكن هذه أقل تفسخاً من هؤلاء،ولا اقل منهن استهتاراً واحتقاراً للشعب .

كانت ماري انطوانيت اميرة نمساوية ، وكانت تتطلع وتعمل لعظمة ملك أبيها اكثر من عظمة فرنسا . وقيل – والعهدة عـلى من كانوا يقولون – انها كانت جاسوسة لابيها في البلاط الفرنسي . وكانت ماري انطوانيت جميلة جداً ، وفاتنة جداً ، ومبذرة جداً ، ومتعنجهة جداً . وكان الشعب الفرنسي يكرهها كرهاً عظيماً .. اولاً لكونها غريبة عنه.. وثانياً ، لأنها ارهقت البلاد بالضرائب الـتي كانت تجبيها الخزينة لسدّ نفقات البلاط . وفضلاً عن ذلك ، كانت تبذل كل ما لديها من نفوذ على زوجها ، لمقاومة النهضة الشعبية .

كانت ماري انطوانيت – بمعاونة بطانتها – وراء كل حركة رجعية . وإذ ساءها قيام مجلس تمثيلي وتأسيسي ، عمدت الى التآمر مع اعـداء الثورة في داخل فرنسا وخارجها ، ونجحت في إقناع زوجها بإلغائه ، فأصدر أمره الملكي بذلك . على ان الرسول الذي حمل مرسوم الحـلّ طُرد من القاعة ، عندما صاح فيه ميرابو احد الاعضاء وخطيب الثورة: « اذهب وقل لمليكك اننا هنا باسم الشعب الفرنسي ، ولن نخرج من هنا إلا على رؤوس الحراب » .

لم يكن « ميرابو » ثورياً بالمعنى الصحيح ، حتى انه لم يـكن جمهوريـاً ، بل كان من طبقة الاشراف . وعندما خـذله هؤلاء في ترشيحه لمجلسهم ، تقدم عن الطبقة الثالثة وتمكن من ان يكون ممثلاً عنها . كان ميرابو خطيباً ومتشرعاً ، فاستطاع اقنـاع الطبقة الثالثة بإخلاصه لها . لقد اراد ان يكون النظام الفرنسي نظاماً ملكياً دستورياً لا جمهورياً . وقد اتهم فيما بعد بالازدواجية في نظرته الثورية ، وكان من جراء ما اكتشف عنه من وثائق تشير الى اتصالاته مع الملكة والملك أن نبش جثمانه من البانتيون وحطمت تماثيله اذ اعتبرته الثورة خائناً لها .

كانت الاحزاب القائمة بالثورة متعدّدة ومختلفة الاهـداف . كان هناك حزب الاحرار المعتدلين الذي كان يطالب بحكومة ملكية دستورية على رأسها لويس السادس عشر نفسه ، على ان يكون محدود السلطات. وكان هناك حزب الجمهوريين المعتدلين (الجيرونديين) . وكان هناك حزب الجمهوريين المتطرفين (اليعقوبيين) وكان هناك احزاب اخرى إما فوضوية وإما شخصية وكتلوية لا تعرف ما تريد . وكانت هناك الجماهير العامة الفرنسية ولا سيما الباريسية الرعـاعية الجائعة التي كانت تطالب بحق العيش ولا يهمها من امر السياسة والحـكم شيئاً .

كان حزب الاحرار المعتدلين ، بزعامة ميرابو ، اقوى الاحزاب في بداية الامر ، فصادر املاك الكنيسة . وألغى محاكم الاقطاع واقام محلها محاكم مدنية صالحة بعض الشيء . وأجبر الملك عـلى توقيع قراراته بعد ان كان رفض القبول به كما سبق وقلنا . عـلى ان العوام الفقراء بقوا فقراء . والثورة من اجل الخبز بقيت تتأجّج في الصدور . واكتفى مجلس الأمة بارضاء الطبقة الوسطى . وشعرت هذه الطبقة بأنها حققت أهدافها . وحاولت ان توقف الثورة عند هذا الحدّ . وتواطأت مـع الملك على ايقافها عند هذا الحد . ومنذ ان صار المجتمع مجتمع طبقات أخذت هذه الطبقات تتنازع على السلطة من اجل مصلحتها الطبقية دونما

التفات الى مصلحة غيرها . غير ان الطبقة الرعاعية الفرنسية العامة بقيت على هياجها كما كانت من قبل . فالتفت حول بلدية باريس ، وتحدت مجلس الأمة الواقع تحت سيطرة الطبقة الوسطى ، وتنكرت للزعيم ميرابو الذي كان معبودها في بداية الثورة . ومات ميرابو عام ١٧٩١ على النحو الذي ذكرناه من قبل .

كانت السنتان بين ١٧٨٩ و ١٧٩١ ، سنتي فوضى وارهاب ، بلغت فيهما الضحايا عدداً هائلاً ، وظهرت اثناءهما قوة جديدة هي بلدية باريس المعروفة بـ « الكومونه » ورفعت هذه القوة العلم الاحمر لأول مرّة . وطغت على كل قوة غيرها . واعتقلت الملك وأودعته السجن بعد ان كان قد عاد الى العرش اثر محاولة فراره الفاشلة . وأُعدمت العائلة الملكيّة كلها . وتخلصت من الملكيّة ودسائسها بعد ان كان الموت قد خلّصها من ميرابو . وانطلقت موجة من الارهاب لم يسبق لها مثيل . ووقعت في هذه الحقبة مجزرة سبتمبر التاريخية . وقامت الجمعية الوطنية باعلان الجمهورية . وأصبحت القوة الفاعلة كومونه باريس . وبرز الى الحلبة بطلا الثورة الفرنسية « دانتون » و « روبسبيير » من صفوف الطبقة الثالثة . وانشىء مجلس سمي مجلس الثورة . وكان دانتون وروبسبيير من ابرز اعضائه .

* * *

كان دانتون شخصاً لامعاً ومحامياً ساحراً . خاض غمار الثورة من بدايتها ، وكان اول من هاجموا الملك وطالبوا بخلعه . وانتخب عضواً في مجلس الثورة الاعلى ، فما عتّم ان اصبح زعيم هذا المجلس . وعين وزيراً للعدلية وقام بدور هام في مجزرة ايلول التاريخية . كان دانتون رجلاً صلباً جداً وشجاعاً جداً . وكانت حكمته تتلخص في عبارته المشهوره : « الجرأة .. ايضاً الجرأة .. الجرأة دائماً » .

ولكن دانتون .. هذا الرجل الذي رافق الثورة من بدايتها ، وكان

روحها ، فتكت به الثورة نفسها ، بل فتكت به فوضوية الثورة عندما أخذ الخلاف يدب بين زعمائها . وكان روبسبير – الرفيق الأقرب لدانتون – هو الذي قضى عليه ، اذ اتّهمه بالخيانة (يا لفظاعة التهمة). فحوكم دانتون وقطعت المقصلة رأسه . على ان الجرأة لم تخن دانتون لا أثناء المحاكمة ، ولا قبل الموت . فعندما كان القاضي « فوكيه » يستجوبه عن اسمه ومحل اقامته اجابه دانتون : « اسمي دانتون وتعرفه الثورة كل المعرفة . أما إقامتي فهي الآن هنا ولكن غداً ستكون في البانتيون » . وعندما صعد الى المقصلة تطلع الى جزاره وقال له « احرص ان تعرض رأسي على الشعب اذ انه رأس يستحق العرض » .

* * *

وكان روبسبير ايضاً محامياً . وكان جمهورياً متطرفاً الى آخر حدود التطرف . وكان زعيم اليعقوبيين . واذ تبوأ مركزه في مجلس الثورة عمد الى تطبيق معتقده الثوري على الاساس الاشتراكي . وكان يقاوم بضراوة الارهابيين كي لا يكون الارهاب سبباً للتدخل الاجنبي . ولكن ما كان يقاومه في غيره ، كان يجيزه لنفسه .

كان روبسبير يدين بنظرية « روسو » في الكائن الاعلى الذي يجب ان يكون في يده السلطة الثورية العليا . كان يهدف الى إقامة نظام اشتراكي واجتماعي . وكان يحلم بان يكون هو ديكتاتور الثورة . فأثار حقد مجلس الثورة عليه واعتقله .. وحاكمه .. وأرسله الى المقصلة . فدفع رأسه ثمناً لخيانة رفيقه العظيم دانتون .

* * *

كانت الثورة في الثلاث سنوات التي مرت على هدم الباستيل في حالة فوضى هائجة . وكانت مطامع زعمائها لا يحدّها حدّ ، ولا تتورّع عن أفظع الجرائم والاجراءات . وكانت الرؤوس تتدحرج لسبب او لغير سبب . كان الهوس يدير الثورة . وكانت الاطماع تتغلب على

الوعي . وكان الناس في قلق ما بعده قلق . كانت الثورة تنتحر . وكان ذلك تمهيداً لقلب الثورة من ثورة شعبية قامت على يد الطبقة العامة الى ثورة بورجوازية ، استغلتها الطبقة الفرنسية البورجوازية . وكان ختام المطاف قيام الحكم الديكتاتوري المثلث « ديراكتوار » الذي انتهى بدوره الى مجيء نابوليون بونابرت الى قمة الحكم .

* * *

مما لا شك فيه ان الثورة الفرنسية ، كانت العامل الاكبر في بعث جذوة الحرية في الشعوب . وبالرغم مما تخلّلها من فوضى وملاحم ، وما رافقها من شذوذ ، وبالرغم من ردّات الملكية والرجعية ، مما جعل فرنسا شعلة من النار ، وبالرغم من تآمر الدول الغربية ضدّها ، فان الجذوة ما لبثت حتّى انطلقت من مقرّها في قلب اوروبا ، وأشعلت هشياً مكدّساً في أقطار المعمورة قاطبة ، وبذرت بذور الثورات التحررية في مختلف البلدان ، كل على قدر قابليته ومهيئاته .

* * *

كانت الثورة الفرنسية موضوعاً لمئات من الكتب التاريخية والأدبية والملاحم الشعرية . من المؤرخين من أنصفوها ، كما ان منهم من أصدر عليها أحكاماً جائرة . ولعلّ أعنف الناقدين كان الكاتب الانكليزي « كارليل » . كان كارليل فيلسوفاً انكليزياً مثالياً . ولربما تكون مثاليته ، مضافاً اليها موقف انكلترا العدائي للثورة الفرنسية ؛ هو ما دفعه الى اتخاذ موقفه هذا منها ومن قادتها الذين نسب اليهم كارليل أبشع الجرائم ، وحرمهم من ايما فضل على النشاط التحرري الانساني .

من الخطأ الحكم على الاحداث اثناء وقوعها ، او بعد وقوعها بزمن قصير . قد يجوز في هذه الفترة تسجيل وقوعاتها كما فعل « تيارس » مثلاً ، ولكن ما لا يجوز ، هو تقدير أهميتها او عدم أهميتها ، وما كان لها من أثر في تطوّر الحياة الاجتماعية والسياسية ، قبل ان يتحرّر

الكاتب او الفيلسوف من تأثير هذه الوقوعات عليه وعلى تفكيره . ولهذا نرى ان الكتاب الذين كتبوا عن الثورة الفرنسية بعد مضي خمسين سنة او اكثر على اشتعالها ، والذين يكتبون عنها اليوم ، ينصفونها اكثر مما انصفها الكتاب الذين عاصروها .

* * *

لنعد قليلا الى الوراء لنرى ماذا حققت الثورة الفرنسية في مجـال التطور الانساني . ان الوثيقة التي اقرّها المجلس الوطني الفرنسي تجيب على ذلك . واذا كان من يقول ان هذه الوثيقة لم تكن اكثر من حبر على ورق ، وان الذين وضعوها ، والذين وضعت لهم ، تنكروا وما زال خلفاؤهم يتنكرون لمبادئها المسجلة ، فهذا لم يمنع من ان تكون هذه المبادىء – وقد برهنت بالفعـل – على انها كانت الشرارة الاولى في انتفاضة الشعوب المظلومة على ظالميها ، مما جعل من هذه الوثيقة نقطة الانطلاق لكل وثيقة تحررية . يكفي ان نذكر من موادها السبع عشرة الفقرات التالية ..

« الامة وحدها مصدر السلطات » (بهذا قضي على حق الملوك الالهي)

« الناس يولدون احراراً ، ويبقون احراراً ومتساوين في الحقوق ، ولن تكون فروق اجتماعية بين الافراد ، الا بحسب ما يأتيه اولئك من النفع العام » (وبهذا قضي على حق التفوق العنصري واللوني والطبقي) .

« لا يجرّم ولا يوقف مواطن الاّ بموجب القانون ، وكل من يقدم على تجريم او توقيف مواطن بدون قانـون يقع تحت طائلة العقاب » (وبهذا قضي على شرعية الطغيان في الاحكام والمحاكمات) .

« كل انسان بريء الى ان يثبت القانون ادانته » (وبهذا قضي على اعتباطية الاعتقـال والنفي والتشريد ، وهو ما يسميّه الطغاة اجراءات ادارية يقتضيها امن الدولة او الأمن العام او ما شاكل ذلك من المبرّرات الخنفشارية) .

« كل انسان حرّ بفكره ومعتقده الديني ما دامت حريته لا يشكل اعلانها خطراً على الغير ومعتقــده » (وهذا يعني انه ليس للحكام ان يستّروا اضطهادهم لاهل الفكر بحجّة انهم يبثون افكاراً الحادية او هدّامة ؛ وما الى ذلك من مبتكرات اخيلتهم) .

« حرية الكلام والكتابة والخطابة والاجتماعات مضمونة بموجب الدستور » (لو احترمت الحكومات هذه المادة التي لا يخلو منها دستور واحد من الدساتير الديموقراطية ، لما كان احرار القول والفكر يزجّون في المعتقلات كما هو الحال الآن في الدول التي تدّعي انها تقدّس مبـادىء الثورة الفرنسية والتي تسمّي نفسها نفاقاً دول العالم الحرّ) .

« الضرائب توزع بالنسبة لمقــدرة المكلفين . وهي توضع وتجبى ، بموجب قانون لخدمـــة المصلحة العامة ؛ ولا تدفع ضريبة الا اذا اقرّها ممثلو الأمة » (لو احسن تطبيق هذه المادة لما وضعت على الشعوب ضرائب غير مبـــاشرة يتساوى فيها الغني مع الفقير ، وترهق الفقير ولا ترهق الغني ، وتثير حفيظة الفقراء على الاغنياء) .

« الملكيّة الفردية مقدسة ولا يجوز انتزاعها الا اذا قضت المصلحة العامة ؛ وذلك لقاء تعويضات عادلة » (ان في هـــذه المادة شيئاً من اللبس بما يتعلق في تفسير الملكيّة الفردية ، وتفسير المصلحة العامة ، وفي من يحدد هذه وتلك . وهذا اللبس يعود الى كون الثورة الفرنسية التي بدأت ثورة عمالية بنضال الطبقة الثالثـــة العامة ، ما لبثت حتّى أخذت نهج ثورة ديموقراطية بورجوازية ، ثورة ديموقراطية اشتراكية).

* * *

ومهما كان من امر بعض الملابسات التفسيرية في دستور الثـــورة الفرنسية ، فمجرد وضع هذه الوثيقة لدليل على التطور الفكري في النصف الثاني من القرن الثـــاني عشر ، واذا كانت الثورة الفرنسية قد عجزت عن احداث انقلاب عالمي ثابت الاركان ، فمرجع ذلك الى المقاومة

العنيفة التي صادفتهـا من قبل الرجعية الاوربية ، ومن رجال الدين ، وبلاطات الملوك ، واعداء التحرر الشعبي .. هذا من جهة .. ومن جهة ثانية كان سبب هـذا الاخفاق ، ان الثورة الفرنسية لم تكن مبنية على اسس علميّة ، وفلسفة اقتصادية ومعيشية شاملة ، وانما كانت وليدة للفوران الشعبي الصرف ، الذي دفع اليه استبداد الطبقة الحاكمة ؛ وارهاقها عامة الشعب بالضرائب وباسباب الفقر والعوز . كانت الثورة فورة غيظ الواقع الحياتي ، ولم تكن فورة غيظ الحقيقة الحياتية .

* * *

كان طبيعياً ان تنحرف الثورة الفرنسيّة عن مبادئها ، وان لا تبلغ للغاية التي نشدها منها الشعب الفرنسي ونشدتها معه شعوب العالم كلها ، اذا اخذنا بعين الاعتبار العاملين اللذين ذكرناهما اعلاه .. اي مقـاومة الرجعية الاوروبية لها .. وارتكازها على فورة غيظ الواقع الحياتي ، لا على فورة غيظ الحقيقة الحياتية . ولذلك ، ما كاد الغليان الشعبي يهدأ قليلاً ، حتى برزت الى المقدمة ، طبقة بورجوازية ، واخذت بيدها السلطة ، وابقت على الدستور المكتوب ، وجعلت تحاول تفسيره وتطبيقه ، على ما يلائمهـا هي ، اكثر مما يلائم الطبقة الثالثة ، التي كتبت الدستور بدمائها ، بينما كانت الطبقة الثانية البورجوازية مختفية او منتظرة ما تجيء به الايام . واذا كان من غير الانصاف ان ينكر على الطبقة البورجوازية ، معاملتها الأقل قسوة واكثر عطفاً على الطبقة الشعبية الثالثة من معـاملة الطبقة الارستوقراطية الاولى ، فليس من يسفه نكران وجود عوامل الأثرة والفساد والطمع في هضم حقوق الطبقة الثالثة ، في معظم ما سنته الطبقة البورجوازية من قوانين ، أو ما كانت تتخذه من اجراءات لا تتلاءم مع روح مبادىء الثورة ، حتى ولا مع نصوصها .

* * *

بينما كانت فرنسا تتخبط في اعظم فوضى ، وبينما كانت الرجعيـة

الاوروبية تنشط في مقاومتها مبادىء الثورة التحررية ، وبينما كان عملاء الرجعية الاوروبية من الفرنسيين بالذات ، يضعون انفسهم في خدمة الدول الاوروبية المعادية للثورة وعلى رأس هذه الدول بريطانيا ، وبينما كانت السلطة تنتقل من يد ديكتاتورية فردية الى ديكتاتورية ثلاثية (ديراكتوار) ، وبينما كانت فرنسا تعاني غزوات الجيوش الاوروبية عليها .. برز ضابط شاب ، كورسيكي المولد ، وفرنسي الجنسية ، ودخل في صفوف زعماء الثورة ، وتوصل بعد انتصاراته العسكرية في طولون ، الى ان يعين احد « الديراكتوار » الثلاثي . وبعــد انقلاب ٩ نوفمبر ١٧٩٩ ، الغي مجلس الديراكتوار ، وتسلم السلطة مجلس يدعى المجلس القنصلي المؤلف من ثلاثة قناصل ، اخذ بونابرت مركز القنصل الاول ، فجعل من القنصلين الآخرين مجرّد آلة مطواعة بين يديه . واستمر نجمه يسطع شيئاً فشيئاً بما كان يبديه من مغامرات عسكرية وحنكة سياسية ، حتى توصل في آخر الامر الى ان يأخذ قراراً اجماعياً ، بتحويل القنصلية الى امبراطورية وراثية ، والمناداة به امبراطوراً على فرنسا عام ١٨٠٢

كان الفرنسيون يمدون امبراطورهم نابليون الاول ، وكانت مغامراته وانتصاراته فيها تشيع روح العظمة في الشعب الفرنسي ، واصبحت كلمة « مواطن فرنسي » لقب شرف يفــاخر به كل فرنسي ، وكان نجم الامبراطور النجم المتلالىء في كل اوروبا . ولم يكن في فرنسا من يتشاءم من سطوع نجم نابليون ، الاّ شخص واحد ، احبّ نابليون قائــداً وقنصلاً ؛ وخشي على نفسه منه امبراطوراً . كان هذا الشخص هو زوجة نابليون الامبراطورة جوزفين .

كانت جوزفين ارملة القــائد بومارشيه ، وكانت على اكثر ما في المرأة من فتنة وجمال ودلال . فاحبها حتى العبادة ، وتزوجها مع معرفته انها اكبر منه سناً ؛ وانها عاقر . وكانت جوزفين معشاقاً وعلى قدر كبير من الاستهتار بشؤون الحبّ ، وكانت كلما ازدادت خيانتها لزوجها

(وكانت تخــونه على الدوام) كلما ازداد شغفه بها . من الرجال من يزداد حباً وهيــاماً بالمرأة كلما امعنت في خيانته . ان كيوبيد سموحٌ وغفور .. وما اعظم ما كان تأثير كيوبيد على نابليون .

ولكن كيوبيد استسلم في آخر الامر لسلطان المجد ، اذ عندما اصبح نابليون امبراطوراً صار عليه ان يعمل شيئاً ما ، يرسخ الامبراطورية بعد موته . صار عليه ان ينجب وريثاً يرث امجاد ابيه وامبراطورية ابيه . وجوزفين المسكينة ليست مؤهلة لانجاب الوريث بعد ان داهمتهــا سن العقم فكان على سيّد اوروبا ان يفاضل بين حبّه لجوزفين وبين حبــه لمجده ومجــد الامبراطورية — فاختار على الرغم من كيوبيد — الخيار الثاني .

وفتش عن ضالته المنشودة في بلاطات ملوك اوروبا ، اذ ان ذلك الرجل العظيم القهّار كان يعــاني علة النقص ، واراد ان يتقرّب من الملوك الذين اخضعهم في الحروب . ان الكورسيكي الصغير يريد ان يتقابل مع اصحاب التيجان في بيوتهم ، وليس فقط في ساحات الحرب.

وتزوج نابليون من ماري لويز ابنة امبراطور النمسا ، وكان وسيطه في هذا الزواج عدوه الاكبر « ميترنخ » مستشار الدولة النمساوية . لقد وضع ميترنخ خطة لقهر عدوّ النمسا بواسطة الاميرة النمساوية ، وكان له ما اراد . لقد انتصر ميترنخ على غول اوروبا .

لم يكن قد مرّ بعد اكثر من عشرين سنة على تخلص الفرنسيين من امبراطورتهم النمساوية ماري انطوانيت . فاذا بنابليون يعيد الى اخيلتهم شبح ماري انطوانيت ، بماري لويز ، ابنة خالف والد ماري انطوانيت، فتشاءم الفرنسيون من زواج امبراطورهم بهذه الاميرة النمساوية .

وجمعت الصدفة بين شؤم الفرنسيين من زواج امبراطورهم بالاميرة النمساوية ، وبين أفول نجمه . وكانت حملته الروسية بداية انهيار الامبراطور والامبراطورية الفرنسية . ومما يجب تسجيله ان العم ساعد في استعجاله

اجل صهره . فبكى نابليون .. وبكى الفرنسيون .. وضحك ميترنخ .

ثم كانت رحلة نفيـــه الى جزيرة البا .. ثم كانت عودته منها بعد يوم .. ثم كانت واترلو . . ثم كان موتـــه في جزيرة القـــديسة هيلانة .

* * *

لا اعلم كم من الناس يعتقدون ان عصر الامبراطورية النابوليونية كان عصراً ديموقراطياً . الحقيقة ان نابليون بونابرت ، الذي لمع نجمه كقائد للثورة ، ما لبث حتّى اغرته مطامع الملك والسلطة ، ونصب نفسه قنصلا اولا ، ثم امبراطوراً ، واعاد سلطة الفرد على الرغم مما سنّه من شرائع ديموقراطية ، بقيت حبراً على ورق طوال مدة حكمه.فالبلاط الامبراطوري لم يكن أقل زهواً واسرافاً من البلاط الملكي البوربوني، والارهاق الشعبي لم يكن في عهـــده اقل منه في عهد البوربونيين . واذا كانت انتصارات نابليون العسكرية ، قد اسكرت الشعب الفرنسي الى حين ، وصوّرت له احلاماً خداعة ، بانه الشعب المختار لقيادة اوروبا كلها ، فالتـــاريخ يسجل على العهد الامبراطوري مظالم لم تكن وطأتها اخف من وطأة المظالم في العهد الملكي . فنابليون الذي نشأ وضيعاً ، وشبّ ديموقراطياً،واعتنق مبادىء الثورة ، ووطد اركانها .. ما عتم ان اغوته الميكيافيلية عندما اصبح امبراطوراً ، فكان في آخر ايام حكمه ميكيافيلياً الى ابعد حد .

ليس من ينكر على نابليون عبقريته،ليس في الامور العسكرية فقط، بل في الامور التنظيميـــة ايضاً . فهو الذي انشأ جامعة باريس ، كي يخلق نشئاً جديداً .. وهو الذي وضع الشرعة المدنية المعروفة باسمه .. وهو الذي نسّق العاصمـــة الفرنسية تنسيقاً جعلها اجمل عواصم اوروبا وقبلة سياح الدنيا .. وهو الذي رفع قيمة الفنّ الى درجة اصبحت معها باريس مدينة الروعة والفنّ . كان نابليون عبقرياً في كل شيء الاّ في السياسة الخارجية والداخلية .

في السياسة الخارجية كان يتحدّى دول اوروبا كلها فقامت كلهـا عليه ، فكانت النتيجة انه اهرق من دماء الفرنسيين مالم يهرق مثله احد من ملوك فرنسا ، حتى سئمـه شعبه بالذات في آخر الأمر وتمنى ان يتخلّص منه . كان في نظر شعبه في البداية الهاً يُعبد ، فصار في نظره جزاراً خطراً . فما ان بدأ نجمه في الأفول حتى انكره شعبه شر نكران .

في السياسة الداخلية بلغ استهتاره بالشعب الفرنسي والشعوب المغلوبة حداً جعله يحسب انه السيّد المطلق عليها . فقد جعل من اخوته ومحاسيبه ملوكاً لمجرّد كونهم اخوته او محاسيبه . وقد اشتهر عن نابليون ضعفه تجاه ذويه ، فاستغلّ ذووه هذا الضعف الى اقصى حدود الاستغلال .

وقدّر لنابليـون ان يكون الى جانبه داهية اكثر منه ميكيافيلية ، واكثر منه مهارة فيها . كان هذا الداهية البرنس تالليران ، الاكليريكي النشأة ، والسياسي فيما بعد . خـدم تالليران الثورة عندما كانت الثورة تجتاح فرنسا ؛ وخـدم الامبراطور عندما كان نجم الامبراطور في اعلى الافق ؛ اسهم في مؤامرة « الدوق انفيان » على الامبراطور ؛ ثم لامه على اعدامه الدوق .. وعندما بدأ نجم نابليون في الأفول كان اول من تنكّر لسيّده وساعد في زوال سلطانه . كان تالليران مثالاً رائعاً للسياسة الميكيافيلية ، وهي السياسة الرائجة في اوروبا آنذاك .

* * *

ان الواقع التاريخي يسجّل ان العهد الامبراطـوري كان عهد طغيان واستبداد ، كما يسجل خيانة نابليون لمبادىء الثورة الفرنسية . لقد صعد نابليون الى القمة عن طريق الثورة ؛ وظل طوال حكمه يشيد بمبادئها ويدّعي الاخلاص لها . غير ان الحقيقة تقول انه كان في كل تصرفاته خائناً لها . فالارستوقراطية التي قضت عليها الثورة استبدلها الامبراطور بارستوقراطية ثانية ؛ لم تكن خيراً من الارستوقراطية الملكية . والبوليس السري الملكي استبدله الامبراطور ببوليس سرّي امبراطوري . والاسراف

والتبذير في قصور الملوك لم يكونا اكثر من الاسراف والتبذير في قصر الامبراطور . وبطانة بلاط « فونتنبلو » لم تكن اخفّ وطأة على الشعب الفرنسي من وطأة بلاط « فرسايل » . وغلاء المعيشة ، والفقر والضرائب ارهقت رعايا الامبراطور كما كانت ترهق رعايا الملوك . هذا فضلا عما سببته حروب الامبراطور من تقتيل وتجويع وتشريد . كل ذلك اشباعاً لمطامع رجل فرد لم يكن يعرف الشبع . ففيما كان الامبراطـــور يكيل المديح بخطبه وحماسياته للشعب الفرنسي ، ويكثر من تمجيده والتودّد اليه ، كان الشعب يقاسي الحرمان والمصائب والويلات ، مما جعله يسأم الحروب ؛ ويكفر بالامبراطـورية ؛ ويدرك بان الحرية التي وعدته بها الثورة ؛ والسعادة التي كان يؤمل بها ؛ لا يزالان في حاجة الى النضال. لقد سقط نابليون ، وانهارت امبراطوريته ؛ غير ان جذوة الحرية لم تمت ؛ وظلت بذورها دفينة في الارض بانتظار حرّاث امناء مخلصين ؛ اذ انه ليس من السهل اطفاء نار ثورات التحرّر .

١٨ . الردة الرجعية

•

ما كادت اوروبا تتخلص من نابوليون بونابرت حتّى اخذت تفكّر في القضاء على الروح الشعبية التحررية الّتي اطلقتها الثورة الفرنسية . فبعد خلع الامبراطور ونفيه الى جزيرة القديسة هيلانة ، اعادت اوروبا الملكية الى فرنسا . وبقيت الملكية البوربونية العوبة بيد الحلف الاوروبي الذي قهر نابوليون .

كان يتزعم هذا الحلف القيصر الروسي اسكندر . غير ان زعامته كانت زعامة اسمية فقط . كان النجم الساطع في الحلف وفي السياسة الاوروبية آنذاك الوزير النمساوي الداهية « ميترّنخ » . واذ كان القيصر اسكندر رجلاً تقياً وورعاً الى حد السذاجة استطاع ميترّنخ بالاتفاق مع احلافه الانكليز — الذي حبلت بهم امهاتهم دهــاقنة سياسين ويعرفون كيف يستغلون دهاء هذا وسذاجة ذاك — ان يقلبوا الاوضاع الشعبية في فرنسا بعد ان كان بدأ في تقويضها الامبراطور المخلوع . وكان للوزير الفرنسي « تاالليران » — في حقده على نابوليون وعــلى مبادىء الثورة ايضاً — دور محسوس في تقويض ما اراد ملوك اوروبا تقويضه . فتااللبران الذي كان مشهوراً بوصوليته وميكيافيليته لم يكن اقل دهاء من ميترّنخ .. مع حفظ النسبة بالطبع بين داهية غالب وداهية مغلوب . كانت فرنسا

وقتئذ بيد تاليران اكثر مما كانت بيد الملك .

وكان لا بد للحلف الاوروبي بعد التخلص من نابليون ان يعقد مؤتمراً للصلح واقرار السلم . والمؤتمرات كانت دائماً ومـا تزال تعقد تحت ستار العمل في سبيل السلم . رجل سياسي تقليدي ، سداه ولحمته الخداع والنفاق الدولي . ووقع الخيار على فينا عاصمة الامبراطورية النمساوية لتكون مقراً للمؤتمر . وهو اختيار يدل بداهة على ذكاء ميترنخ ودهائه .

من هذا المؤتمر انبثق ما سمي « بالحلف المقدس » . الارجح ان وصف الحلف بالمقدس كان المقصود منه اللعب على القيصر ، المعمّد بقداسة الكنيسة الارثوذكسية ، والموشح بوشاح القديسين الابرار ، والمسحور بسحر رجال الدين . وقد خيلت له قداسته ان في وسعه اعطاء العالم سلماً دائماً . وكان القيصر خيالياً في تصوراته الى ابعد حد . ومما يروى عنه ان ساحرة المانية كانت متزوجة من احد الديبلوماسيين الروس ادخلت في عقله ان العناية الالهية كما ساعدته على قهر اقوى جيش اوروبي ، ستنصره على قوى الشر وتبوؤه بطولة السلام العالمي . قد تكون هذه الرواية صحيحة او غير صحيحة او مبالغاً فيها . على ان الشيء الراهن هو ان امبراطور الدولة التي كان لهـا الفضل الاكبر في قهر نابليون – بعبع اوروبا – والتي لعبت في الحرب ضده الدور الاكبر .. اضاع مكانته في المؤتمر الذي عقب الحرب . فكان الكسب الاكبر في المؤتمر للدهاء السياسي الذي تميز فيه الاطراف الاخرون ، النمساويون والانكليز والوزير الفرنسي تاليران الذي لعب بميكيافيليته على الورقة الرابحة . فاحتفظ المؤتمر للقيصر بلقب الزعامة وحمل لقب قيصر السلام، بينما راح الاطراف الاخرون الدهاة ينسقون السياسة العالمية حسب مصالح دولهم ، وانفض المؤتمر على عودة الرجعية الى اوروبا والقضاء على مبادىء الثورة الفرنسية .

كان هدف مؤتمر فيينا اقتلاع الفكرة التحررية التي اطلقتها الثورة الفرنسية . وقد ساعد المؤتمرين على بلوغ هدفهم حالة الرعب الذي كان مستولياً على الشعوب الاوروبية اثر الحروب النابوليونية . حتى الشعب الفرنسي الذي اسكرته انتصارات نابوليون في وقت ما ، تعب من الحرب وما جرته عليه من ويلات ومصائب . كانت الشعوب الاوروبية تتوق الى السلام . فاستغل مؤتمرو فيينا هذا التوق ، وتذرعوا نفاقاً برغبة الشعوب في السلام والهدوء والسكينة . فباعوها سلماً موقتاً مقابل ثمن باهظ دفعته الشعوب من حرياتها وكرامتها . وجعلوا يبدلون في حدود الممالك ، ويقتطعون في هذه ويضمون الى تلك ، ويوسعون سلطة الملوك ويعيدون لهم حق الوهية الملك . فعاد الي اوروبا الحكم البوليسي الاستبدادي حتى اصبحت الحالة في بداية القرن التاسع عشر على شيء من الشبه لما كانت عليه في القرون الوسطى .

كانت هذه الفترة قاسية جداً على الشعوب ، اذ تحطمت فيها الامال التي كانت قد انعشتها الثورة الفرنسية . وعاد الحكم الاستبدادي الى سابق عهده . وطغت على اوروبا موجة من الارهاق والارهاب ، وبينما كانت الحكومات الاوروبية في عهد الامبراطورية الفرنسية تشجع رجال الفكر الاحرار في مقاومتهم الجنون النابوليوني ، انقلبت عليهم بعد التخلص من ذلك العهد ، واخذت تحمل عليهم وتضطهدهم بغية قتل الفكرة التحررية التي كانت بالامس تشجعهم عليها .

وادركت الردة الرجعية ما للسلطة الروحية من تأثير على عامة الناس ، فاستعانت بها على كبت الروح الوثابة في الشعوب ، واعادت الى الكنيسة سلطانها ونفوذها ، وانبرى رسل الكنيسة يبثون في الناس ، تعاليمهم الهادفة الى توطيد سلطة الملوك ووجوب الخضوع لها . وخرجت الجزويتية من مخابئها التي كان قد حشرها فيها البابا كليمنت الرابع عشر مدة خمسين عاماً . واستعاد الجزويت نشاطهم السابق مبشرين بالطاعة

والخضوع للملوك « الاتقياء » ولحكوماتهم المستمدة سلطانها – في زعمهم – من الله . ولم تتورع الكنيسة البروتستانتية عن مسايرة زميلتها في الروح ، الكنيسة الكاثوليكية على الرغم من العداء المستفحل بين الكنيستين . لقد تهادنت الكنيستان عندما لمستا خطراً عليهما من اشتعال لهب الحرية في الشعوب ، وكانت الكنيسة الارثوذكسية في روسيا واقسام شرق اوروبا تقوم « بواجبها » هي ايضاً في اضطهاد كل فكرة تحررية . ان التاريخ لا يبخل بالشواهد على « قدسية » التحالف بين السلطات الروحية والسلطات الزمنية الرجعية .

وجاء الحلف المقدس الذي انبثق من مؤتمر فيينا – او الذي نشأ عن مؤتمر فيينا – تكملة لنظام تسوية امور العالم ومشاكله بواسطة معاهدات تعقدها حكومات الدول فيما بينها . ولسنا نخطىء اذا قلنا ان المعاهدات بين الحكومات ، لم تكن يوماً اكثر من تسويات موقتة بين المتعاقدين تنتهي بانتهاء اغراضهم منها .

* * *

عندما يراجع المرء في ذاكرته جميع المعاهدات التي عقدتها وتعقدها الدول فيما بينها ، من النادر النادر ان يجد في واحدة منها حلاً اساسياً للمشاكل التي تتخبط بها الشعوب ، وتتذرع بها الحكومات لاشعال نيران الحروب بين دولها . ذلك لأن اقطاب الدول المحاربة ، من عسكريين وسياسيين ، متى اجتمعوا لعقد معاهدة على أثر حرب ما ، حصر المنتصرون منهم مقاصدهم في الحصول على اكبر قدر من المغانم ، بينما يحصر المنهزمون مقاصدهم في التخلص ما امكنهم من الاجحاف الذي يلحقه بهم المنتصرون . وهكذا تأتي المعاهدة تسوية مؤقتة ينقصها الاخلاص من كلا الجانبين ، بل هي تنقل الحرب الساخنة بينهما الى حرب باردة بانتظار الظرف المناسب للعودة الى الحرب الساخنة . فلو

اجلنا النظر في هذه المعاهدات لوجدنا ان في كل مادة من موادهـا بادرة من بوادر العسف والتحكم من قبل المنتصر ، وبذرة من بـذور المتربص والحذر والميل الى الانتقام في الجانب المغلوب . والمعاهدة التي عقدت في مؤتمر فيينا كانت من هـذا الطراز : تسوية بين الحكومات المتحاربة .. وتقسيم للمغانم بين الحكومات المنتصرة ، دونما اي اعتبار لمصلحة شعوب الـدول الظافرة ، ولا لمصلحة شعوب الدول المغلوبة ، ودونما اي اعتبار لمصلحة السلام العالمي الذي ادعى عاقدو المؤتمر نفاقاً ورياءً انهم قد حاربوا من اجله ويعقدون « حلفهم المقدس » من اجل بلوغه . ان الحلف المقدس الذي خرج من مؤتمر فيينا والذي طبّلت له الدعايات في ذلك الحين بانه الحلف الذي سينشر السلام ، لم يكن على شيء من القداسة ، وانما كان حلفاً مبيّتاً لاغراض دعايات تهدف في الدرجة الاولى الى مقاومة الحركة التحررية في الشعوب .

* * *

كان همّ مؤتمر فيينا الاول ، القضاء على روح الثـورة الفرنسية . فجاءت مقرراته – الى جانب خلع ملوك وتنصيب مـلوك ، وتقسيم ممالك وتغيير حدود – تكريس رجعية الحكم في اوروبا ، محور السياسة العالمية في ذلك الحين . على ان الشعوب ، وقد كانت قد تسربت اليها روح الثورة الفرنسية ومبادئها ، ما كانت تتقبل الآن كما كانت تتقبل في الماضي استعباد الملوك والحكومات لها . وبدأت تتململ من جـور الحكومات والملوك . وكانت روح الثورة قـد وصلت في تغلغلها الى المستعمرات الاوروبية في اميركا الجنوبية ، ممـا جعل شعوبها تتحرك لخلع النير الاوروبي عنها . فاستجابت هذه الشعوب والولايات المتحدة زعيمة الاميركيتين ، الشمالية والجنوبية . ورأت الولايات المتحدة الاميركية ان الفرصة سانحة لها لابعاد اوروبا عن القارة الغربية الجديدة . فقـام

رئيسها « مونرو » يعلن عام ١٨٢٣ مبدأه الرامي الى عزل اوروبا عن الشؤون الاميركية ، محذراً دول الحلف المقدس بأن كل محاولة من جانبها يقصد منها فرض سيطرتها على اي قسم من القارة الاميركية ، تعتبر مساساً بسلامة اميركا والولايات المتحدة وعداء لها . واضطرت دول الحلف المقدس تجاه هذا التهديد المضمن الى الاعتراف باستقلال دول اميركا الجنوبية والمكسيك . كان ذلك اول مسمار دقّ في نعش الاستعمار الاوروبي .

وفي اوروبا نفسها طغت موجة التحرر على الشعوب المستعبدة . وكانت اليونان هي البادئة . فبعد ثورة دامية دامت اكثر من ثماني سنوات ، استبسل فيها الشعب اليوناني وريث الاغريق القدماء الخالدين، واشترك فيها متطوعون من الاحرار من خارج اليونان — اوقعهم أثراً اللورد « بيرون » شاعر الانكليز الشهير — استطاعت اليونان ان تشتري بدم ابنائها استقلالها وتحررها من النير العثماني . ومما يجدر ذكره ان اليونانيين في نضالهم العتيد ، وجدوا لهم حليفاً قوياً في الخلاف الذي دب بين اعضاء مؤتمر فيينا بالذات . ألم نقل ان المؤتمرات والمعاهدات التي تنبثق منها ما كانت ولن تكون اكثر من تسويات مؤقتة لاغراض هي ايضاً مؤقتة ، لا تلبث حتى تتكشف عما يبيته المؤتمرون والمتعاقدون من مطامع ونوايا بعضهم ضد بعض؟

* * *

لسنا هنا في مجال التبسط في حوادث التاريخ التي وقعت في النصف الاول من القرن التاسع عشر . ولكن ما لا بد من تسطيره وتسجيله ان السنوات الخمسين التي عقبت مؤتمر فيينا كانت ملأى بالثورات الاستقلالية القومية في اوروبا .

بلجيكا التي تجاذبتها عبر التاريخ اطماع الامبراطورية النمساوية والملكية

الفرنسية ، وادخلت في آخر الامر ضمن الدولة الهولندية عام ١٨١٥ ، ما فتئت ان ثارت على امها هولندا واستقلت عنها عام ١٨٣٠ واصبحت دولة قومية بلجيكية .

والشعب الفرنسي الذي ارغمه مؤتمر فيينا على الخضوع للملكية الاوتوقراطية ، عاد الى الثورة ، وخلع ملكه عام ١٨٤٨ ، واعلن الجمهورية الثانية . ولكنه دق اسفيناً في اساسها منذ انشائها . ذلك عندما اختار رئيساً لها احد ورثة بونابرت الذي ما عتم حتى تجلت فيه المطامع النابوليونية ، وقاب الجمهورية الى امبراطورية بعد اربع سنوات من انشائها ، وجلس على العرش باسم الامبراطور نابوليون الثالث ، واعاد الى فرنسا ما كانت سئمته من الحكم الاستبدادي الرجعي .. الى ان وقعت الحرب بينها وبين المانية . وكانت موقعة « سيدان » خاتمة امبراطوريته ، واعلنت الجمهورية الفرنسية الثالثة عام ١٨٧٠ .

* * *

وسرت عدوى الثورة الى المانيا والنمسا عام ١٨٤٨ . وخلعت المانيا عنها نير آل هبسبورغ . واقامت اتحاداً بين دويلاتها بزعامة بروسيا . وجعلت تظهر في المانيا بوادر حركة اشتراكية . وتألفت فيها منظمات عمالية ، وبرز من قادتها «لاسال» و «لبنخت» الأب والابن « وكارل ماركس » . على ان الحركة لم تلاق النجاح المطلوب وذلك لسببين: السبب الاول ان المانيا لم تكن قد اصبحت بعد بلداً صناعياً ، ولم يكن فيها وعي عمالي كاف . والسبب الثاني ظهور زعيم كبير اسمه بسمارك تولى مستشارية الدولة وأمسك بيده القوية سلطة الدولة ، وتصرف بهذه السلطة على مبدأ « نيتشي » الرائج في ذلك الحين . وكانت شعاره في الحكم « ان المشاكل الكبرى لا تحل بالخطب وقرارات الاغابية على الطريقة البرلمانية وانما حلها يجب ان يكون بالحديد والدم » . فقضى

بسمارك على الحركة الاشتراكية . ووحد الدويلات الالمانية في دولة قومية واحدة بعد انتصاره على فرنسا في حرب ١٨٧٠ . وكان في عبقريته ودهائه يلهي الشعب الالماني الثائر بامبراطورية موحـــــدة دستورية وديموقراطية حسب مفهومه الخاص للديموقراطية ، وخدر الشعب الالماني بتحسين حالة العمال بعض الشيء ، اجتناباً لتفاقم الحركة الاشتراكية التي كان بسمارك من الدّ اعدائها .

* * *

وقيض لايطاليا ان يظهر فيها ثلاثة اشخاص . اولهم رجل فكر اسمه ماتزيني . وثانيهم رجل حرب اسمه « غاريبالدي » ، وثالثهم رجل دولة اسمه « كافور » . الاول زرع بذور الثورة في الشعب الايطالي . واغتنم فرصة قيام الثورات في اوروبا عام ١٨٤٨ ، فدفع الشعب الايطالي الى الثورة ، واعلن الجمهورية في ايطاليا وطرد البابا من رومـــا ، وحكم ايطاليا مع اثنين آخرين وكان هو صاحب الكلمة الاولى في الحـــكم . والثاني استغل هذا الشعور وألهب حماسة الشعب ، وحـــارب الجيوش النمساوية والفرنسية التي كانت هرعت لاعادة البابا الى روما ، وهزمها . والثالث وضع يده بيـــد الرجلين الاولين . واستطاع الثـــلاثة معاً ان يوحدوا ايطاليا في دولة ملكية دستورية بعد ان كانت فرنسا في وقت ما قد انتصرت على الجمهورية الايطالية واعادت البابا الى روما، ثم عادت مرة ثانية الى حالة الضعف من جراء حربها مع انكلترا ضد روسيا في جزيرة القرم . وخرجت ايطاليا من حكم آل هبسبورغ . واصبحت دولة مستقلة على رأسها فيكتور عمانوئيل الاول ملك بيدمونت .

* * *

وهكذا نرى ان مؤتمر فيينا الذي وعد العالم بسلم دائـــم ، لم يأت

بالنتيجة التي تظاهر بانه يعمل من اجلها . ولكنه على كل حــال كان الباعثَ للروح القومية في الشعوب الاوروبية . وهي مرحلة تاريخية في استقلال الشعوب . على ان مفهوم القومية آنذاك كان مفهوماً تعصبياً مما جعله يذكي روح التباغض بين مختلف القوميـــات ، ويسبب اشعال الحروب بينها .

غير ان المفهوم التعصبي للقومية كان يقابله من جهة ثانيـــة انتشار الثورة الفكرية . وكان انتشارها تحدياً للسياسة الميكافيلية . كان لدخول الفكر في المعترك السياسي بالغ الاثر في تطوير العقلية السياسية . فكان رجال الفكر في تلك الازمنة ، كما هم في كل الازمنة ، يتحسسون باحاسيس الشعب اكثر مما يتحسس بها رجال السياسة . وقــد ادرك هؤلاء ان تغير القادة وتنازعهم على الساطة ، ليس من شأنه ان يبدل في حيــاة الشعوب . فانبرى منهم من يبشر بتغيير اسس الاوضاع والانظمة . واخرجوا تعاليم فولتير وروسو ومونتسكيو وابن خـــلدون وباكون من معتقلاتها التي كانت اعتقلتها فيها رجعية السلطات . واحدثوا في اوروبـــا ثورة فكرية ايقظت الشعوب على الحالة التي كانت تتعثر بها . وكان اهم اثر تركته الثورة الفكرية ، تنبُّـــه الشعوب الى فساد الاعتقاد بالحق الآلهي ، الذي كان يدعيه الملوك ، وتقره لهـــم السلطة الروحية ، وتنبهها ايضاً الى قيمتها في تـــكوين الامـــم والمجتمعات . ففسحت هذه الحركة الفكرية المجال لنزاع جـــديد بين مادية الحياة وروحانيتها ، او بالاحرى بين انسانية الانسان الحيـــاتية والعملية وبين انسانيته المثالية المستلهمة من الغيب ، والموحى بها من المجهول. ومنذ تلك الحين — اي قبل منتصف القرن التاسع عشر — اخذت الفاسفة المادية تغزو الفكر . وجعلت جماعة الأنسوكلوبيديين — بزعامة المفكر « ديدرو » — تشن حملة ضارية على الفلسفة الميتافيزية ، وعلى الانظمة

المستمدة منها ، سواء أكانت انظمة اجتماعية ام سياسية ام اقتصادية ، وهي حملة ما زالت مستعرة حتى يومنا هذا . ان الرجعية التي حمل لواءها مؤتمر فيينا وكرسها الحلف المقدس ، كانت تحمل في داخلها جرثومة موتها .

١٩ . التقدم العلمي
في حضارة القرن التاسع عشر

•

اذا كان لا بد من إعطاء سمة خاصة لكل قرن في التاريخ يعرف بها ، فبوسعنا ان نطلق على القرن التاسع عشر اسم عصر النهضة العلمية . ففي غضون هذا القرن استطاع العقل البشري أن يكشف عن مكنونات الطبيعة وينبش خفاياها ، ويفضح أسرارها ، كما استطاع في اكثر من أي قرن سابق ان يخضع لمشيئة عواملها وتياراتها . كان القرن التاسع عشر فاتحة عهد تبوأ فيه العلم مركز الصدارة في حياة الأنسان .

لم يقنع ابن القرن التاسع عشر بما اورثه اياه آباؤه من آلات بخارية لصناعته وتجارته وأسفاره ، فانتزع من الطبيعة طاقتها الكهربائية وجعل لياله نهاراً . واخترع له معاصره « فرنكلين » و « فولت » و « داي » و « امبر » و « فرادي » مولداتها لكي يدير بواسطة هذه المولدات محركات مصانعه ويزيد انتاجه منها . وعندما عيل صبره من الانتظار الممل في مخابرة زملائه وعملائه في الاقطار البعيدة عنه ، قدّم له « صموئيل موريس » جهازاً ينقل له مراسلاته على اسلاك ممدودة في الفضاء وتحت البحار ، ويوفر عليه وقتاً طويلاً تستلزمه المخابرات البريدية ، وتمكنه من معرفة ما يجري في العالم يوماً فيوماً . « تكتكات »

تنطلق من غرفة ضيقة ، وتبعث صداها على « تكتكات » مثلها في غرفة ضيقة ايضاً عبر البحار والاقطار ، فتنقل اخبار الغرب الى الشرق ، واخبار الشرق الى الغرب ، وتعرّف بورصة لندن أسعار بورصة نيويورك ، ويقف الانكليزي أو الفرنسي على ما يقوله الاميركي في مجلس الشيوخ او على ما يجري من حركات ثورية في روسيا ، فـلا تفوت العالم شاردة من شوارد الصين واليابان ، ولا يبقى سرّاً ما يجري في بـلاط السلطان عبد الحميد وفي دهاليز قصر « يلديز » .

ان اكتشاف التيار الكهربائي فتح الباب لعلماء القرن التاسع عشر للقيام بثورة على الوقت . فلم تمض خمس وعشرون سنة على اختراع التلغراف حتى كان « كراهام بل » يقدم جهازه العجيب « التلفون » ، جهازاً يوضع في أصغر زاوية في بيت او متجر او معهـد ، اذا وشوشت في بوقه الصغير تنتقل وشوشتك على موجات الاثير فيلتقطها محدثك البعيـد عنك على سماعة من جهـاز ، هو ايضاً لا يزيد حجمه عن الجهاز الذي وشوشت في بوقه ، وتتبادل معه الحديث من فمك الى أذنه ، ومن فمه الى أذنك .

* * *

وما آذن القرن التاسع عشر بالرحيل قبل ان أعطي العالم اخـتراعاً عجيباً آخر هو التلغراف اللاسلكي المسمّى بالتلغراف اللاسلكي الماركوني نسبة لمخترعه « غوغليومو ماركوني » العالم الايطالي في الفيزياء . هنا يجدر القول ان ارجاع الفضل في اختراع التلغراف اللاسلكي لماركوني قد يكون صواباً وقد لا يكون . ذلك لان العالم الروسي « بوبوف » كان قد توصل الى هذا الاختراع ، وقدّم بحوثه عنه الى جمعية علماء البحوث الطبيعية في بلاد الروسيا في السابع من شهر نوار عام ١٨٩٥ ، ونشر بحثاً وافياً ومطولاً عنه في مجلة هذه الجمعية في عام ١٨٩٦ . بيد أن ماركوني كان أسبق من زميله الروسي في تقديم جهاره الى السلطات

الحكومية خارج بلاده ، واعترفت له الحكومة البريطانية به ، وحصل منها على حق تسجيل الاختراع له ، واسس بموجب هـذا الحق شركة خاصة باسمه . وكان ذلك في عام ١٨٩٦ ، أي في نفس الوقت الذي نشر بوبوف الروسي بحوثه . الأرجـح ان العالمين : ماركوني الايطالي وبوبوف الروسي ، كانا يعملان في ذات الوقت بمشروع واحد ، وتوصلا في وقت واحد الى نتيجة واحدة دون أن يكون احدهما واقفاً عـلى ما يعمله الآخر . غير ان الانكماش التقليدي الذي عرفت به روسـيا في الماضي ، والحذر التقليدي بين العالم الروسي والعالم الغربي ، كان لهما يدٌ في تكريس ماركوني على عرش التلغراف اللاسلكي . فالتباعد التاريخي بين عالم الروسيا وعالم الغرب ، لم يكن يسهل التفاعل بينهما ، حتى في الشؤون العلمية التي لا يجوز ان يكون لها حدود او يوضع بينهما سدود . ومن الشذوذ المنكر علمياً ، ان الموسوعات الغربية قلّما تذكر شيئاً غـير علماء الغرب ، وان ذكرت شيئاً عن العلماء الاجانب عن الغرب فتذكره بأكـثر ما يكون من الاختصار . ومهما يكن الأمر ، وسواء أكان ماركوني سبق بوبوف ، أم بوبوف سبق ماركوني ، أم كان الاثنان وصلا الى الهـدف المحمود في نفس الوقت . . . كل ذلك لا يعـد شيئاً تجاه ما حققـه اختراع التلغراف اللاسلكي من تقـدم الحضارة الإنسانية .

* * *

وبينما كان هؤلاء العلماء يُخضعون الطبيعة لارادتهم ويكشفون اسرارها ومخبآتها ، كان زملاءٌ لهم يعملون في اكتشافات اخرى تتصل بالناحية الإنسانية من حياة الانسان . فقد هال هؤلاء ما تقاسيه البشرية من آلام وأمراض وأوبئة ، فتجندوا لانقاذ البشرية من هذه الآفات ، وسبروا غور الامراض ، ورأوا من بعيد ، ان في الطبيعة عدواً للانسان والحيوان والنبات ، وان هذا العدو هو ذو حياة ايضاً ، وهو يتسلل خلسة من

ضحية الى ضحية . هو طفيلية يجهلون كنهها وحقيقتها . فعمدوا الى مقاومتها بتسليط مواد قاتلة عليها . كانوا يكافحون السبب قبل ان يكونوا عرفوا المسبّب .

هكذا فعل الجرّاح « لستر » الانكليزي في مقاومة التعفن في عملياته الجراحية . وهكذا فعل الطبيب « سميلوايس » في مقاومة التعفنات النفاسيّة . وكان الطبيب الانكليزي « جنر » اكثر جرأة من زميليه ، اذ اقتحم العدو في وكره بالذات . كان جنر اول مَن أجرى عملية التلقيح بمواد المرض السامة . غير ان ما لمسه من الخطر على الملقّحين من نقل المواد السامة لهم ، جعله يتحايل على سمّها كي يضعف مفعوله الخطِر على البشر . فواصل تجاربه في وباء الجدري . وكانت حياته هذه أخذ المواد الصديدية من بثور الجدري المتقيّحة ، وتلقيح الابقار بها كي تصاب هذه الابقار بداء الجدري ، ثم يعود ويأخذ من بثورها جرعة صغيرة ويلقح بها الاصحاء من الناس ، فيكسبهم مناعة ضد وباء الجدري المخيف ، إذ ان مرور ميكروب الجدري في الابقار يفقده خبثه على الإنسان ويبقي فيه فعاليته المناعية ضد المرض .

ولكن لا جنر ، ولا لستر ولا سميلوايس،ولا ابن سينا ، ولا الرازي من قبلهم ، استطاعوا الكشف عن ماهية هذا العدو الذي اسمه الميكروب . كان فضل الكشف عن ماهية هذا الميكروب للعالم البطل « باستور » .

كان باستور عالماً في الكيمياء قبل ان يتوصل الى اكتشافه العظيم للجرثومة المرضية . وكان اكتشافه هذا اثناء اشتغاله بعملية التخمير . فقد كان المعتقد ان التخمير يحصل من تفاعلٍ كيمي . على ان باستور بيّن ان التخمير هو حصيلة فعالية طفيليات مجهرية ذات حياة موجودة في السائل المخمّر . وكان هذا الاكتشاف دليله الى معرفة وجود فيروسات سامّة ، فعمد الى إضعاف سمومها عن طريق تلقيح الدواجن بفيروس

الكوليرا ، ثم استخراج لقاح من الدواجن المصابة لتلقيح الانسان . كانت تجاربه في بادىء الامر مقصورة على الكوليرا ومرض دودة الحرير . ثم بذل اهتماماً خاصاً في مرض الكلَب ، وبعده انتقل في تجاربه الى معظم الامراض الوبائية . كان باستور صاحب الفضل الاول والأكبر في وضع الأسس العلمية لدراسة الامراض العفنة والوبائية وطرق معالجتها والوقاية منها .

وقد دأب باستور على اجراء تجاربه بعناد قلّ مثيله . فلقد طالما أحيط بمظاهرات الحقد والعداء والسخرية من قبل زملائه الأطباء ومن قبل السلطات ايضاً . ولم يكن بين كل أطباء عهده نصير له غير الجرّاح الانكليزي « لستر » . ولكنه بقي مواظباً على عمله المضني بلا كلل ودونما شفقة على راحة نفسه . حتّى اضطر أعداؤه انفسهم الى ان يضفروا له اكاليل الظفر على هذا العدو الخبيث الذي اسمه الميكروب . فنزل اسمه في صفحات التاريخ كأعظم جنديّ من جنود الإنسانية .

* * *

وانطلق الموكب الحضاري بوجه جديد وسلاح جديد ومقوّمات جديدة ؛ مأخوذة من الحقائق العلميّة والتجارب الاختبارية اكثر مما هي مأخوذة من الإيحاء الفكري والالهام الوجداني . ولم يترك هذا الموكب في انطلاقه اي حقل من حقول العلم والمعرفة إلا ومرّ فيه وتزود من نتاجه وثماره . ووجد في كل حقل من هذه الحقول حرّاثاً يعملون ويجدّون كي يقدموا للحضارة الانسانية مقومات علمية ثابتة بدلاً عن مقوّماتها الغيبية والايمانية المفتقرة الى أسباب الصمود .

* * *

كان الجسم البشري صندوقاً مغلقاً ، لا يُعرف ما يحدث فيه إلا عن طريق الحدس والتخمين وتفسير الاشياء بنتائجها لا بأسبابها . فاخترق

علماء الجسم البشري هذا الصندوق وكشفوا محتوياته ، وسبروا غور ما يجري فيه ، وما يكمن في هذه المحتويات من اسرار ، وما لهذه الاسرار من فعالية على نظام العمل في هذا المصنع الحيوي العجيب . كان «كلود برنار» و «براون سيكار» الفرنسيان ، يميطان اللثام عن أسرار الغدد الصم ، ويستكشفان فعاليتها على الوظائف الجسمية . وكان «بافلوف» الروسي يميط اللثام عن الوظائف الانعكاسية في الجهاز العصبي وتأثيرها على مختلف اجهزة الجسم البشري ، ودورها الكبير في تسيير حركة المصنع . وكان «كوخ» و «ارلخ» و «ايبرت» و «نيس» و «لافران» يتخطون الطريق التي مشاها «باستور» ، ويتلصصون من مجهرهم على الطفيليات الخبيثة ناشرة الاوبئة ويدبرون لها المهالك ، كي يفتكوا بها ويحموا الانسان من شرها . وكان العالمان «مورتون» و «سمبسون» يفتشان عن مادة سحرية يقدمانها للطبيب الجراح ، وتساعده على ان يكون طبيباً جرّاحاً ، لا جراحاً جزاراً ، فوجدوا هذه المادة السحرية عام ١٨٥٠ التي تمكن الجراح من اجراء عملية على المريض ، بعد ان يكون نشقه جرعات مقننة من الكلوروفورم أو الأثير ، تأخذه في سفرة موقتة من الغيبوبة المستكنّة ، بحيث لا يشعر بآلام المشرط الذي يحزّ جسمه . كان الفن الجراحي في منتصف القرن العشرين قد أمّن على نفسه وعلى من يُمارس فيهم من البشر بضمانتين اثنتين ... مخدّر يقلع ألم المشرط ، ومعقمات تجنّب تعفّن الجروح .

* * *

لم يترك علماء القرن التاسع عشر باباً من ابواب المعرفة إلا وطرقوه . فما كان معروفاً عند أسلافهم ازدادوا هم معرفة به ، وما لم يكن معروفاً حاولوا ان يكشفوا عنه ، فوضعوا الأساس لمن يخلفهم كي يكملوا ما بدأوا به هم . كان هؤلاء مكمّلي أعمال الماضي وروّاد اعمال المستقبل .

* * *

ولم يكتفِ علماء القرن التاسع عشر بالكشف عن عوامل الطبيعة وأسرارها . ولم يكتفِ العقل البشري بدراسة العلوم الطبيعية واخضاع عوامل الطبيعة له ، بل ذهب في مغامرته الى ما وراء الطبيعة ساعياً الى الكشف عن لا مرئياتها . وكان منهم من نازع القدرة الآلهية اللامرئية ، التي لم يكن يتجاسر أحد على المغامرة في مسّ قدسيتها والبحث في معصوميتها . وجنح بعضهم الى المادية واستخلصوا منها فلسفتهم في التحول والتطور وتنازع البقاء . وأنكروا ان الانسان قد خلق انساناً كما هو مكتوب في الكتب المقدسة ، وتبنوا نظرية داروين البيولوجية في علم النبات ، وخرجوا منها الى القول ، ان الانسان صار انساناً عن طريق تحول الحياة عبر ملايين الأجيال من أسفل إلى أعلى ، أي من حياة فيروسات في المستنقعات المائية الى حياة الانسان، أعلى كائن بين الكائنات ذات الحياة .

لم يكن داروين اول من قال بنظرية التطور والتحول . ولكنه كان اول من بنى نظريته على البحث العلمي . فطور نظريّة سلفه لامارك في التحول والتكيّف المحض اختياريين والمبنية على ان التكيف هو وليد الحاجة . كان لامارك ممهداً ... فكان داروين مكملاً .

كان داروين عالماً نباتياً . فقام بأسفار دراسية درس اثناءها طريقة النموّ في الحياة النباتية ، وتوصل في دروسه الى أن أنواعها قابلة للتحول من نوع إلى نوع ، ومن فصيلة إلى فصيلة . واكتشف أن الاصطفاء النوعي الاصطناعي الذي يجريه النباتيون عن طريق تلقيح نوعٍ بنوع أفضل، تعمله الطبيعة من نفسها . فطلع بنظرية الاصطفاء النوعي الطبيعي الذي تعمله الطبيعة تجاوباً مع سنتها في تنازع البقاء وبقاء الأفضل .

كان اعلان نظرية داروين هذه ، وانبثاق نظرية تحول الحياة من أسفل إلى أعلى منها ، فاتحة معركة حامية الوطيس بين الداروينين واللاهوتيين، لا سيما بعد ان انتشرت واتسعت ، واخرجها تلاميذ داروين وخلفاؤه من

النطاق البيولوجي المحض ، وجعلوها اساساً للفلسفة المادية التطورية ، المعاكسة للفلسفة اللاهوتية الحتمية ، المنبثقة عن التعاليم الدينية والمقررة من الفلسفة اليونانية والرومانية . وما لبثت هذه المعركة ان ازدادت حدة وقسوة ، عندما اخذ علماء الاجتماع يتبنونها ويطبقونها في بحوثهم عن حياة الانسان وعن الصفة الصراعية البيولوجية فيها ، الآيلة بالنتيجة الى خلق صفة صراعية اجتماعية طبقيّة في النوع البشري .

كانت نظرية دارون في الأساس ثورة بيولوجية ، رأى فيها اللاهوتيون نذير خطر على تعاليمهم الميتافيزية اليقينية . فكفرتها الكنيسة وعدّتها تعدياً على المشيئة الآلهية وتحدياً لها . فشنّت عليها حرباً لا هوادة فيها . ونسبت إلى دارون واتباعه الكفر والزندقة . ولم تكن الكنيسة مخطئة في حدسها ، إذ ان العلم استمر في اثبات حقيقتها . والحقائق العلمية كانت دائماً — وما تزال — موضع الريبة والقلق عند جماعات الفلسفة اللاهوتية الحتمية .

على انه عندما عجز الميتافيزيون عن تخطئة هذه الحقيقة العلمية ، وتبيّن لهم انه لم يعد لهم مناص من الاقرار بها — بعد ثبوتها في حقول التجربة والاختبار — عمدوا إلى إعطائها تفسيرات مختلفة ، محاولين جعل الداروينية غير متناقضة مع الفلسفة الميتافيزية واللاهوتية . وقد كانت هذه المحاولات التفسيرية مقتبسة من فلسفة الفيلسوف اللاهوتي الأكبر مار توما الاكويني ، وهي الفلسفة القائلة بأن العقلانية لا تنفي الايمان بل تتوافق معه . غير ان المدرسة الدارونية كانت تقف بالمرصاد لكل محاولة من هذا النوع وتبين خطأها .

ولم يبق الصراع بين الدارونيين واللاهوتيين ضمن نطاق العلوم البيولوجية وتطور الاشياء ، بل شمل نطاقات أوسع واكثر اثراً في التسلسل الحياتي .

كانت الوراثة في مفهوم العلوم القديمة الحتمية أشبه بعملية حسابية .

كانت المدرسة القديمة (مدرسة ماندل في الوراثة) تعتبر أن النوع قابل التحول ، وان تحسين شروط الحياة تحسّن النوع ، ولكنها لا تستطيع تحويله الى نوع آخر . ذلك لأن المادة الوراثية والكروموزوم الموجودة فيه — في عرف القاعدة الماندلية — مستقلان تمام الاستقلال عن الجسم الحيّ وشروط وجوده والتغييرات التي تطرأ على هذه الشروط عن طريق تحسينها . وانبثاقاً من هذه القاعدة كان المعتقد ان الصفات المكتسبة لا تورّث ولا تؤثر شيئاً في حتمية شريعة ماندل الوراثية .

هذا ما تصدى له العالم الروسي « ميتشورين » ، وبيّن بالتجربة والاختبار والنتائج خطأه وعدم انطباقه على نظرية دارون الاساسية . فقد اثبت هذا العالم ومدرسته — بتجاربهما في حقل النبات التي حصلا عليها — ان باستطاعة العلم ، أن يتدخل في سير أعمال الطبيعة ويتغلّب عليها ، ويؤثر في التوارث النوعي ، بحيث يتمكن من تحويل النوع الى نوعٍ آخر عن طريق تحسين شروط الحياة وتكييفها ، فيخلق من النوع الابن نوعاً افضل من النوع الأب أو الجدّ . وكان حصاد نظرية ميتشورين تحسناً وازدياداً في الأغلال الزراعية ، فضلاً عن نموّ نباتات في أراضٍ لم تكن صالحة لنموها من قبل . كانت نظرية ميتشورين المثبتة واقعياً وعملياً ، منطبقة كل الانطباق على النظرية الدارونية العلمية والنظرية اللاماركسية الاستنتاجية في وراثة الصفات المكتسبة ، بينما كانت نظرية ماندل ووايزمن ومورغن (وهي ما يطلق عليها اسم النيو دارونية والنيو لاماركسية) بعيدة كل البعد عما أثبته دارون بالعلم وقال به لامارك بالاستنتاج . كان ميتشورين يقول « ان الطبيعة سمحة في العطاء ولكن لا يكفي ان ننتظرها كي تعطينا منحها بل علينا (أي على العلم) ان ننتزع منها اكثر ما عندها من الخيرات » .

* * *

ولم يقتصر التقدم الحضاري في القرن التاسع عشر على النطاق العلمي

بل تعداه الى النطاق الثقافي والفني . في الأدب والشعر والرسم والموسيقى.. مما خلف في المجتمعات حيوية ما عرفتها المجتمعات السابقة . والثقافة ، سواء كانت أدباً ام شعراً أم موسيقى أم رسوماً ، تثير أحاسيس الناس، وتعبّر عن مشاعرهم ، فضلاً عن كونها مصدر إلهام وايقـاظ . ومن غير الانصاف للحقيقة ان ينظر الى كتاب هذه الحقبة من التاريخ – مثل دوستويفسكى ، وتولستوي ، وبيرون ، وبوشكين ، وغوتيـه وفيكتور هيغو – ككتاب فقط ، بل يجب أن ينظر اليهم كرسل بعثوا في شعوبهم وعياً على شؤونها ، وحفزاً للعمل من أجل مستقبلها .

على ان الجديد الذي حصل في هذه الحقبة هو النهضـة الموسيقية المتصاعدة التي نشأت أول ما نشأت في المانيا عشية القرن الثامن عشر ، وكان القرن التاسع عشر ميدان انطلاقها . لقد عمل علماء القرن التاسع عشر لاطلاق المجال للعقـل البشري للكشف عن حقيقة المعرفة ، وعمل فنانو القرن التاسع عشر ولا سيما موسيقيوه لاطلاق المجـال للنفس البشرية للكشف عن حقيقتها الانسانية وسموها .

ان ما جسده بيتهوفن – ذلك الرجل العبقري الأصمّ – في سيمفونياته ، من أحاسيس نفسية في معنى الحرية والانسانية ، وما جسّده تشايكوفسكي في « مياودياته » من مشاعر الشعب الروسي في عبوديته .. لا يستطيع تجسيده أي كاتب أو اديب أو مؤرخ ، مهما اشتهر في دقـة الوصف وسرد الوقائع التاريخية وأثرها في النفوس .

هـذه الجمهرة من الموسيقيين العالميين : بيتهوفن .. تشايكوفسكي .. باخ .. هاندل .. هايدن .. غلوك .. موزار .. شوبير مضافاً اليهم جمهرة كبار ادباء ذلك العصر وفنانيه .. أضفوا على حضارة القرن التاسع عشر العلمية والمادية ، رونقاً روحياً . العلماء زوّدوا العقل بزاد المعرفـة ، والفنانون زوّدوا النفس بزاد الحسّ الروحي بأسمى مشاعر الأنسان . فلا

عجب اذا وضع التاريخ اسماء هؤلاء العباقرة فوق اسماء رجالات الحرب والسياسة ، اذ أن الانسانية لا تجحد فضل عمالها .

كان التقدم العلمي والثقافي في القرن التاسع عشر فاتحة عهد رخـاء وجمع ثروات . على انه كان عهد رخاء لبعض الناس لا لكل الناس. هذا حديثنا في الفصل التالي .

٢٠ . التقدم العلمي في الغرب يستثمر الجمود الروحاني في الشرق ويخدم الاقتصاد الاستعماري

●

لقد أطلقنا على القرن التاسع عشر اسم عصر التقدم العلمي . وقد لا نخطىء اذا أطلقنا عليه ايضاً اسم عصر التقدم الاقتصادي والاستعماري.

ان الدول الاوروبية وشعوبها ، التي بلغت شأواً من العلم والأدب والفن والاكتشاف ، لم تبلغه غيرها من الدول والشعوب ، أفادت من ميزتها هذه ، وعمدت الى استغلالها ، وطمحت الى توسيع نفوذها في العالم قاطبة ؛ إستدراراً للكسب عن طريق الحروب . فكانت حروب القرن التاسع عشر ، حروباً استعمارية وتوسعيّة .

اوروبا معقل العلم والفن والاختراعات . يجب ان تحكم العالم ؛ وتحتكر خيراته ، وتستخدم ، أو بالأحرى ، تستعبد شعوبه . ولكي يكون لها ذلك ، يجب أن يبقى العالم غير الاوروبي ، متأخراً عن عالمها . فالاستعمار لا يقوم إلا على شرطين أساسيين ومتلازمين ، يمشيان يداً بيد ، وإلا فقد التوازن الذي لا بدّ منه في هذه العملية . هذان الشرطان هما ، رقي الدول المستعمِرة ، وتأخر الدول المستعمَرة .

* * *

لو لم تكن القارة الإوسترالية ، لكانت اوروبا هي الصغرى بين

قارات العالم . ولكن اوروبا هي التي بنت السفن ، وطوعت البحار ؛ وقرّبت الأبعاد ، واكتشفت المجهول في العلم ؛ واخترعت الصناعات وادركت منافعها ، واستدرت منها غناها ، وبنت عليه أمجادها .

ومن قديم الأزمان ، كان الشرق الكبير قبلة أنظار اوروبا الصغيرة ؛ والشرق ، الغارق في روحانيته ؛ غافل عن وجود ما فيه من الكنوز والخيرات ، ولاهٍ عن استثمار دنياه ؛ بما هو موعودٌ فيه وراء دنياه . اذن لتتخذ اوروباً من روحانية الشرق وسيلة لاستثماره في هذه الدنيا ، ولتترك للآخرة أمر تصفية الحساب بين الشرق والغرب . وما دامت الروحانية تمنع الشرق من استثمار دنياه ، فليس صعباً على اوروبا أن تستعير من الشرق روحانيته، وتمزجها بمادية علومها وفنونها ، كي يفتح لها المزج ، باباً مغلقاً ، على كنوز يسيل لها لعابها .

* * *

مما لا شك فيه، أن الروحانية الاوروبية المسيحية، هي أقل أشكال الروحانية معارضة للتطور التقدمي والاجتماعي والاقتصادي . والروحانية المسيحية ، بعد استقرارها في الغرب ؛ جعلت تتطور اكثر مما كانت تتطور في الشرق . وعرف الغرب كيف يستخدمها ، باخراجه اياها عن الميدان الروحاني الصرف ، الى الميدان العملي الصرف . فاستعان بتعاليمها ومثاليتها ، على فتح باب جديد لتغلغله في أقطار المعمورة . كان الغرب في استعماره للشرق ، يحمل في يده الأولى انجيل الروحانية ؛ بينما يحمل في يده الثانية ، مغرياته من العلوم والفنون والاقتصاد . ولقد طالما أهمل الغرب مثالية الانجيل ، مقدّماً عليها هذه المغريات ، إذ كان رائده تحبيب نفسه الى الشرق ، كي يأخذ منه أكثر مما يعطيه ، ان لم يكن عن طريق الملاينة ؛ فليكن عن طريق القسر .

ليس من ينكر على الغرب حسناته . ولكن هذه الحسنات هي حسنات ملازمة لكل تفاعل بين الامم ، مهما كان المقصود منها . وهذه

الحسنات التي ما كان للغرب ان يحول دونها ، ولا كان في طاقته ان يحول دونها ، ولا من مصلحته المادية ان يحول دونها ، لم تكن غير جرعات تخديرية لا أكثر ولا أقل .

قال الغرب للشرق : خذ بعض العلم ، وتمتع بقسط من العيش والكفاف ، وليكن لافرادٍ منك قلائل شيء من الغنائم ؛ ولتكن لهؤلاء السيادة الشكلية على أقوامهم ، كي يساعدوني على بسط سيادتي المطلقة على قطاعاتك الواسعة ، استثمرها انا ، وأعطي شيئاً منها لزعمائك وإقطاعييك ، وسمّهم يا شرق ما شئت ، ملوكاً أو امراء أو مهارجة ، لهم علي حق ، ولي عليهم حقوق . حقّهم علي مساعدتهم على إخضاع شعوبك لهم ، وحقوقي عليهم ؛ التقيّد بأوامري ، وتسهيل سهمي الاستعمارية ؛ واستثمار مرافق القطاعات التي أقمتهم أنا حكاماً وهمين عليها .

* * *

هكذا اقتسمت أوروبا الشرق : لبريطانيا الهند ، وبورما ، وجنوب افريقيا ومصر ، السودان ، وقطاعات مبعثرة في آسيا وافريقيا . ولفرنسا الهند الصينية ، والجزائر ، ومراكش ، وتونس ، ومدغسكر ، وقسم من صحارى السودان ، ومستعمرات أخرى مبعثرة هنا وهناك . ولألمانيا قطاعات في غربي افريقيا وجزر الباسيفيك . ولايطاليا طرابلس الغرب والصومال . ولبلجيكا ، الدويلة الاوروبية ، بلاد الكونغو . ولهولاندا ، الدويلة الاوروبية الثانية ، جزائر الهند ، التي تفوق بمساحتها وعدد سكانها هولندا الأم بعشر مرات . ولروسيا القيصرية قطاعات في آسيا ، يتحكم فيها الدب الابيض ؛ وتلهيه عن التطلّع الى ما وراءها أو قدامها . على أن اوروبا لم تكتف باستملاك البلاد الافريقية والاسيوية ، وانما اقتسمت النفوذ في الاقطار الاخرى التي لم تستطع استملاكها . فالاستعمار له أوجه عديدة منها التملك ومنها الحماية ، ومنها الوصاية ،

ومنها الانتداب ، ألفاظ ومسمّيات مختلفة ، لها معنى واحد ، وغاية واحدة .

* * *

كانت الدول الاستعمارية تختلق الاعذار والمبررات المختلفة لبسط سيطرتها على البلدان المستعمَرة . وكثيراً ما كانت تستعين بالدين لبلوغ غايتها . كانت ترسل مرسليها الى هذه البلدان كي يبشروا شعوبها بالدين المسيحي بغية خلاص نفوسهم وضمان آخرتهم . فكان هؤلاء يتوغلون في داخل البلدان ، ويخالطون سكانها الوطنيين ، ليحملوهم على التنصر ، فيسهل على مرسلي الغرب عندئذ صهر السكان في بوتقة الارساليات الغربية ، وما ترمي اليه هذه الارساليات من غايات ، ظاهرها ديني وباطنها استعماري واستعبادي .. وكان لا بدّ أحياناً من وقوع تصادم بين المرسلين والسكان الوطنيين ، وكان لا بدّ أيضاً من حصول بعض اعتداءات عليهم من هؤلاء السكان ، البعيدين عنهم كل البعد : من حيث العادات والتقاليد والتربية . فتهتز لذلك دوائر الدولة التي ينتمي اليها المرسلون ، وتقوم هذه الدوائر وتقعد ، وتزمجر .. ثم تجيّش جيوشها لتأديب المعتدين بحجة حماية رعاياها والمحافظة على أرواحهم . ولقد طالما اقترفت هذه الجيوش الجرائم الجماعية ، انتقاماً لجريمة فردية ، لو فتشت عن أسبابها ، لتبين لك أنها ما كانت لتقع لو لم يسبقها استفزاز مقصود لغرض مقصود : كان التبشير الديني أهم مهيئات الاستعمار ، وكان المبشرون طليعة المستعمرين .

* * *

كانت الصناعات الذاهبة صعداً في اوروبا ، والمصانع العامرة في مدنها وقراها ، تحتاج الى من يشغلها والى من يموّنها بالمواد الاولية ، والى من يستهلكها . واوروبا الثانية في الصغر بين قارات العالم ، ليس فيها من المساحات ، ولا المنابع ، ولا الموارد ، ولا الزراعة ، ما يكفي لتشغيل

هذه المصانع ، وليس فيها جماهير بشرية كافية لاستهلاك الصناعات . اذن فليأخذ الاستعمار هذه المهمة المزدوجة على عاتقه .. استيراد المواد الأولية من مصادرها بأبخس الاثمان ، واعادة تصدير المصنوع منها الى المصادر نفسها بأغلى الاثمان ، فتغنى الدولة المستعمِرة على حساب الشعوب المستعمَرة . ولتمخر البواخر والبوارج عباب البحور ، في نقل الجيوش الفاتحة ، وفي نقل البضاعة الرابحة ، وليحرص المستعمرون على ابقاء المستعمرين في جهلهم وخلافاتهم الدينية والقبلية ، كي يسهل استخدامهم واستعبادهم . المهم أن يبقى هؤلاء قانعين بالكفاف وما دون الكفاف ، لكي ينعم مستعمروهم بالرفاه ، ويدخل في خلد الطرفين أن الشعوب منها الاسياد ومنها العبيد . ميزة مصطنعة لا تمت الى النزعة الانسانية التي كان — وما يزال — يتستّر بها المستعمرون.

لقد استمر الصينيون طوال الاجيال يتعاطون الافيون ، ينهكون به قواهم ، ويخدرون به عقولهم وأجسادهم . وما كان الاستعمار ، ولا كان مرسلوه الى الصين من مبشرين وقساوسة وتجار ومعلمين ؛ يأبهون بذلك ، بحجة عدم التدخل في عادات الشعب الصيني وتقاليد حياته . ولكن ما أن ظهرت في بعض الأوساط الصينية بوادر الامتناع من تجارة الأفيون ؛ وطالبت هذه الاوساط منع البواخر الاجنبية من حمل الافيون الى الشعب الصيني ، حتى أثار الاستعمار حرباً شعواء على الصين باسم حرية التجارة . وكانت حرب الافيون بين بريطانيا والصين عام ١٨٤٠ .

وما كانت الهند أوفر حظاً من الصين . فالاستعمار لم يعمل شيئاً لوضع حدّ للتقاتل الطبقي بين شعبها ، بل كان يشجع على بقائه واشتداده ، لما فيه من بعثرة جهود الهنود من أجل التخلص من الاستعمار .

ألم يقل لنا التاريخ كيف كان الاستعمار يعمل جاهداً للمحافظة على الانظمة الرجعية والاقطاعية في البلدان التي يطمع بها ، لكي تكون هذه

الانظمة عوناً له على إخضاع شعوبها ؟

ألم ترَ كيف كان الاستعمار يحرص على تقنين العلم في المستعمرات ، لأن العلم الكامل والتفتح على الحقيقة من شأنهما تقويض أركانه ؟

ان جولة في البلدان المستعمَرة تجعل المرء يدرك أية قيمة كانت لهذا التعليم المقنن ، في معاهد أكثرها بدائية وطائفية ، ولا أثر فيها للثقافة التقدمية الانشائية . حتى اذا طمع أحد ابناء المستعمرات بما هو أعلى وارفع من العلم المقدم له في بلاده ، فاهلاً به في معاهد لندن وباريس وروما ومدريد . من هذه المعاهد يتزود العلم ، ويتزود من المبادىء التي يرغب في تصديرها المعلمون والمربون ، والتي لا تتنافى مع تصاميمهم الاستعمارية .

ولكن العقل البشري لا يخلو من جذوة تكمن في احدى زواياه . وهذه الجذوة مهما سعى الانسان لكبتها ؛ فلا مفرّ من اشتعالها يوماً ما ، لتحرق نارها الهشيم اليابس المرصوص . هو ناموس من نواميس الطبيعة ، اذا تسلّط عليه الانسان الى زمن ، فمن غير المعقول ولا الطبيعي أن يتسلط عليه الزمن كله .

* * *

غاندي رسول الهند وقديسها ومحررها ، تلقى علومه في جامعات لندن ، عندما كان الانكليز يحكمون الهند حكماً مباشراً استعمارياً . ولكن غاندي هذا بالذات حرّر الهند من الانكليز . إن غاندي هو المثل الأعلى لمحرري الشرق من استعمار الغرب . ولقد طالما اقتدى به أبطال التحرر في البلدان المستعبدة . قد يقول قائل إن مثل غاندي يدل على ان الغرب لم يقف حاجزاً في وجه انطلاق الشرق ، بل بالعكس ساعد على هذا الانطلاق . ولكن ليس في وسع الواقع أن يدلل على أن مثل غاندي كان هو القاعدة . الحق انه كان من شذوذ القاعدة . اذاً لو عرفت بريطانيا ما كان سيصيبها من هذا الرجل النحيل ، لكانت دبرت امرها

معه وهو على مقاعد جامعتها .

ليس من ينكر على الاستعمار بعض حسناته . ولكن هذه الحسنات لم يكن يأتيها الاستعمار كغاية في نفسها بل وسيلة لغايته منها . ولقد طالما نتج عنها ردّ معاكس من جانب المستعمرين ، الذين علموا أفراداً مثل غاندي ، ثم تبعوهم الى اوطانهم لكي يضطهدوهم ويشردوهم ويسجنوهم ويحدّوا من تأثيرهم في الجماهير ، الغارقة في عبوديتها للاسياد من الاجانب ووكلائهم من الوطنيين بالذات . فالاستعمار قد يهضم وجود متعلمين ومثقفين وطنيين في البلدان المستعمَرة ، شريطة أن لا يحول علمهم وثقافتهم ، دون بلوغ مآربه من بلدانهم وشعوبهم .

* * *

كان لكلمتي الشرق والغرب قبل العصر الاستعماري تحديد لفظي جغرافي وحسب ، فإذا بهاتين الكلمتين بعد العصر الاستعماري ، تعنيان غير ذلك ، إذ أصبحتا ترمزان الى عالمين متباعدين في الفكر والروح أكثر مما هما متباعدان في المسافة أو في علاقتهما بالنظام الشمسي . وكان من مصلحة الاستعمار ان تتسع الشقة بينهما . وهذا ما كان يفعله الاستعمار طوال عهده غير السعيد ، وما تزال فاوله تفعله حتى زماننا هذا . فالاستعمار كان وما يزال آخذاً بفلسفة الكاتب الانكليزي الاستعماري « كبلنغ » في أن الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا .

لقد أدرك الغرب في نهضته أن الحياة على هذه الأرض ليست مرحلة استعداد لحياة أفضل بعد الموت كما تدعي الفلسفة الميتافيزية . وادرك الغرب أن الوجود ، علم وعمل وجهاد ، في سبيل حياة أحسن وأنفع ، هنا في عالم الوجود لا في عالم الغيب . وعندما وعى الغرب هذه الحقيقة ولمس حسناتها ، واستهوته نتائجها ؛ دبّ فيه الشوق الى الشرق ، الغارق في روحانيته ، وجعل يلهيه عن واقعه المحسوس بالغيب المجهول ، كي يبقى عائشاً في وهم الخرافات والاساطير معللاً نفسه بعالم آخر ،

تاركاً للغرب هذا العالم . لقد عرف الغرب كيف يفيد من روحانية الشرق . وكان يساعد على تمكين أواصرها فيه ، كي يترك له وحده المجال للتحكم المطلق بهذه الدنيا . له الواقع الذي في اليد ، وللشرق الخيال الذي لا تطاله يد ولا تراه عين ، ولا يحده إدراك .

* * *

كان التقدم الصناعي في اوروبا والرأسمالية المتأتية عنه ، هو المحور الذي تدور عليه السياسة الاوروبية . وكان فيض الانتاج في اوروبا هو المسيّر لهذه السياسة . كانت وسائل الانتاج ضمن احتكار الدول الاوروبية قبل أن تشاركها في هذا الاحتكار الولايات المتحدة الاميركية . وكان التقدم الصناعي الناتج عن التقدم العلمي هو الورقة التي كانت وروبا تلعب بها على الشعوب المختلفة . كانت اوروبا عن طريق المتشبعين بروح الاستعمار من علمائها ، تفلسف الاستعمار بأنه ذو غاية تمدينية . وتفلسف القيم الانسانية بمنطق المدرسة الاستعمارية . وتجعل من الدين ، ومن الله بالذات إداة لأجشع أغراضها ، وهذا كان أبشع مآسيها . كانت اوروبا ، الديمقراطية والتقدمية الى حد لا بأس به في بلادها ، تناصر الرجعية في البلدان الطامعة باستعمارها . كان همها الاول أن لا تستيقظ الشعوب ، لأن يقظة الشعوب تعكّر على الاستعمار صفو حياته . ولذلك كانت تتحالف مع الاقطاعيين والزعماء الوطنيين ورجال الاديان المتزمتين ، وتغدق عليهم العطاء كي يساعدوها على كبت وعي شعوبهم ، ولكي يزودوها بالعمال والاجراء ، ولكي يزودوها ايضاً بالجيوش في حروبها الاستعمارية والتوسعية . كانت اوروبا تمنع التصنيع في مستعمراتها بقصد ترويج استهلاك صناعاتها هي وبيعها للناس بأغلى الأثمان ، بينما كانت تشجع الزراعة في المستعمرات كي تحصل على مواد اولية لصناعاتها ، ولكي تقوّي القوة الشرائية عند المستعمرين . كانت الهند والصين مثلاً تتخبطان بأفدح فوضى ، رجعية

ودينية وتقاليدية . ولم يكن الاستعمار يعنى بعمل شيء لاصلاحها بحجة انه لا يريد التدخل بتراث الشعب الهندي أو الصيني . ولكنه لم يعفّ عن التدخل بالفعل تدخلاً عسكرياً عندما ارتفع صوت من الصين ضد تجارة الافيون فأضرمها حرباً وحشية على الصين . ولم يعفّ عن التدخل بالفعل تدخلاً عسكرياً عندما ارتفع صوت غاندي في الهند لإصلاح حالة الشعب الهندي . وكما كان أمر الاستعمار في الهند والصين هكذا كان في كل بلد مستعمَر . كان الاستعمار يرى في مثل هـــذه الأمور مجالاً لبسط سيطرته عن طريق التفرقة وعلى قاعدة « فرق تسد » . وكان تخلّف الشعوب وتناحرها يسهّل أمامه الطريق ليفرّق ويسود . كان التقدم العلمي والصناعي في اوروبا غنماً لها . بل الأصح ان يقال انه كان غنماً للطبقة الفوقية الخاصة فيها ، ولكنه كان غرماً على شعوب المستعمرات .

٢١ . الطبقة الثالثة تتمخض
فتلد الاشتراكية

●

نعني بالطبقة الثالثة جميع فئات الشعب التي تكادح لتعيش ، وجميع الفئات التي لا يتوفر لها العيش إلا بعملها وكدّها واجتهادهـا وعرق جبينها . هي الفئات التي لا تفتح أعينها على ثروة هابطة عليها لا من أب ، ولا من جدّ ، ولا من نسيب . هي الفئات التي لا تعيش على امجاد اسلافها ، ولا تستثمر الشعب غيرها ، ولا تنعم من شقاء الآخرين. الطبقة الثالثة هي العامل ، والفلاح ، والزارع ، والطبيب ، والمهندس، والكاتب ، والفنان ، وكل من يعمل ليعيش . هي تسعون بالمائة من مجموع الشعب .. هي الشعب .

في عصور الاقطاعية ، كانت هذه الفئة مستعبدة لأسيادها اقطاعيي الأرض . وعندما خطت الحضارة خطوتها الأولى ، وتقـدم العلم ، واخترعت الآلة ، واكتشفت الطاقـة الكهربائية ، وانشئت المراكب التجارية والحربية ، وسهلت الأسفار بـين الأقطار البعيدة والقريبة ، وانفتحت ابواب التجارة على مصاريعها ، تحولت الحضارة الاقطاعية الى حضارة استعمارية ، وظهرت فئة ثانية في الشعوب ، أفادت من التقـدم العلمي والصناعي والتجاري ، وجعلته طوعاً لرغباتها ، ومعيناً لها على

الأرباح ، واستخدامها لرفاهيتها . كان ذلك نذيراً بانهيار الحضارة الاقطاعية وقيام حضارة اكثر تقدمية منها ، وهي الحضارة الرأسمالية البورجوازية . فما لبث اقطاعيو الارض ، ان وجدوا انفسهم في حاجة الى جماعة الصناعيين والتجار والرأسماليين . فجعلوا يستدينون منهم الأموال للمحافظة على تراثهم ما امكن . غير ان تراثهم هذا أخذ بالانكفاء شيئاً فشيئاً تجاه سلطان العلم والمال . وكانت ولادة الطبقة الثانية اي طبقة البورجوازية ، التي انتزعت من الطبقة الأولى سلطانها ومكانتها . وأصبحت صاحبة النفوذ الأكبر في تسيير دفة الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فدخل ممثلوها الى المجالس ، واشتركوا في بادىء الامر في سن الشرائع وما عتموا حتى أخذوا ينفردون في وضعها ، وكان رائدهم دائماً احلال النفوذ المالي محل النفوذ الاقطاعي . كان ذلك خطوة مشكورة في التطور نحو الديمقراطية .

غير ان دخول ارباب العمل والصناعة والتجارة في الحياة البرلمانية ، وما احدثه ذلك من تأثير في التشريع والسياسة والتحول الاجتماعي ، خلق مشكلة جديدة لم يتغير عليها إلا الشيء اليسير اليسير . كانت في الحضارة الاقطاعية مستعبدة للاسياد الاقطاعيين : وبقيت في الحضارة البورجوازية مستعبدة للاسياد الماليين والمستثمرين . فهي لم تتحرر من العبودية إلا بمقدار ما بين العبودية للاقطاعيين وبين العبودية للرأسماليين ، من فروق تكتيكية ودهائية وايهامية ، يبرع فيها الرأسماليون اكثر مما يبرع فيها الاقطاعيون .

ان الطبقات الاجتماعية الثلاث — الأولى والثانية والثالثة — لم تولد كلها دفعة واحدة ، بل خلقتها الواحدة بعد الأخرى ، تطورات المجتمع التاريخية ، تطوراته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمعيشية . بل يجدر القول ان كلاً من هذه الطبقات تمخضت عن ولادة الطبقة التي بعدها .

* * *

ان من يتابع مجرى الحوادث ، ويتدارس تطورات المجتمع ، ويدقق في العوامل والاسباب الدافعة ، والنتائج الحاصلة ، يتبين له بجلاء ، ان البورجوازية هي وليدة الاقطاعية ، كما ان الاشتراكية هي وليدة البورجوازية . ان الاقطاعية خلقت البورجوازية على الرغم من ارادتها عندما وجدت انها في حاجة الى اموال التجار والصناعيين ، والى ما اكتسبوه من معرفة كانت هي غافلة عنها . فكان رجوعها الاضطراري اليهم سبباً في رفع شأنهم ، واعترافاً منها بحقوقهم ونفوذهم . هذه الحقوق التي أخذت تتزايد مع الزمن والحاجة ، والتي كان يقابل تزايدها من جهة ثانية ، تناقص في حقوق الاقطاعيين . وبنفس الطريقة خلقت البورجوازيةُ الاشتراكيةَ ، عندما رأت ان لا مندوحة لها من محالفة « العمل » ، واضطرارها اليه ، لتشغيل مصانعها ، وتوسيع تجارتها ، وزيادة ارباحها . فرأس المال بدون عمال لا يثمر ، والارض بدون فلاحين لا تعطي غلّة . على ان العمال والفلاحين ، اما قنعوا بكفاف العيش في بداية الامر ، فليس معقولاً ان يستمروا في قناعتهم بالزهيد ويتركوا لرأس المال ان ينعم وحده بالكثير . هؤلاء لم يكن ليفوتهم لزمن طويل ، أن السعة التي جاءت نتيجة لازدهار الصناعة والتجارة والملاحة ، ما كانت لو لم يكونوا هم . فمن حقهم إذن مشاركة رأس المال فيها . هذا ما يعنيه القول ان الاشتراكية تكوّنت جنيناً في رحم البورجوازية الرأسمالية ، تماماً كما تكوّنت البورجوازية جنيناً في رحم الاقطاعية . سلسلة تاريخية علمية ، لا يحتاج تفسيرها الى فلسفة ولا الى عبقرية .

* * *

الثورة الفرنسية قامت علي سواعد الطبقة الشعبية الثالثة . هؤلاء هم الذين سفكت دماؤهم . وهؤلاء هم الذين هدموا الباستيل معقل الطغيان وقوّضوا اركان الملكية المستبدة . ولكن ما ان هدأت الثورة حتى ظهر بجلا الدهاء البورجوازي ، واستأثر بالحكم دهاة البورجوازيين ، فحكموا

باسم الشعب ، ولكنهم لم يحكموا لمصلحة الشعب ، بل حوّلوا حكم الشعب الى امبراطورية على رأسها امبراطور بدل الملك ، لم يكن الأول أقلّ تعنجهاً واستبداداً من الثاني ، ولا اكثر منه اخلاصاً لعامة الشعب، او اكثر اهتماماً بمصالح الشعب الحيوية ، إلا بما سنّه من قوانين وشرائع ، ما أساء إليها أحد اكثر مما أساء اليها واضعها . فنشأت طبقة بورجوازية جديدة ما لبثت حتى جعلت تتآمر مع الملوك الاوروبيين الذين قهروا نابليون ، وأعادت الملكية ، وأطاحت بمبادىء الثورة . غير انه ليس سهلاً ان يقضى قضاءٌ تامٌ على روحٍ تغلغلت في عامة الشعب ، بمجرد إعادة ملك او امبراطور الى العرش . فقطع الشجرة لا يمنع بذورها من ان تعود وتنمو . وقد نمت بالفعل مرتين ، وأينعت مرتين ، وقطعت قوى الشر أشجارها مرتين ، ولكن خميرتها لم تمت ، بل بقيت حية ، وبقيت أملاً لوثبات جديدة ، لا زال يسجلها التاريخ كل يوم .

* * *

كانت الاشتراكية في بادىء الأمر فكرة مثالية . غير أنها كانت قليلة الوضوح ، إلا بمقدار ما أوضحها اشتراكيون مثاليون انسانيون ، من طراز « سان سيمون » و « وفور نيه » و « برودون » و« اوين» الذين كانوا يبشرون بنظام اشتراكي ، مستوحى من مبدأ الأخوة البشرية ، والعدل الاجتماعي ، وتوزيع الثروات ، ومنع الاحتكارات . نظام تشرف عليه مجالس مؤلفة من أصحاب العمل والعمال ، صلاحيتها توزيع الارباح على الذين يجنونها ، اي على اصحاب الرساميل وعمالهم . كانت هذه الاشتراكية اشتراكية انسانية طوباوية ، ليس فيها شيء ، او ليس فيها إلا القليل القليل ، من المرتكزات العملية والمادية ، إذ انها أبقت على حيازة الرأسماليين لرؤوس الاموال ، وعلى حيازتهم

لوسائل الانتاج ، مكتفية بإشراك العمال بالارباح ، توصلاً ، في زعمها ، الى عدم تجمع الثروات . فكان قصورها في تفهم وتفهيم الحقيقة الاشتراكية سبباً لقيام اشتراكيات متعددة ومتباينة في وجهات النظر ، منها الاشتراكية الديمقراطية ، والاشتراكية النقابية ، والاشتراكية التعاونية ، والاشتراكية التبادلية او الاصلاحية ، والاشتراكية المسيحية ، إلى آخر ما هنك من انواع واشكال ومسميات . من هذه الفوضى في مفهوم الاشتراكية ، انبثقت الاحزاب الاشتراكية في الدول ذات الأنظمة الدستورية ، وخيل لبعض الناس ، ان الاشتراكية يمكن تطبيقها ضمن نطاق هذه الانظمة ، دونما رجوع الى المبدأ العلمي المادي والتاريخي ، ودونما مساس بنظام إبقاء وسائل الانتاج في حيازة الرأسمال وحده .

وكما أسيء فهم وتطبيق الديمقراطية من قبل مثالييها ودعاتها وأتباعهم كذلك أسيء فهم وتطبيق الاشتراكية من قبل اتباعها الطوباويين . وبقيت مفاهيم الاشتراكية كمفاهيم الديمقراطية على ذمة فلاسفتها ، على اختلاف نظراتهم الفلسفية وعلى اختلاف نظرتهم الى الحقيقة الحياتية .

وعلى الرغم من تكون الفكرة الاشتراكية في جنين الحركة الديمقراطية فقد بقيت فكرة في الضمير ، تتجاذبها تيارات السياسة واتجاهاتها ، ويتزعمها زعماء احزاب سياسية ، او زعماء منظمات شعبية ، امثال « لاسال » و « ببيل » و « ليبنخت » بغية الوقوف ضد الديكتاتورية والطغيان . ومع ان اشتراكية هؤلاء الآخرين كانت اكثر عملية من اشتراكية « سان سيمون » و « فورنيه » و « برودون » و «اوين» ولكنها لم تكن عملية إلا بمقدار ما توحي به السياسة في هذا البلد او ذاك ، إذ ان العنصر السياسي فيها كان غالباً على العنصر الاقتصادي والمعيشي .

...

مما لا شك فيه ان التيار التحرري الذي انبثق من الثورة الفرنسية ،

كان بمثابة السماد المغذّي لنمو البذرة الاشتراكية واخراج فكرتها من طيات الضمير الى نور الوجود . فالحركات الشعبية التحررية التي أخذت في الاتساع ، أحدثت تأثيراً فعالاً في النظم القائمة ، على الرغم من مقاومة الساطات لها ، وبذلها أقصى الجهود الترقيدية احياناً ، والزجرية احياناً أخرى ، لوقفها ، او للحدّ من فعاليتها على الاقلّ . ذلك لأن الحاجة وغريزة حب البقاء ، أملتا على السلطات ، ان تساير رغبات الشعوب بعض الشيء . فما كاد القرن التاسع عشر ينتصف ، حتى جعلت الدول تسنّ قوانين من شأنها القضاء على العبودية . وما تأخرت دولة من الدول الاوروبية عن تحرير العبيد والاقنان فيها تحريراً قانونياً . حتى في روسيا ، وفي إبان الطغيان القيصري ، أمر الامبراطور اسكندر الثاني بهذا التحرير القانوني ، اتقاء للتحرير الحقيقي الكامل . على ان اكثر ابطال الحرية الديمقراطية اخلاصاً كان « ابراهيم لنكولن » رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، اذ ان هذا الرئيس لم يكتف بشرعة سنة ١٨٦٣ القاضية بإطلاق الحرية لجميع سكان الولايات بما فيهم الزنوج في الجنوب ، بل اضرمها حرباً أهلية ، دامت سنوات بين مدّ وجزر حتى ظفر لنكولن بمبتغاه ، وانتصرت قوى الحرية على قوى الاستعباد والعبودية . ومع ان قوى الرجعية والعبودية تمكنت بعدها من الانتقام من لنكولن البطل عندما دبّرت مقتله على يد رجل معتوه ، فما استطاعت هذه القوى القذرة ان تقضي على فكرة لنكولن الخيِّرة . ان لنكولن سيبقى في التاريخ نجماً ساطعاً ، ليهتدي به أبطال الحرية وأعلامها في كل آن وأوان .

غير ان ثورة لنكولن على جلال خدمتها لقضية الحرية ، لم تتعدّ نطاق الحرية بمفهومها البورجوازي ، ولم تدخل في حسبانها الأسس المبدئية ، العلمية والاقتصادية ، للحرية الشاملة للطبقات العامة . ولم تكن والحالة هذه ثورة تحررية اشتراكية ، هذا مع الاعتراف بأنها فتحت باباً كان

موصداً ، لحركات تحررية أوسع وأشمل . كانت ثورة لنكولن التحررية الشرارة التي ألهبت الضمائر ، لإشعـال ثورات اكثر جذرية ، تحرّر الانسان ، ليس فقط من الطغيان الحكومي . الطغيـان العنصري ، بل تحرره ايضاً من العوز والفقر والجوع والحرمـان ، ومن أسباب الحيـاة المادية قبل كل شيء . هذه الشرارة اللنكولنيّة المقدّسة ، وغيرها من الشرارات المماثلة ، كانت اللهب الذي انطلقت منــه الشرارة الاقوى والأعمّ شرارة « كارل ماركس » واشتراكيته العلمية المادية التاريخية التي لا اشتراكية حقيقية غيرها .

* * *

ولد كارل ماركس من ابوين يهوديين عام ١٨١٨ في مقاطعة الرين من اعمال المانيا . وكان في فتوته حـاد الذكاء ، كثير الضجيج ، عنيداً في رأيه ، فظاً مع رفاقه خارج البيت ، عصبي المزاج ، ضعيف البنية ، جريئاً في اقواله وتصرفاته ، محباً الاطلاع على كل شيء ولو كان ذلك لا يتناسب مع سنّه مما جعله عديم الانسجام مع أبيه المسالم والمجامل ، وعديم الانسجام مع معاشريه .

وأفاق كـارل ماركس على المانيـا مقسّمة الى ولايات ودويلات ، صغيرة ومتفرّقة ، يحكمها ولاتها وأمراؤها وملوكها حكماً استبدادياً ، بينما كان الشعب يرزح تحت نير الطغيان السياسي والاقتصادي والمالي. كما أفاق ايضاً على شيوع حركات ثورية في بلاده وخارج بلاده ، ان دلّت على شيء فانما تدلّ على ما كانت تعانيه الشعوب من ظلم وألم ومرارة.

كان كارل مارس طموحاً الى اقصى حد ، كما كان أبوه طموحاً ايضاً . على ان الفرق بين طموح الاب والابن ، هو ان طموح الاب كان من النوع التعاملي الهادىء ، المسالم ، التساومي ، بينما كان طموح الابن من النوع الثوري التفاؤلي .

وكان اليهود في ذلك الحين مبغوضين ومضطهدين ومحتقرين . فرأى

الأب – ولربما بدافع من الابن الطموح الثائر – ان ما يطمح اليه هو وابنه ليس بالامكان بلوغه اذا استمرّا معتنقين الديانة اليهودية المضطهدة. وقد سهّل لهما هذا الامر، وفاة جدّة كارل المتزمتة في مذهبها اليهودي والمتعصبة له.

وخطا كارل خطوته الجديدة اثر دخوله الجامعة في السابعة عشرة من عمره. واقتحم الحياة بنهج ثوري عنيف. وجعل يتفحّص الفلسفة «الهيغلية» المالكة سعيدة في ذلك العصر، تفحّص الناقد المدقّق. وما كان يتهيب الاصطدام مع اتباعها وحاملي لوائها الكثُر. وحمل سيفاً حادّاً في محاربة مثاليتها. وضربها في النقاط الضعيفة التي بنيت عليها. وأخذ من ديالكتيكها سلاحاً ضدها. وطلع بديالكتيك جديد مستوحى من الحقائق العلمية المادية لا من الفكرة المثالية التي تستوحيها فلسفة هيغل، إذ لم يكن عند ماركس إيمان بشيء الا بما يدلّه عليه العلم والواقع التاريخي.

ان فلسفة هيغل تقوم على اساس مادي وروحي معاً، على اعتبار ان الروح شيء مستقل هو من ابداع الفكرة. فالروح الهيغلية، وان اختلفت في فلسفة هيغل عن الروح «الروحانية» التي يبشر بها الفلاسفة الروحانيون، إلا انها روح مثاليه من فكرة مثالية، ومن عقلانية انسان مثالي ابتدعه هيغل وانزله منزلة الإلٓه. وعلى الرغم من نكران هيغل لوجودية «الكائن العلي» كما تقول به الاديان، ففلسفته لم تخل من شيء مثالي مجهول، فيما وراء الطبيعة البشرية وماديتها، هو الفكرة. اذن لم يكن لفلسفته بدّ من خلق روحية مثالية، ليس لتطور المادة العلمي، ولا لصقل وتطور المادة الدماغية، المنبثق عنها العقل، يدٌ في التدرج للوصول اليه. هذا ما يجعل ديالكتيك هيغل ينتهي عند حاجز لا يدرك ما وراءه إلا بالحدس او بواسطة فكرة مثالية. من هنا كان الاختلاف في تفسير فلسفة هيغل بين تلامذته بالذات، بين الروحانيين

منهم وبين الماديين . وكان كارل ماركس ، من بين الفئة الثانية ، اكثرهم صلابة وأشدهم عنفاً في تخطيه فلسفة هيغل وديالكتيكها .

* * *

اتخذ كارل ماركس الداروينية البيولوجية اساساً لفلسفته الاشتراكية العلمية ، واستمد منها نظرياته الاجتماعية والاقتصادية وبالتالي السياسية ، الانسان لم يخلق انساناً بل صار انساناً تبعاً للناموس الطبيعي في تحويل الانواع الحيّة . والانسان منذ صيرورته انساناً ، آخذٌ بالتدرج صعداً تبعاً للناموس الطبيعي نفسه . الجدّ الاول كان يعيش في الادغال، ويأكل من صيد الحيوانات ، ويسكن المغاور ، ويتكلم بنبرات صوتية . ثم دفعته الحاجة الى الاشتراك مع ابناء جنسه ، كي يتمكن من بلوغ ما تصوره له احلامه ، وما يشبع رغباته وشهواته . ثم دلّه ادراكه الفطري على انه لن ينال ما يشبع فيه هذه الشهوات وهذه الرغائب الا اذا سعى للحصول عليها . فجعلت تنمو من جراء هذا الادراك ، تلافيف دماغه اكثر فاكثر ، واصبح يمتاز عن اعلى الانواع الحيّة بميزته الادراكية ، التي تسمّى العقل المدبّر والخلاّق . هذا العقل هو اذن وليد المادّة الدماغية . انه هو الذي يستنبط الفكرات تبعاً للحاجة والضرورة . وهو يتطور كلّما تغيّرت الحاجة . وهذا العنصر الجديد في الانسان ، أي العقل ، هو الذي جعل منه الكائن الاعلى بين الاحياء ، وهو مستنبط كل فكرة ، سواء اكانت دينية ام اجتماعية ام عقائدية ، وهو بالتالي خالق الروح لا مخلوقها .

* * *

كان كارل ماركس داروينياً في علمه وفي فلسفته . فاذا كانت الداروينية تقوم على الصراع بين الفصائل الحيّة ، واذا كان هذا الصراع هو الذي أوصل الانسان الى حالته الحاضرة ، التي جعلته الارفع بين كل

الكائنات الحيّة ، فلماذا لا تسري هذه القاعدة الصراعية في الطبيعة على المجموعات البشرية ، وبين مختلف طبقاتها الاجتماعية ، بحيث ينتج عنها مجتمع ليس فيه طبقات تتصارع ؟ فما دامت بيولوجية الحياة تقوم على المبدأ الصراعي ، فاجتماعية الحياة ، لا بد وان تقوم على هذا المبدأ. وما هو الصراع الاجتماعي ؟ هو العمل ، والكدح ، والخلق ، والابداع ، والنفع الذي يحصل من الكدح والخلق والابداع . الصراع الاجتماعي هو صراع عمل وانتاج وحركة ، ليس فيه جمود ، ولا حظوظ ، ولا ظروف خارجة عن إرادة الانسان وكفاحه . والذي ينتصر في هـــذا الصراع ، هو العامل والكادح ، لا فرق بين أن يكون عمله عقلياً أم يدوياً ، وليس الخامل ، والمستسلم والمتواكل على الظرف والحظ ، وعلى ما يهيئه له الظرف والحظ ، دونما مشقة ولا تعب . على هذا الاساس بنى كارل ماركس صرحه الاشتراكي . ومن هنا بدأ حملته العنيفة على الاقطاعية والبورجوازية ؛ على كل فكرة ميتافيزية تبشر بها البورجوازية، وتعتمد عليها في حياتها وبقائها .

* * *

كان كارل ماركس عنيفاً في تحديه للسلطة . وكانت كل تصرفاته جذرية . ولم يكتف باشتراكية من النوع النصفي الذي كـــان سلفاؤه ومعاصروه من الاشتراكيين يعملون لها . ارادها اشتراكية علمية صرفة . وكارل ماركس كان رجل علم لا رجل فلسفات مثالية او غيبية . فكان طبيعياً ان يقابل عنفه من السلطات بعنف اشدّ. فالسلطات لم تكن تهضم الاشتراكيه المثـــالية ، فكيف ترضى باشتراكية جذرية علمية . ظنت السلطات في بادىء الامر ، ان بوسعها مساومة ماركس كما ساومت غيره فأخطأت التقدير . فرأت فيه عنصراً خطراً ، وجعلت تمعن في اضطهاده ، فغادر المانيا ، واخذ ينتقل بين باريس وبروكسل وجنيف ،

حيث لم يلق تفهماً كافياً لآرائه . فانتقل الى بريطانيا ، حيث وجد في « فردريك انكلز » وهو ايضاً نفى نفسه من ألمانيا ، الرفيق الامين ، المتفهّم صوابية الماركسية ، واكثر المخلصين لماركس .

لماذا اختار ماركس وانكلز انكلترا منفى لهما ؟ اغلب الظن ، لانالساطات البريطانية كانت اقل من غيرها تعسفاً على حركة التحرر الفكري.ولربما كان هناك سبب آخر ؛ وهو كون انكلز في سعة مالية بعض الشيء ، تخوله مساعدة رفيقه المعدم على العيش وعلى نشر المبدأ الذي كان الرفيقان يعملان من اجله .

كانت بريطانيا مركز نشاط الرفيقين . ولم يكن انكلز اقل من رفيقه علماً واخلاصاً ، وان كان اقل منه عنفـاً في نشاطه . كان ماركس القائد ، وكان انكلز رئيس اركان الحرب .

* * *

لا ماركس ولا انكلز آمنا باشتراكية مثالية ووعظية . ان الاشتراكية يجب ان تحرر الفرد من العوز ، ومن حاجته الى الرغيف ، ومن عبوديته للرغيف . وكل حرية لا تبدأ من هذه النقطة ليست إلا حرية وهمية . ولن يتحرر الفرد من العوز ما دام المجتمع مؤلفاً من طبقـات فوقية تستغل الطبقات التحتية ، وما دامت وسائل الانتاج في ايدي الطبقات الاولى . والطبقات الفوقية لن تتنازل عمّا ضمن احتكارها الا اذا وعت الطبقات التحتية ، التي هي الكثرة الساحقة ، وانتزعت حقها من مستثمري اتعابها ومستعبدي ناسها . ان التنـاقض المصلحي التاريخي بين الطبقـات الخاصة والطبقات العامة ، لا يزول بدون صراع بينهما . والصراع يعني ثورة الطبقة المستعبَدة على الطبقة المستعبِدة .

* * *

كان ماركس عجيباً في صموده تجاه جميع ضروب المقاومة التي كان

يشنها عليه الرجعيون والاشتراكيون المثاليون . وخاضها معركة قاسية ضد كل هؤلاء . كان يقرع الحجّة بحجّة اكبر . وكان يرد على كل مقالة تكتب ضده . واستمال الى رأيه الكثيرين ممن كانوا يخالفونه. واسس في اتباعه لجنة مركزية ، هي اللجنة المركزية الاممية . ودبج مع رفيقه انكلز النداء المعروف بالمانيفاستو الشيوعي ، واصدره نداء لجميع عمال العالم عام ١٨٦٤ . ودعا الى الثورة العمالية ، ومحق البورجوازية ، واستبدال الحكم البورجوازي بحكم العمال دون سواهم ، ونزع الملكية الفردية إذ هي تؤدي حتماً الى الرأسمالية ؛ وازالة الفوارق الطبقية في المجتمع ، بحيث لا يكون فيه الا طبقة واحدة هي طبقة العمال . وأهاب بالعمال الى الثورة لأن الثورة لا تفقدهم شيئاً ما داموا لا يملكون شيئاً . وختم نداءه بالعبارة التاريخية « يا عمال العالم اتحدوا » .

* * *

على ان ماركس بالرغم من عناده وتمسكه بالاشتراكية العلمية الصرفة ، كان يؤيد الثورات التحررية البورجوازية ، باعتبارها مرحلة في الطريق الى الثورة العمالية . ولكن تأييده للثورات البورجوزاية ، لم تجعله يخفف من حملاته على فلاسفتها ، الذين كان ينعتهم بأبشع النعوت ، إذ هم كانوا يرون فيها مرحلة نهائية . ولطالما كانت رسائله لهؤلاء ، ومقالاته عنهم ، سبباً لنقمتهم عليه وتسفيهه . غير ان شخصية ماركس ، كانت اعظم من ان ينال منها نقدهم او حقدهم. فسعة علمه من جهة، واخلاصه المتناهي من جهة ثانية ، وتجرده عن اي مصلحة شخصية من جهة ثالثة ، جعلت من شخصيته شيئاً اشبه بالاساطير . لقد عاش ماركس فقيراً الى آخر حدود الفقر ؛ وكان المرض ينهش في جسمه . فلا الفقر ولا المرض اثبطا من همته ونشاطه في بث فكرته قولا ، وفي سعيه بتحقيق مبدأه عملا . ويعود الفضل في تحمله فقره ومرضه الى امرأته الامينة الفاضلة ، التي لم تتذمر يوماً من مشاركة زوجها بؤسه وتعاسته؛

وهي التي كانت في بيت ابيها الغني تعيش بسعة . ان الانصاف يقضي بتسجيل دورها في كفاح كارل ماركس . وليس ابلغ ما يدلّ على الحرمان الذي كانت تعيش فيه ، من الكتاب التالي الذي كتبته ذات يوم لأحد اصدقاء العائلة لتطالب منه شيئاً يسدّ بعض الحاجة « صاحب البيت أخطرنا بمغادرته غداً ، لأن الايجار استحق علينا ولا مال لدى ماركس. الاثاث نبيعه لنسدّ رمق الاسرة . « جني » ابنتنا المحبوبة طريحة الفراش فلا قدرة لنا على معالجتها . بعد عذاب تسعة اشهر وضعت ابنتي الثالثة ، وليس لدي ما ألفها به . وهل لدي امرأة هزيلة وتعبة مثلي ان تقدم الغذاء الكافي لهذا الملاك الطاهر الذي يفتح عينيه على الدنيا ؟ لقد تبرع احد الرفاق بليرتين ، وهما كل ما لديه ، لدفع أجرة القابلة ، ولكن كيف ستعيش هذه الطفلة المحبوبة مع اختيها ؟ اني أخفي عن ماركس ما اشعر به من الضيق والخوف ، كي لا اعرقل عليه تأدية اشرف رسالة يقوم بها . اني لا ادري مــاذا اعمل ، فهل بوسعك ان تعمل لنا شيئاً ؟ »

* * *

كان انكلز المعين الوحيد لماركس في مجابهة عثراته المعيشية . وكان يتحايل على شح ابيه ليوفر شيئاً من المال لعائلة ماركس . كان انكلز يقدّر اكثر من اي انسان آخر ، عبقرية ماركس والرسالة التي نذر حياته لها . ولعلّه الانسان الوحيد الذي لم يختلف معه ماركس أبداً . كان لانكلز فضلٌ كبير في نشر المبدأ الماركسي ، سواءٌ في سعة علمه، أم في حدبه على الاسرة الفقيرة ، أم في مساعدة ماركس بالكتابة في الصحف والنشرات عن الاشتراكية العلمية الماركسية . ولطالمــا كانت حكمة انكلز تحد من تأثير شذوذ ماركس في تعامله مع سائر المشتغلين معه بالقضية التي أخلص لهـــا انكلز اخلاص ماركس نفسه . فـكان

الرفيقان كتوأمين يكمل واحدهما الآخر ،حتى اصبح اسم انكلز ملازماً دائماً لاسم ماركس . وعندما توفي ماركس ، بقي انكلز حاملا لواء الماركسية ، واتم القسمين اللذين تركهما ماركس من مؤلفه « رأس المال » . فجمع مخطوطات رفيقه الاكبر ، ونشرهما على اسمه . وعندما وقف انكلز يرثي ماركس على القبر ، نعته باكبر مفكري العصر ، واكثرهم اخلاصاً ، واسخاهم خدمة وتضحية .

* * *

يعد كتـــاب « رأس المال » موسوعة لا مثيل لها في علم الاقتصاد والاقتصاد السياسي .. فالمؤلف يبيّن كيف ان الناحية الاقتصادية والمعيشية في حياة الانسان ، تشكل نقطة الانطلاق في بناء المجتمع الاصلح ؛ وكيف ان الوفر ، اي القيمة الزائـــدة ، في وسعه ان يمتلك الآلات الصناعية والتجارية ، وكل وسائل الانتاج ، بحيث يجعل العمل شيئاً مستأجراً فقط ، فلا يحصل على شيء من هذه القيمة الزائدة اي الارباح ، مما يجعل القسم الاكبر من الانتـــاج وارباحه من نصيب مالك وسائل الانتاج ، ولا يبقى للعمل الا القسم الزهيد . والانتاج هو حصيلة العمل لا حصيلة وسائل الانتاج وحدها . وهكذا يخلق في المجتمع الواحد طبقات متباينة، الطبقـــات الخاصة وهي صاحبة الوفر ، والطبقات العامة المهملة ؛ التي يستأجرها الوفر في العمل . ويشرح الكتاب كيف يحصل الوفر ، والوسائل التي يستعملهـــا ، والاسباب التي يتذرع بها ، للضغط على العمل كي يبقى هذا مرهوناً له ، وكي يبقى العامل في حالة من العوز يضطر معها الى ان يبقى مستعبداً لرأس المال خوفاً من الجوع ؛ فيفقد بذلك حرمته وحريته . فاما ان يرضى بالاستعبـــاد للرأسمال ويأكل ، واما ان يختار الحرية ويموت من الجوع . وعلى هذا الاستنتاج الاقتصادي العملي ، بنى ماركس نظريته الاجتماعية ، التي تقضي بثورة العمل على رأل المال ،

لكي تصبح الحرية امراً محكماً لا وهماً خيالياً ، ولكي لا تكون الحرية « اثوبيــا » مثاليــة ، اذ ان حرية الجائع والجاهل والمحروم هي حرية كاذبة وغير قابلة التحقيق . من هنا يخلص ماركس الى ان وسائل الانتاج ، يجب ان تكون في ملكية المجتمع ، لا في ملكية فئة خاصة منه . ومن الآن حتى يصبح المجتمع شيوعياً ، يجب ان يكون رأس المال ووسائل الانتاج في ملكية الشعب ممثلا ، في جهاز اسمه الدولة ، المنبثقة من ارادة عامة الشعب وتعمل لمصلحة كل الشعب ، لا منبثقة من ارادة خاصة من الشعب وتعمل لمصلحة ابناء طبقتها فقط ، كما هو الحال في النظام الديموقراطي البورجوازي .

* * *

لقد سلك ماركس في بحثه التطور الاجتماعي مسلك داروين في بحثه التطور البيولوجي . وبيّن ان الصراع بين الفصائل الحيّة الذي جعل من الانسان الكائن الاعلى بين الاحياء ، هو العامل الذي لا غنى عنه لبنـاء المجتمع الافضل . مجتمع لا يكون مؤلفاً من طبقات متباينة الاهداف والمصالح ، لا مناص من ان تتصارع فيما بينها ، كي يكون فيه طبقات مترفة او محظوظة ، وطبقات معدمة ومحرومة ، بل يكون فيه طبقــة واحدة تعيش بالعمل في مختلف نواحيه ، ويأخذ كل عضو فيه على ما يستحقه عمله ، لا على قدر ما تقدمه له ثروة انتزعها بدون تعب من جهود الآخرين ، ولا على قدر ما تستنبطه الطبقة المحظوظة من حيل تشريعية وتنظيمية يمليها عليها جشعها وميلها الى التحكم والسيطرة.فالمراحل التاريخية التي تمر بها الحياة الاجتماعية ، هي شبيهة بالمراحل التاريخية التي مرت بها الحياة البيولوجية . وكما ان الحياة البيولوجية تدرجت مع الزمن بفعل الصراع بين الفصائل والانواع ، هكذا الحياة الاجتماعية تتدرج مع الزمن بفعل الصراع بين طبقات المجتمع المتناقضة المصالح والمتنــاقضة

الاهداف والغايات ، بحيث ينتهي بها الصراع الى مرحلتها الفاصلة التي يصفها ماركس ، والتي من اجل بلوغها ، نشر فلسفته الاشتراكية العلمية التاريخية المادية .

* * *

وضع ماركس وانكلز اسس الثورة العمالية للقضاء على رأس المال ، فاستقبلتها الطبقات العاملة بغبطة وارتياح . واخذت الحركة العمالية تنتشر في اقطار الدنيا قاطبة ، تارة عن طريق الاضرابات ، وتارة بطريق العنف . وكانت الحكومات تقاوم الحركة ، كلٌ منها على طريقتها الخاصة . فبينما كانت انكلترا مثلا ، تعتمد طريقة اللين والمسايرة والمساومة ، وتحسين حالة العمال على قسط لا يؤذي الرأسماليين ، كانت روسيا تجنح الى الشدة والاضطهاد والارهاب ، فتلجيء الطبقة العاملة المضطهدة الى العمل في الخفاء ، اما عن طريق الاغتيالات الفردية ، او اثارة حركات فوضوية . كان ذلك قبل ان يصير عند الطبقة العاملة وعيٌ طبقي سياسي ، وقبل ان تتبلور عندها فكرة العمل الجماعي ، وقبل ان يتولى امر هذه الطبقة حزبٌ منظم ، ويدير حركاتها على اسسٍ غير فوضوية . ومما لا شك فيه ان الثورة العمالية ما غذاها شيء ، ولا رفعها الي المستوى النظامي شيء ، اكثر من التدابير الارهابية والاضطهادية التي كانت تقوم بها الحكومات المستبدة بتأثير من الطبقات الرأسمالية والبورجوازية المحظوظة . وفي الواقع ان الثورة ما انتهت في بلاد كما فعلت في روسيا ، وما ذلك الا لان الطغيان القيصري كان اشدّ وطأة على هذه الحركة من اي بلد آخر . كان ستالين يقول : ان للارهاب والطغيان القيصري فضلا على نمو الثورة العمالية في روسيا.وسيجيء الكلام عن الثورة الروسية في فصل لاحق .

ما من شك ، في ان الثورة الفرنسية ، وانتفاضة لنكولن، والدستور

الاميركي ، وشرعية حقوق الانسان ، كل هذه فعات في قلب المجتمع وتطور الحضارة . وما من شاك ايضاً في ان الفكرة الاشتراكية وجدت قبـــل ماركس بألوف السنين . المسيح ومن قبله كونفوشيوس بشرا بالاشتراكية . احرار القرن السابع عشر والثامن عشر ، نادوا بالمبادىء الاشتراكية ؛ ومنهم من استشهدوا من اجلها. ولكن اشتراكية كونفوشيوس والمسيح وكل الذين اخذوا بتعـــاليم هذين الرسولين الحكيمين ؛ كانت اشتراكية انسانية وحسب ، مبنية على اسس ميتافيزية وروحانية ووعظية ، على اعتبار ان الخالق خلق الانسان على صورته ومثاله ، وان النـــاس متساوون امام خالقهم ، وان العناية لم تفرق بين المخلوقات البشرية ، على ان المفارقات الاجتماعية ليست خطيئة ولا تشكل خطراً . ولكن لا تعاليم حكيم الصين ؛ ولا روحانية المسيحية ، ولا حرب لنكولن ، ولا انسانية المعلمين رواد الحرية استطـــاعت ان تردع الانسان عن استثمار اخيه الانسان واستعباده وحرمانه من حريته ، الى ان ظهر كارل ماركس ، ووضع الاسس العلمية لاشتراكية حقيقية ، مادّية ومحسوسة ، متحدياً بذلك الاشتراكية الانسانية الميتافيزية الصرفة . ومنذ ذلك الحين والصراع قائم بين الاشتراكيتين ، الاشتراكية الانسانية ، صراعها مساومة ووعظ بدون عمل يذكر ، او بعمل ترقيدي وحسب ، والاشتراكية العلمية التاريخية المادّية ، صراعها ثورة ونضال وكفاح وعمل محسوس . ولقد بلغ الصراع اشده عندما تزعمت الاشتراكية الماركسية دولة كبيرة وشعب يعد مائتي مليون انسان ، ونزلت هذه الدولة مع شعبها الى ساحة المعركة بقضها وقضيضها ، شعارها في هذا الصراع « لا هوادة » .

* * *

كانت الطبقة العاملة هي المرتكز الاساسي لاشتراكية كارل ماركس. وكانت الرأسمالية الصناعيـــة تنمو وتنمو في أيامه . وقد تكهن ان تمو

الصناعة لا بد وان يخلق طبقة عمالية ويخلق فيها وعياً مصلحياً. فصوّب كل نشاطه الى هذه الطبقة. وكان يدعو العمال الى التجمع في نقابات، تتدارس فيها شؤونها، وتوقظ فيها الوعي على مصالحها المادية. وكان يحفزها الى المطالبة بحقوقها عن طريق الاضرابات اولا، وعن طريق الثورة ثانياً. غير انه لم يكن يدعوها الى الثورة قبل ان يكون اكتمل وعيها الطبقي، على عكس ما كان يدعو له الفوضويون اتباع الفوضوي باكونين. كان باكونين يعتمد على الطبقـة الفقيرة غير المنظمة. وكان يدعو الى استعجال الثورة. فكان هذا سبباً للقطيعة بينه وبين كارل ماركس. كانت ثورية باكونين ثورية انفعاليـة، وفوضوية، وهدّامة، لا واعية وغير منظمة. وكانت ثورية كارل ماركس ثورية مستوحاة من الحقيقة العلمية والتاريخية، كما كانت واعية ومنظمة وبناءة.

* * *

وما هي الماركسية؟ انقـل الجواب المبسّط على هذا السؤال عن جواهر لال نهرو. يقول نهرو في رسالة لابنته وهو في السجن.

« ان الماركسية طريقة لتفسير التاريخ والسياسة والاقتصاد والحيـاة والنزعات البشرية. وهي نظرية، ودعوة لعمل ما، وفلسفة تتناول جميع نواحي النشاط الانساني، ومحاولة لجعل التاريخ، بماضيه وحاضره ومستقبله، نطاقاً منطقياً يحمل في طياته مصائر محتومة كالقدر. ولقد استعرض ماركس التاريخ القديم كما يفعل العلماء، واستخلص من ذلك نتائج معينة. ولاحظ ان الانسان بدأ منذ وجوده يجاهد في سبيل بقائه ضد الطبيعة وضد اخيه الانسان. ولذا فانه جاهد للحصول على ما يسدّ به رمقه ويكفل له ضروريات الحياة. وكلما مرّ به الزمن تطورت اساليبه في حصوله على حاجيـاته. ويعتقد ماركس ان وسائل انتاج مقومات الحياة، كانت اهم ما يشغل بال الانسان والمجتمع في كل زمان ومكان.

وقد سيطرت وسائل الانتاج على كل فترة من فترات التاريخ ، وتحكمت بالنشاط المجتمعي والعلاقات الاجتماعية . وكلما تطورت هذه الوسائل تطور التاريخ والمجتمع . فعنـــدما ادخلت مثلا لاول مرة ، طرأ تغيير كبير على حياة الانسان . فقد اخذ الرحّل بالاستقرار ، وبناء المدن والقرى . ولما زاد محصول الزراعة ، حصل فائض منها . وازداد عدد السكان ؛ وكبرت الثروة ، وعمّ الرخاء ، وقامت الحرف والفنون . ومن الامثلة الاخرى ، قيام الثورة الصناعية ، التي خلقت فارقاً كبيراً في الحيـــاة على اثر ادخال الآلات الانتاجية الضخمة . وهناك امثلة عديدة . ان مرحلة تطور وسائل الانتاج في فترة ما ، مقياس لتطور الناس في تلك الفترة من التاريخ . فالناس يدخلون فيما بينهم في علاقات تستند على متطلبات الانتاج والمعاملات المترتبة عليه ؛ مثل المقايضة والبيع والشراء والتبادل المالي وغير ذلك . وهذه العلاقات كلها تكوّن الكيان الاقتصادي للمجتمع . وعلى هذا الكيان الاقتصادي ، تبنى القوانين والسياسة والعرف والافكار وما الى ذلك . وهكذا فان تطور وسائل الانتاج ينتج عنه تطور الكيان الاقتصادي ، الذي بدوره ، يخلق تطوراً ملائمـــاً في القوانين والافكار السياسية .

« ونظر ماركس الى التـــاريخ على انه سجل لتنازع بين الطبقات المختلفة ، ويقول : أن تاريخ المجتمع الانساني ، بماضيه وحاضره ؛ عبارة عن تنازع طبقي . والذي يسيطر على المجتمع هي الطبقة المسؤولة عن وسائل الانتاج ، التي تستغل الطبقات الاخرى وتثري على حسابها . فالطبقات الكادحة لا تعوض تعويضاً عادلاً على جهدها ، بل يترك لها فقط ما يسد رمقها ويكفل لها الحاجيات ، بينما يذهب الوفر الفائض الى الطبقة المستغلّة ويزيد ثراءها . وجهاز الدولة والحكومة ، واقع في يد هذه الطبقة القابضة على وسائل الانتاج ، مما يجعل مهمة الدولة حماية هذه الطبقة ، او كما يقول ماركس : « الدولة هي اللجنة التنفيذية لرعاية

مصالح الطبقة الحاكمة كمجموعـــة » . وتسن القوانين لهذا الغرض ، ويميل الناس عن طريق التعليم والدين والوسائل الاخرى ، الى الاعتقاد بان سيطرة هذه الطبقة حق عادل وامر طبيعي . وتبذل جميع الجهود الممكنة عن طريق هذه الوسائل ؛ للتمويه على الناس وستر حقيقة تلك الحكومة وتشريعاتها ، حتى لا تدرك الطبقات المستغلّة الكادحة الحقيقة، ويعتريها التبرم . فاذا عرف رجل ما الحقيقة وتبرم بها ؛ وندد بالنظام القائم ؛ اتهم بعدائه للمجتمع والاخلاق ، وخروجه على العرف والتقاليد وقضي عليه .

« ولكن الجهود مهما عظمت، فانها لا تستطيع وحدها الابقاء على هذه الطبقة في الحكم ؛ لان العوامل ذاتها التي اعطت السيطرة والاستغلال ؛ هي التي تعمل على اضعافها الآن . فقد تمكنت تلك الطبقة من السيطرة والاستغلال لتحكمها في وسائل الانتاج القائمة آنذاك ؛ وعندما تظهر وسائل جديدة للانتـــاج ، تظهر معها طبقات جديدة ترفض ان ترزح تحت اعباء الاستغلال . وتحرك الافكار الجديدة اذهان الناس ، وتشعل فيهم ثورة فكرية تحطم قيـــود المبادىء والعقائد البالية ، فيقوم النزاع بين الطبقة الصاعدة وبين الطبقة القديمة التي تخشى ان يفلت زمام الامر من يديها . ولا بد للطبقة الصاعدة من النصر ؛ لان وسائل الانتاج الجديدة في يديها ، ولا بد للطبقة القديمة التي لعبت دورها في التاريخ، من التلاشي والزوال .

« ويتناول انتصار الطبقة الجديدة الناحية الاقتصادية والسياسية . وهو يعبّر عن انتصار وسائل الانتـــاج الجديدة . ويتلو ذلك تغيير في نسج المجتمع باسره ، من الناحية الفكرية والسياسية والقانونية والعرفية وغيرها. وتصبح هذه الطبقة الجديدة مستغلة لمن كان دونها من طبقات ، حتى تقوم مكانها طبقة اخرى . ويستمر الكفاح حتى يصل المجتمع الى المرحلة التي لا تستغل فيها طبقة ما ، طبقةً اخرى . وهذا لا يتهيأ الا عندما تزول

الطبقات من المجتمع ، وتبقى طبقة واحدة ؛ فلا يبقى مجال للاستغلال ، لان الطبقة الواحدة لا تستغل نفسها . وهذه هي الوسيلة الوحيدة لخلق التوازن في المجتمع ، وقيام التعاون مكان النزاع والتنافس القائمين حالياً. وهكذا يزول الداعي للدولة لفرض سلطتها ، لان الطبقة التي كانت تحتاج الى حماية من اجل استغلالها قد زالت . وهذا بدوره يجعل وجود الدولة غير ضروري ، فتصير الى الزوال ؛ ويتحقق الحلم الذي داعب آمال الفوضويين ايضاً (دون ان يسلكوا الطريق العلمي والتاريخي لتحقيقه .. المؤلف)

« وهكذا كان التاريخ بالنسبة الى ماركس ؛ سلسلة تنازع طبقي محتوم . وقد استند ماركس الى كنز كبير من التفاصيل والامثلة ليشرح لنا كيف تم هذا النزاع في الماضي ، وكيف تطور النظام الاقطاعي الى نظام رأسمالي على اثر قدوم الآلات ، وقيام البورجوازية مقام الطبقة الاقطاعية . ويعتقد ان مرحلة التنازع الطبقي تجري الآن بين الطبقة البورجوازية والطبقة العمالية . فالرأسمالية نفسها آخذة بانتاج الطبقة الاخيرة وتنميتها . وسيكون لهذه الطبقة الاخيرة الغلبة ، وانشاء مجتمع اشتراكي لا طبقية فيه .

« وقد دعيت نظرية ماركس هذه ، « النظرية المادية للتاريخ » . دعيت مادية لانها لم تكن مثالية ، وهي كلمة استعملها الفلاسفة للتدليل على معنى خاص في زمن ماركس . وقد اصبح الناس شغوفين بالمبدأ التطوري . فقد قرّبه داروين من اذهان الناس فيما يختص بنظرية اصول الانواع وتطورها . ولكنه قصّر كلياً في تعليل العلاقات البشرية . وقد حاول بعض الفلاسفة ، ان يفسروا التقدم البشري ، بآراء مثالية غامضة عن تطور العقل البشري . وقد عارض ماركس هذه المحاولات المثالية الهوائية ، واثبت خطأها ، واعتقد ان فيها خطراً يحمل الناس على تصوّر اشياء خيالية ، على انها حقائق مسلّم بها . ودرس ماركس

الوقائع بأسلوب علمي . وهذا هو معنى « المادية » .

« ان ماركس لا يفتأ يتحـدث عن الاستغلال وتنازع الطبقات . وبينما يشعر الكثيرون منا بالحنق والغضب للظلم اللاحق بنا، يقول ماركس، ان هذه الأمور لا تحتـاج الى الغضب والنصائـح الفاضلة . لأن تبعة الاستغلال ليست واقعة عـلى المستغلّ نفسه ، ولكن سيطرة طبقة من الطبقات كانت نتيجة تطور تاريخي ، وسيحل محله في يوم من الايام نظام آخر . فإذا انتمى شخص ما الى الطبقة المستغلّة واستغلّ غيره ، فإنه لم يقترف اثماً يستحق عليه المسبة ، لأنه مجرد عضو في نظام فاسد، وكثيراً ما نغفل التمييز بين الفرد والنظام » .

من هذا التوضيح للماركسية في رسالتـه الى ابنته، يخلص نهرو الى القول : إن الهند واقعة تحت كابوس الاستعمار البريطاني ، ونحن نقاوم هذا الاستعمار بكل ما في وسعنا . ولكن الافراد الانكليز الذين زجت بهم الظروف في هذا النظام ، لا يستحقون اللوم ، لأنهم مجرّد مسامير صغيرة في آلة ضخمة ، لا يستطيعون تغييرها ولا تحريكها . ولا بـد ان بعضنا ناقم نقمة شديـدة على نظام الاقطاع في الهند ، لأنه يضر ضرراً بالغاً بالطبقة الضعيفة ، ويستغلها ابشع استغلال .. ولكن هذا لا يعني ان اللوم يقع على الاقطاعي في هذا النظام . ومثل ذلك يقال في النظام الرأسمالي . فاللوم إذن يجب ان يقع على النظام » .

بهذه الرسالة العقلانية المبسّطة ، شرح نهرو لابنته (التي لعبت فيما بعد دوراً في النهضة الهندية لا سيما النهضة النسائية) في عام ١٩٣٤ وهو في السجن . فأراد نهرو ان يوجّه ابنته ، ويوجه الشعب الهنـدي عن طريقها ، في اتجاه منهجي علمي في محاربته الاستعمار ، الذي هو دعامة كبرى للرأسمالية ، والذي لولاه لما كانت تستطيع الرأسمالية ان تقف على رجليها . إن القضاء عـلى الاستعمار يجرّ حتماً القضاء على الرأسمـالية والامبرالية .

٢٢. حربان وجريمتان

●

الحروب نتيجة حتمية للنظام الرأسمالي والاحتكاري . فالرأسمالية كلما تقدمت وازدهرت ، يزداد طمعها بالكسب وتجميع الثروات . والنظام الرأسمالي في كونه نظاماً فردياً لا بدّ من ان يخلق في المجتمع طبقات غنية وطبقات فقيرة ، طبقات مستغِلّة وطبقات مستغَلة . وعندما يضيق على الرأسمال مجال الربح في بلاده ، ولا تعود صناعاته تجد مستهلكين لها في بلاده ، يتطلع الى خارج بلاده ، حيث يجد مستهلكين، وحيث يجد مواد اولية لتشغيل مصانعه وتشغيل عماله المحليين . والرأسمالية في كونها نظاماً فردياً ، تخلق تزاحماً بين الرأسماليين سواء أكانوا افراداً ام كتلاً . وتخلق في قلب بلادها طبقات غنية من اصحاب الرأسمال والصناعة ووسائل الانتاج ، وطبقات فقيرة ليس لديها من اسباب العيش إلا ايديها . من هنا يخلق التباغض بين الطبقات الغنية والطبقـات الفقيرة ، فينتج عن هذا التباغض حرب الطبقـات . هذا فيما يتعلق بالنظر الى الرأسمـالية الداخلية .

على ان الراسمالية لا يتوقف خطرها على داخل بلادها ، بل يتعداه، وبدرجة ابعد إلى خارج بلادها . إذ انها تستطيع ان تسوّي امرها في الداخل ، ولو الى زمن مـا ، عن طريق الجمعيات الاحسانية لفقراء

الشعب ، أو عن طريق ممالقة العمال وترقيدهم برفع اجورهم ومستوى معيشتهم ، او عن طريق سن قوانين في صالح العمال بعض الشيء كالضمان الصحي وضمان الشيخوخة وما إلى ذلك . غير ان كل هذا ليس كافياً لإرواء ظمأ صناعاتها وتجاراتها ، التي كلما ازدهرت تزداد حاجتها إلى مستهلكين والى مواد اولية لا توفرها لها بلادها . فلا ترى لها مفراً من التطلع الى بلاد خارج بلادها . من هذا كانت سياسة التوسع من صلب النظام الرأسمالي .

فعندما خطت اوروبا خطواتها الجبارة في طريق العلم والاختراعات والاكتشافات ، وازدهرت فيها الصناعة ، وانتشرت فيها المصانع ، وكثرت فيها الآلات البخارية والكهربائية ، وفاض انتاجها عما تحتاجه شعوبها ، كان لا بد لها من مدى حيوي ، تغذي منه صناعاتها بمواد أولية ، وتصرّف فيه الفائض من انتاجها . هذا المدى الحيوي ، طرفه الواحد أسواق تشتري منها (او تأخذ منها بوسائل غير الشراء) المواد الخام ، وطرفه الثاني اسواق تبيع فيها منتوجاتها . هذه الحاجة الى المدى الحيوي ، جعلت اوروبا تتطلع الى بقاع العالم المتأخرة عنها علماً وعملاً ، وجعلها تتسلل الى هذه البقاع بالحجج التي تكفل لها هذا التسلل بطريقة ما ، سلمية كانت ام حربية . فاذا عجزت الأولى فلتكن الثانية . من هذه الزاوية يجب ان ينظر الى الحروب التي شنتها الدول الاوروبية على البلدان المتخلفة ، والتي شنتها فيما بينها بالذات ، بدافع المزاحمة بين دولة اوروبية ودولة اوروبية ثانية .

* * *

إن من يتتبع ببصيرة أحداث التاريخ في القرن التاسع عشر ، لا يكاد ينتهي من مطالعة اخبار حرب ، حتى يطالع اخبار حرب ثانية ، اكثر فتكاً ووحشية من الحرب الأولى ، وأبعد مدى منها . فالحروب كانت دائماً ، ولما تزل ، اقتصادية في الغاية وعسكرية في الوسيلة . وكل ما

يقال عكس ذلك ، كأن يقال مثلاً ان هذه الحرب او تلك هي حرب ايديولوجيات ، او حرب من اجل التمدين وما الي ذلك ، فهو من قبيل الدجل والنفاق .

ما من دولة اوروبية دخلت مستعمرة من مستعمراتها إلا والسيف في يدها . وما من مرة امتشقت احدى الدول الحسام ، إلا وادّعت انها لم تكن لتفعل ما فعلت ، لولا حرصها على السلام والأمن . بالتقتيل تدعي المحافظة على الارواح . وبالتدمير تدعي نشر المدنية والعمران . وبالاستعباد تبشر بتحرر الشعوب . ومن نكد التاريخ ، ان يكون المؤرخون ، كلهم او جلهم ، من ابناء الدول المعتدية والمستعمرة ؛ فيسخّر هؤلاء ما اوتوه من علم ومن معرفة وبلاغة ، لتشويه حوادث التاريخ ، وتكييف أخبارها لمصلحة حكوماتهم ، ويظهرونها بمظهر المدافع عن الحق والعدالة والمثالية الانسانية ، كما لو كانت هذه المثل كلها منبثقة من مصالح المستعمرين ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بها .

ولكن هل يكون التاريخ مجرّد سرد حوادث ، دونما نظر الى اسبابها ومسبباتها ونتائجها ؟ إذا كان هذا هو التاريخ فقط ، فليت علم التاريخ ما كان وما كان مؤرخون .

ان المؤرخ إما ان يكون مسجلاً للحوادث فقط ، وهذا لا يعد عالماً في التاريخ ، وإما ان يسجل الحوادث ثم يفسرها ويستوحي العبر منها ، ويحكم عليها من اسبابها ، ويستخلص منها نتائج يكون لها مفعولها فيما سيحدث بعد الذي حدث . هذا يعني ان علم التاريخ هو اكثر من مجرد تسجيل . إنه علم يشمل فلسفة التاريخ بكل ما تنطوي عليه كلمة فلسفة من معنى . من هذه النظرة ، سنأخذ من مجرياته استنتاجاتنا عن تأثير هذه المجريات في التطورات الحضارية التي حصلت في القرن التاسع عشر وما بعده .

* * *

لم يكن بدّ من ان تقع خلافات بين الدول المستعمِرة ، اذ ان كلاً منها تبغي الحصول على اكثر مما تحصل عليه دولة غيرها . فالاستعمار في طبيعته جشع . والمستعمرون تتفاوت درجة جشعهم ، وتتفاوت درجة امكاناتهم . كل دولة ترغب في ان تكون حصتها من الأراضي المستعمرة اكثر من حصة غيرها ، وان تكون الشعوب الخاضعة لها اكثر عدداً من الشعوب الخاضعة لزميلتها في الجشع وعدوتها في المزاحمة . الدول الاستعمارية تدرك انه لا بد من ان يقع النزاع فيما بينها . بل لا بد من ان تتحارب يوماً على قسمة المنهوبات . وفي حرصها على ان لا تضحى دماء ابنائها بالذات في هذه الحروب ، تحاول ان يكون تحت سلطتها شعوب متخلفة تحارب عنها ، وتضحي دماء ابنائها بدلاً من ان تضحي دماء ابناء الدول المتسلطة . حتى الدماء البشرية ، المتساوية طبيعياً وفسيولوجياً ، هي بنظر الدول الاستعمارية على نوعين ، دماء رخيصة هي دماء ابناء الشعوب المستعمَرة ، ودماء غالية هي دماء ابناء الشعوب المستعمِرة .

على ان الاستعمار يحمل في طياته جرثومة موته . ذلك اذ يبلغ الطمع حده الأقصى ، ويعمي الجشع ابصار المستعمرين بالذات ويتملكهم البغض والحسد ، ويمساك بعضهم برقاب البعض الآخر ، فيتحاربون ويتقاتلون . وعندها تتنفس الشعوب المستعمَرة الصعداء، ويتفتح امامها باب الخلاص . هذا هو أمل الضعفاء عندما يقوم المستعمرون على بعضهم ويتكسّر فخّارهم على فخارهم .

من هذا نستطيع القول ، إن الحرب العالمية الاولى بين المستعمرين الجبابرة عام ١٩١٤ ، كانت نقطة تحوّل في تاريخ الشعوب ، كما كانت بداية مرحلة تقهقرية في الحضارة الاستعمارية (إذا جاز القول بحضارة استعمارية) ان حرب عام ١٩١٤ كانت بداية نهاية الاستعمار .

* * *

كانت الحرب العالمية الأولى نتيجة حتمية للنزاع القائم بين الدول

الاوروبية الكبرى والتزاحم على النهب فيما بينها . كانت الحرب البلقانية عام ١٩١٢ علامة الخطر . وجاءت بعدها الحرب الايطالية العثمانية في طرابلس الغرب ، القطر الافريقي الواسع الذي كانت تطمع فيه ايطاليا بناء على وعدٍ سابق من زميلاتها الدول الاوروبية . وكانت الدول الاوروبية على حذر بعضها من بعض وبدا لها ان ما كانت تسميه بالتوازن الدولي آخذ بالاختلال. والتوازن الدولي له عند كل دولة اوروبية مفهوم يختلف عن مفهومه عند غيرها . وباسم هذا التوازن والمحافظة عليه ، اندلعت الحرب ، وقلبت التوازن الذي لم يكن بدّ من ان ينقلب .

* * *

لقد نقم غليوم امبراطور المانيا على توازن دول بطلته وبوليسه بريطانيا . ورأى هذا الامبراطور المتهوس جداً والمغرور جداً ، ان في هذا التوازن غبناً عليه ، وافتئاتاً على ما سمّاه حق المانيا في الاستعمار ، وهي الدولة الاكثر نشاطاً من غيرها ، وشعبها هو الشعب الاكثر تقدماً في العلم والصناعة والعمران . فالمانيا اذن تستحق ان يكون نصيبها من المستعمرات اكبر من النصيب المعترف لها به . وغضبت بريطانيا ماسكة الميزان . وغضبت معها فرنسا حليفة بريطانيا وعدوة المانيا . وكانت بريطانيا وفرنسا غيورتين على التوازن الذي كان قائماً لانه توازن في مصلحتهما ، إذ كان يعطيهما اكثر مما يعطي المانيا الغاضبة . وألح غليوم بالمطالبة . وألحت بريطانيا بالرفض . كان غليوم يشحذ السلاح كي يحصل بالسلاح على ما يحصل عليه بالسياسة والمساومة . وعندما غضبت الدولتان بريطانيا وفرنسا عمدتا إلى مقابلة غليوم بالمثل . وانحازت لهما روسيا القيصرية . فوقعت الحرب بين الخصمين الطمّاعين . وما لبثت هذه الحرب حتى جرّت الى اتونها العالم اجمع في حرب عالمية دامت اربع سنوات ونيفاً .

* * *

لا مجال للبحث في هذا الكتاب عمن كان المسؤول الأول عن الكارثة، وانا لست مستعداً أن اوافق الحلفاء المنتصرين على ان مسؤولية الحرب انما كانت على المانيا وحدها . فالحكم الذي صدر بعد الحرب من جانب الحلفاء المنتصرين بالقاء المسؤولية على الدولة الالمانية فقط ، يشك في قيمته التاريخية والانسانية . فالمانيا لم تكن أكثر جشعاً من بريطانيا وفرنسا . وبريطانيا وفرنسا لم تكونا اكثر انسانية من المانيا . ودعنا نترك جانباً الدول الأخرى التي اشتركت بالحرب مع هذا الطرف او ذاك ، إذ ان هذه الدول انجرّت انجراراً من كلا الجانبين ، يحدوها هي ايضاً الطمع في الكسب . إن الرأسمال في الدول المتحاربة كلها، كان هو الذي يتحارب فيما بين أطرافه المتساوية في الجشع . فاذا كانت النار التي اشتعلت في اوروبا إنما أشعلها ثقاب من صنع الدول الثلاث ، بريطانيا وفرنسا والمانيا، فالدول الأخرى التي دخلتها قدّمت الوقود للنار المشتعلة . إن المسؤول الاول عن الحرب كان الجشع الرأسمالي ليس غير . وإن الاطراف المسؤولين هم الدول والحكومات التي اعماها هذا الجشع ، وأضاع فيها الصواب، فاقترفت جريمتها الوحشية .

غير ان الغالب ، في حساب شريعة الغاب، هو دائماً على حق لأنه غلب . هي شرعة القوة التي شرعها فيلسوف القوة « نيتشه » وأخذها دستوراً من يملكون القوة ويتجبرون بها . فلو انتصرت المانيا في تلك الحرب ، لانقلب الحكم وتغير وجه العدل، وألقيت المسؤولية على الحلفاء ، هذا هو العدل الدولي ، ان يكون العدل رهين القوة . القوي يأكل الضعيف بموجب صكّ قانوني يصدره القوي ويفرضه فرضاً على الضعيف المغلوب . بهذه المقاييس كانت الدول الاوربية تقيس الحق والعدل والحرية والمثل الانسانية في العصر الاستعماري .

* * *

نقولها مرة ثانية ، إن المسؤول الحقيقي عن حرب ١٩١٤ ، هو

الجشع الرأسمالي ولا شيء غيره وكل ما اذيع واشيع باسم الحق والحرية والعدالة والديمقراطية ، ليس اكثر من نفاق باطل . فالحلفاء المنتصرون ما لبثوا بعد انتصارهم ، ان تنكروا للاهداف التي كانوا يتبجحون بها ويبشرون بها اثناء القتال . فانكروا وعودهم وعهودهم للشعوب المظلومة، بعد ان قهروا في ساحة القتال خصمهم العنيد . وعقدوا ابشع معاهدة لصلح يخفي سلاح حرب اخرى . ان نظرة واحدة لعالم ما بعد تلك الحرب تكفي لادانة المحاربين ، سواء الغالبين منهم ام المغلوبين . وان نظرة واحدة للشعوب المستعمرة قبل الحرب وبعدها ، تكفي لتكذيب كل الدعايات التي كانت الدول المتحاربة تذيعها ، واظهار ما كانت تخفيه في ضمائرها للشعوب المستضعفة والمتخلفة .

* * *

لقد بقيت الهند بعد الحرب كما كانت قبلها ، على الرغم من وعود بريطانيا لها . وبقيت الصين بمئات ملايينها مستعبدة للمستثمرين الاجانب. وألهي العالم العربي بمبتكرات استعمارية ، استنبطها دهاء السياسيين الذين طبخوا معاهدة فرسايل . انتدابات من نوع (أ) وانتدابات من نوع (ب) وانتدابات من نوع (ج) هي في حقيقتها استعمار مزوّق. افريقيا كلها بقيت لقمة سائغة لاوروبا السيدة . ان معاهدة « فرسايل » التي وضعت على اثر قهر غليوم لم تكن افضل من معاهدة «فيينا» التي وضعت على اثر قهر نابليون، ولا هي اختلفت عن غيرها من المعاهدات المعقودة على اثر الحروب التي سبقتها في التاريخ إلا بفذلكتها الخادعة ، وبالأساليب الناعمة المغرية ، التي اقتضاها تبدل المفاهيم السياسية ودهقنة السياسيين .

* * *

وماذا كانت نتيجة الحرب العالمية الاولى ؟

اذا استثنينا غضبة الشعب الروسي والثورة الاشتراكية الروسية ، التي قلبت نظام الحكم والمجتمع في روسيا رأساً على عقب ، فلا نجد تبدلاً

محسوساً في نظام السياسة الدولية . المستعمرات الالمانية ، انتقلت من يد المانيا الى ايدي انكلترا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا واليابان واميركا . الاتراك طردوا من الولايات العربية ليحلّ محلهم الانكليز والفرنسيون . حرية الشعوب في تقرير مصيرها ، خفتت نغمتها عما كانت عليه أثناء الحرب . الديمقراطية التي حارب تحت لوائها لويد جورج وكليمنصو ، أنكرها لويد جورج وكليمنصو بالذات عندما جلسا على اكاليل الغار . مبادىء ولسون الاربعة عشر ذهبت مع الريح ، وذهبت آياته التبشيرية هباء ، بعد أن ابعد ولسون عن مؤتمر النصر ، وصفا الجو لقطبي مؤتمر فرساي : لويد جورج وكليمنصو . النير الذي كانت ترزح تحت وطأته الاقطار المستعمرة ؛ ومنها أقطارنا العربية ، لم يرتفع إلا ليحل محله نير آخر ، هو الانتداب ، الذي لم يكن أقل إرهاقاً من الاستعمار . العالم الذي وُعد به البشر بعد المجزرة لم يأت أفضل من العالم الذي كان قبلها. السلم الدائم الذي حاربت الدول الكبرى من أجله — على حدّ ادعاء كل منها — كان هدفاً للتعكير من قِبل هذه الدول نفسها . وهل يكون من المعقول ، أن يتمتع العالم بسلام دائم ، ما دام في العالم دول شغلها الشاغل ، استثمار واستعباد غيرها من الدول والقوميات والشعوب ؟ وعصبة الأمم ؛ هذا المخلوق العجيب ، الذي حبلت بـه مخيلة المبشر الرئيس ولسون ، وتمخضت به ذهنية رجال السياسة ، والذي ولد على يـد قابلة تتغلب فيها السليقة الاجرامية على سلامة الوجدان .. هـذه العصبة ، كتب لها الموت منذ ولادتها ، لأن عناصر الحياة لم تتوفر لها ، فعاشت عمرها القصير عايلة ، كسيحة ، كي تموت غير مرحومة ولا مأسوف عليها من احد .

لقد خيّل للعالم ، أن الحرب العالمية الأولى سيعقبها سلم دائم ، أو على الأقل ، سلم طويل الامد . وما دار في خلد أحـد ، ان الأنسانية تتحمل مزيداً من الفواجع والآلام . ولكن الانسانيه نفسها ، في عرف

المتاجرين بها ، ليست اكثر من بضاعة للسوق ، منها ما هو للعرض فقط ، ومنها ما هو للبيع والشراء على قدر الاسعار . ولو لم يكن الأمر كذلك ، لما واجه العالم مجزرة بشرية ثانية ، قبل أن يمضي على المجزرة الأولى عشرون سنة .

على أن الفترة القصيرة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، كانت فترة حرب ايضاً ، ولكنها حرب باردة ، استعداداً لحرب ساخنة . كانت هذه الفترة فترة صراع دائم بين مبادىء تدين بها هذه، ومبادىء تدين بها تلك . حتى في هذا الصراع ، لم تكن المبادىء ، عند اكثر المبشرين بها ، إلا جسراً للعبور عليه الى الاهداف التي كانوا يرمون اليها ، ويبشرون بها كذباً ونفاقاً وتضليلاً . ومن سوء حظ الانسانية ، إن الاهداف لم تكن من السمو بقدر سمو المبادىء نفسها .

* * *

كان منتظراً ، أن يطرأ تبدل على المفاهيم الاجتماعية بعد الحرب العالمية الاولي . وقد حصل شيء من هذا بالفعل ، ولكن على نطاق محدود . والسبب أن الفوز العسكري ، لم يأت بجديد في عقلية المنتصرين، لا في عقليتهم السياسية ، ولا في عقايتهم الاجتماعية . انتصر الحلفاء على المانيا وقهروها ، فاستغل الحلفاء هذا الفوز ليسحقوا المانيا المتغطرسة ، لا ليسحقوا الغطرسة نفسها . وما اكتفوا بذلك ، بل أرادوا أن يسحقوا ايضاً من حالفهم في الحرب ، ولم يحالفهم في السير معهم بعد النصر . لويد جورج مثلاً ، كان همه توسيع نفوذ الامبراطورية البريطانية وزيادة مستعمراتها . وكليمنصو وجد الفرصة سانحة للانتقام من المانيا ، والحلول محلها في اكبر عدد من مستعمراتها ومستعمرات الدولة العثمانية . ولكن لا لويد جورج ، ولا كليمنصو ، ولا أحد من زملائهما ، فكّر هنيهة ، وهو في نشوة الظفر ، في المجموعة البشرية الهائمة على وجه الأرض .. كيف تعيش ، ومن هو الانسان ، وما هي علاقته باخيه

الأنسان ، وما هو المجتمع الصالح العادل ، وما هي رسالة العقل والعلم والضمير .

هذا ما جعل التقدم العلمي والصناعي والفكري ، تنحصر فوائده في نطاق تستسيغه وتفيد منه العقلية المسيطرة في عالم ما بعد الحرب ، هذه العقلية التي تمثلت في اشخاص وسياسيين من الطراز القديم ، مثل لويد جورج ، وتشمبرلن ، وتشرشل ، وكليمنصو ، وميللران ، واورلندو ، وسائر رجـال السياسة من ملوك وامراء ، وحكّام . اذ لم تكن تلك الحرب ، كما ظنها الكثيرون خطأ ، ثورة جامعة ، بل كانت اشبه بفتنة عالمية محدودة الهدف والغاية . ولذلك لم يكن بد من عودتها بعد اقل من ربع قرن ، بزخم اقوى ، وكوارث اعمّ .

* * *

ان المانيا نفسها التي انكسرت في الحرب العالمية الاولى ، كانت بطلة الحرب العالميـة الثانية . لا اقصد من هذا ان المانيا كانت هي وحدها المسؤولة عن الحرب الثانية ، كما انها لم تكن هي وحدها المسؤولة عن الحرب الاولى . فالمسؤول في كلتا الحربين ، هو العقليـة التي كانت مسيطرة على اقطاب الدول . المسؤول ، سياسة الدول وانظمتها المرتكزة على الكسب والتفوق والاستثمار والاستعمار . المسؤول سياسة القوة التي اتخذتها الدول المستعمرة مبـدأ ونهجاً . المسؤول هو سياسة الجشع التي استحكمت بعقلية الدول الاستعمارية ، وخالفت فيما بينها ، وجعلتها تنقلب ، فور انتصارها على المانيـا ، على من لم يشأ ان يماشيها في سياستهـا التوسعية ، ولو كان من بين حلفاء الامس . فما كاد انهيار الدولة الالمانية يتم ، حتى جعلت دول سياسة القوّة تتحالف في حرب ضارية ضد الثورة الاجتماعية الوحيدة التي اندلعت بعد الحرب . فدول الاستعمار لا يضيمها شيء اكثر مما يضيمهـا ثورة يقوم بها شعب ضد ظالميـه

ومستعبديه . هذه العقلية اوحت لدول سياسة القوة ، ان تتحالف فيما بينها ، وتتحالف ايضاً مع اعدائها بالأمس ، لكي تقضي على ثورة الشعب الروسي ، خشية امتداد ثورته الى شعوبها او غيرها من الشعوب المستعبَدة ، وخشية ان يفلت من يدها زمام التحكم بالعالم ، ولا سيما العالم المتخلّف اقتصادياً واجتماعياً . بهذه العقلية خطت دول سياسة القوة خطوتها فور انتهاء الحرب ، وجعلت تتآمر على نهضة الشعوب ، ووضعت يدها بيد المانيا ، عدوتها في الامس ، وانشأت تقويها ، وتزودهـا بالسلاح ، كي تساعدها على انزال الضربة الحاسمة بالثورة الروسية وخنقها في المهد ، فتعطي درساً لكل شعب يتطاول على طغاته ويثور عليهم ، ويأخذ لنفسه ولو شيئاً من حرية العيش وحرية العمل ، دونما استئذان دول سياسة القوة .

* * *

وفيما كان الحلفاء لاهين ببعضهم ، جعلت المانيا تستعيد انفاسها ، وتهيء نفسها للانتقـام . وبرز فيها قائد شديد المراس . وخلق فلسفة نازية تعصبيّة . وادخل في عقول ابناء شعبه : ان الشعب الالماني هو الشعب المختار لتخليص العالم من الشيوعية . ونفخ فيه روح الغطرسة التي لم تكن قد زالت من نفوس الالمان . واغتنم فرصة الخلاف الناشب بين اعدائه بالأمس . وانشأ اعداؤه انفسهم يسهلون له طريق الحكم ، كي يقف بوجه المارد الذي ظهر في شرقي اوروبا . ووجد هتلر النازي في موسوليني الفاشي حليفاً له . وظهر حلف « الانتي كومنترن » بين المانيا وايطاليا واليابان . وخيل للدول الغربية ان صراعاً يقوم بين النازية والفاشية من جهة والشيوعية من جهة ثانية ، تكون نتيجته انهيار الجبهتين . فاخذت تلعب على حبل هذه تارة ، وعلى حبل تلك تارة اخرى . وكان اتفاق « مونيخ » بين الدول الغربية وهتلر . وكانت الحرب العالمية الثانية في

عام ١٩٣٩ ، التي قاست فيهــا البشرية من الويلات والفظائع ؛ ما لا ينسيها اياه الا حرب ثالثة ذرية ، يحاول اشعالها في الخفاء والجهر ؛ « مفبركو » الحروب واعداء الشعوب . واذ بدا للحلفاء « الديموقراطيين » أن عدوهم النــازي اقوى منهم ؛ وعندما رأوا انهم وصلوا الى شفير الهاوية عادوا الى حليفهم في الحرب الأولى بالرغم من كرههم له ؛ بانتظار فرصة ملائمة للعودة عليه .

* * *

ليس من شأننا في هذا الكتاب ان نأتي على وصف الحوادث التي وقعت اثناء الحرب بين الجبهتين المتحاربتين . وليس من شأننا ان نكشف عن المؤآمرات التي دبّرت قبلها وفيها وبعدها . وليس غرضنا ان ندل على المسؤولين عنها . فللتاريخ وحده ان يصدر حكمه في هذه الامور . ولعلماء التــاريخ ، لا للمؤرخين فقط ، ان يفسروا اسباب الحرب ونتائجها . وكل ما يقال او يحكم به قبل مرور نصف قرن على الاقل ، ليس الا محاولات تبريرية ، لا ترتكز على الحق والعدل . فالذي يصنع التاريخ لا يحق له ان يكتبه . ان مذكرات اقطاب الحرب والسياسة ، التي تخرجها المطابع من وقت الى آخر ؛ لا تصلح ابداً لأن تؤخذ معيناً للتاريخ . اذ مهما ألبسوها واضعوها لباس الحقيقة ؛ يبقى عنصر العدل فيها ناقصاً ؛ لانها وضعت تحت تأثير الحوادث ؛ وتحت تأثير الاعتبارات المتباينة ، التي يأخذ بها مؤلفوها من مغلوبين او منتصرين . كل هذه المذكرات لذيذة وطريفة ، شرط ان لا يتوخى القارىء فيها غير التسلية وحسن الوصف . ولكن القارىء يظلم الحقيقة اذا ما نشدها في هذه المذكرات . محاكمة نورمبرغ مثلا لم تكن اكثر من مسرحية ؛ لم يعتم امرها حتى اخذ قضاة نورمبرغ انفسهم ينقضونها . انتصر الحلفاء في الحرب فكانوا اصحاب الحق . وغُلب المحور فكان هو المجرم والمسؤول

الوحيد عن الحرب . لو انقلبت الآية لكان حصل العكس . هو العدل في نظر من يعطون العدل معاني تلائم مفاهيمهم ومصالحهم . لا شك ان النازيين ارتكبوا في الحرب العالمية الثانية ما يشيب له الاطفال . ولكن سكان هيروشيما وناغازاكي ، وحيوانات هيروشيما وناغازاكي ، ونباتات هيروشيما وناغازاكي ، يدلونك ايها القارىء على مجرمين زادت جرائمهم عن جرائم الالمـان . قالوا ان قنبلة هيروشيما وناغازاكي وضعت حداً للحرب ، ووفرت حياة الكثير من المحاربين . ولكن يا لجريمتهم عندما ابادوا مئات الالوف من الابرياء . نساء لم يكن لهن لا ناقة ولا جمل . واطفال اطهار لم يفتحوا عيونهم للنور حتى حرموا من النور . وعجزة قد يكون اصابهم اشعاع القنبلة الذرية فماتوا وهم يصلّون . فيما مضى كان استعمال رصاص دمدم في الحروب ، يعد جريمة انسانيـة تستحق العقاب الدولي . اما اليوم فالقنبلة الذرية ؛ في رأي الذين يباهون بهـا وبفعاليتها في ابادة الخلق بالجملة ، تحسب من هؤلاء وسيلة لاقرار السلام. منطق غريب ، ودعاية ملفّقة ، يقصد منها إلباس الباطل ثوب الحق ، اخفاء لسوء النية .

ان الدعاية في جوهرها نفاق الباطل على الحقيقة ، يغلب فيها عامل التضليل والغش والخداع . الحقيقة لا تحتاج الى دعايات تعرف عنها . الحقيقة تعرف عن نفسها . النور لا يحتاج لمن يقول عنه انه نور . والظلمة مهما اشيع عليها من اضواء مصطنعة تبقى ظلمة . الطبيب الذي يكثر من التحدث عن نفسه وعن مهارته ؛ يجب ان نخشاه المريض اكثر من الطبيب الذي يعمل بصمت. المرأة التي لا تنفك عن الاشادة بعفافها وامانتها الزوجية ؛ يجب ان يشك فيما تتحدث عنه . البائع الذي يلقي عليك موعظة عن جودة بضاعته قبل ان يعرضها عليك ؛ اشبه بمن يريد بيعك كلاماً معسولا عن بضاعة مغشوشة . الحقيقة لا تخفى وان خفيت

فلزمن فقــط . الدعاية تعني ان الصارخ في بوقها قليل الاحترام للعقل البشري ولميزته الادراكية الواعية . والدول كالافراد ، اذا بالغت في الترويج عن قوتها ومبادئها وحسناتها ، انما تبغي ان تعوض عن تقصيرها في قوتها ومبادئها وحسناتهــا . هي تعوض عن الحسنات بالمغريات ؛ مستجهلة الناس الذين تبث دعايتهم فيهم .

* * *

في الحرب العالمية الثانية ، كما في الحرب العالمية الاولى ، ما اكثر ما سمعنا بالديموقراطية ، وبحرية الشعوب في تقرير مصيرها ، وبالعــالم الفاضل ، وبالحضارة المثلى ، وبالمجتمع الاصلح ، وبتحرير الناس من الفقر والجهل والمرض ، وبحريات روزفلت الاربع ، وبشرعة الاطلسي . فما ان وضعت الحرب اوزارهــا ، وانتصر من انتصر ، وانكسر من انكسر ، حتى تبين ان هذه المثل السامية التي اكثر المحاربون الاقوياء من ترديدها اثناء المحنة ، لم تكن اكثر من بضاعة للتشويق والتضاليل . فالدول الاستعمارية لم تتنازل عن مطامعها . والشعوب المستضعفة بقيت عرضة لهــذه المطامع . ونقمة الصغار على الكبار ازدادت حدتها . وفي هذا الجو المتجهم ، كان الكبار الطامعون يتحايلون على الصيغ المبتكرة لتسيير سياستهم بقوالب منمقة . فخلقوا جامعة الامم المتحدة في مؤتمر سان فرنسيسكو ، صورة معدلة بعض الشيء عن جمعية جنيف المرحومة . قالوا ان جامعة الامم هذه ، انما خلقناها لتطبيق المبادىء الانسانيــة . برنامج مغرٍ ، وتنظيم طريف ، ومؤتمرات تلقى فيها الخطب البراقة . اما النية المبيتة وراء ذلك فلم تكن على صفاء ترتاح اليه النفوس المتعطشة الى السلام والطمأنينة . فما ان قامت هذه الجامعة حتى بدأ الخصام بين اقطابها . هذا يبغي مغنماً يروي به غلة دولته واشباع نهمها ، وذاك يحاول إحباط مساعي غيره في احتكار النفوذ في الجامعـة . الدول الصغيرة لا

تسمع لها كلمة . واذا انتصرت لها احدى الدول الكبيرة ، خذلتها عند التصويت الدول الاستعمارية بما تضمنه من اصوات الدول التابعة لها . ان فائدة جامعة الامم هي فقط في كونها منبراً، يتبين منه مَن من الدول مخلصة لمبادىء الجامعة . ومن منها متنكرٌ لها . على ان هذه الفائدة الوحيدة وان كانت فائدة سلبيّة ، تعرّف الشعوب ، من هو المخلص ومن هو غير المخلص ، ومن هو الذي يعمل للسلام العالمي اعمالا ايجابية، ومن لا يعمل لها الا بالاقوال والدعاية فقط .

* * *

لم تمض سنة واحدة على انتهاء الحرب ونشوء جامعة الامم ، حتى بدأت تظهر بوادر حرب جديدة . التسلح بقي الشغل الشاغل للدول الطامعة ، والتضييق في التعامل الدولي ، زاد عما كان عليه من قبل ، والحرمان الذي كانت تشكو منه الشعوب ، بقي على حاله في بعض البلدان ، وزاد في بعضها الآخر . القنبلة الذرية التي احرقت هيروشيما وناغازاكي وابادت ناسهما ، واصبحت بعبع العالم كله . العقلية الاستعمارية والاستثمارية ما زالت مسيطرة على سياسة الدول التي عاشت للآن وتنعمت على حساب الدول الصغيرة وشعوبها . بعد توقف الحرب الساخنة حلّت محلها الحرب الباردة ، التي قد لا تبقى باردة . مؤآمرات الدول الاستعمارية على الشعوب الضعيفة لم يتغير فيها الا الخطط . الشعوب كلها في حالة ذعر ، وسبب ذلك ، سياسة القوة وسياسة « على شفير الحرب » .

* * *

على ان شيئاً جديداً ظهر بعد الحرب . وهذا الشيء هو الوعي الحاصل عند الشعوب . والدليل على ذلك ، نمو الحركات الشعبية التحررية . فالشعوب لم تعد تخضع على العماء لحكوماتها ، ولم تعد مخدّره بافيون

الدعايات . فالثورات الانقلابية في هذا البلد ، والفتن الداخلية في ذاك ، والنضال الجماعي ضد الاستعمار ، والشعور بالحق وتحفز الشعوب للعمل من اجل الحصول على الحق ؛ وامتداد الموجة التحررية الى كل اقطار العالم – كل هذا يدل على ان سياسة القوة والارهاب والبطش والنفاق قد فات عليها الزمن . فعالم ما بعد الحرب لم يعد عالم حكومات ، بل أصبح عالم شعوب . وكل دولة تتجاهل وجود هذا التغيّر الجذري ، مصيرها الفشل المحتوم .

* * *

من الشرق الاقصى ، الى الشرق الاوسط والادنى . . من القارة الاوروبية الى القارة الآسيوية .. من القارة الافريقيه الى القارة الاميركية الجنوبية ، تشتعل نيران ثورة الشعوب . هنا ثورة للتحرر من الاستعمار ، وهناك ثورة للتحرر من عبودية العوز والفاقة ، وهناك ثورة للحد من مطامع الطامعين في الدنيا والآخرة . المغبونون يناضلون لقلب الاوضاع الراهنة . والمتنعمون يحاولون بما لديهم من امكانات المحافظة على الاستقرار . الرابح دائماً ينشد الاستقرار ويعظ به لأن في دوام الاستقرار دوام النعم عليه ، بينما الخاسر يرى في الاستقرار مصدر بلائه وشقائه . الاستقرار يعني ان يبقى العبد عبداً الى ان يشفق عليه سيده فيعطيه جرعات مقننة من الحرية والحق ، كما يعني ان يبقى الجاهل في جهله الى ان يتكرم عليه السيد بخيط من النور . ويعني ان تبقى الشعوب المغلوبة شعوباً مغلوبة ، تشملها الدول القوية بالحماية ، وتمدها بشيء من المساعدات ؛ وتتبرع لها بشيء من مظاهر الرحمة الانسانية . الاستقرار مخالف لناموس الطبيعة نفسه ، ولن يكون في متناول دعاته وفلاسفته ، ولا في مقدورهم ان يغيّروا ناموس الطبيعة ، وسنة التقدم ، وسير التاريخ في مجراه . فالحياة صراع ، من اجل الاكمل والافضل . اما الاستقرار

فجموذ .

* * *

على ان شيئاً جديداً ظهر بعد الحرب العالمية الثانية . هــذا الشيء الجديد ، هو انفراد احدى الحليفات المنتصرة في الحرب على اســاس الوعود التي كانت تنثرها على شعوب العالم ، وبقاؤها امينة لوعودها على عكس حليفاتها . فربحت الشعوب المستضعفة عوناً جديداً لهــا على تحقيق امانيها . في الحرب كانت الحليفة حليفة دول ، فأصبحت بعد الحرب حليفة شعوب ، عملا بالمبدأ الذي قامت عليه ، وما حالفت حليفاتها في الحرب إلا من اجل نصرته واشاعته بين البشر ، كل البشر.

٢٣. الصراع الدائم والثورة المستمرة

•

ما هي الثورة ؟

هي الانتفاض على ما هو كائن ، لإبداله بما يجب ان يكون هي يقظة الحق على الباطل وغيظه عليه . هي يقظة الحقيقة وتحدّي الواقع، وسبر أغوار المجهول .

كل انقلاب في طبيعة الاشياء ثورة . وكل خروج عن المألوف ثورة . وكل استنكاف عن الاذعان للغيب ثورة . وكل تفجّر في حقل المعرفة ثورة . وكل تحد للحالة القائمة ثورة .

المسيح كان ثائراً عندما حمل على الوضع الروماني وعلى احكام المجتمع اليهودي في عصره . وكان ثائراً عندما نقم على الاغنياء والمستثمرين وانتصر للفقراء والمستضعفين . وكان ثائراً عندما حطّم اصنام الهيكل . وكان ثائراً عندما اختار العيش مع الطبقات المنبوذة . ان المسيح الذي بشّر بالمحبة فاضطهده الحكام والرؤساء والتجار ، ثم حكم عليه بالموت وعلّق على خشبة ، ومات في سبيل دعوته الى الحق والعدل والمساواة ، المسيح الذي يدين بتعاليمه مئات الملايين من البشر ، وانطوت نفسه على الحب والخير والتضحية ؛ المسيح هذا ، كان الهدّام الاكبر للاوضاع المتعارفة والمألوفة في عصره . فهل من ينعت المسيح بالشر

لأنه هدم قبل أن يبني ، أو لأنه أدرك أنه ليس في وسعه ان يبني قبل ان يهدم ؟ أيقال ان دعوة المسيح كانت فوضى ، وان مبادئه كانت هدامة ، لأنها تعكر صفو الاستقرار وتقوّض دعائم المجتمع كي تبني بعد الهدم ، مجتمعاً أصلح وأعدل ؟ لقد ألصقت سلطات تلك الايام بالمسيح كل التهم التي ينسبها مجتمع اليوم وسلطاته وحكوماته الى الثائرين على قسوة المجتمع وظلم الحكومات . وقيل عنه انه فوضوي وشرير ومخادع ودجال . وحوكم وصلب ومات . ولكن كل هذا لم يمنع الحقيقة من ان تظهر وتنتصر ، ولا هو يقلّل من شأن الثورة المسيحية التي لا يسع اي مكابر ان ينكر انها كانت من العوامل الكبرى في تطور البشرية نحو الاحسن .

* * *

محمد بن عبد الله كان ثائراً ، عندما أبى ان يماشي أهل الصحراء في عبادة الاصنام وفي عاداتهم الهمجية وفي مجتمعهم البربري . فأضرمها ثورة لاهبة على بني قومه وأسيادهم وآلهتهم . فكفّره قومه ، واضطهدوه واضمروا له الموت . فهاجر تحت جنح الليل مع نفر من اتباعه ، وما تخلى عن النضال في نشر دعوته ، وما أحجم عن تجريد السيف من أجلها . فأخرج من جاهلية الصحراء عقيدة دينية واجتماعية ، تجمع بين مئات الملايين من البشر في أقطار المعمورة . ومع هذا ، فما اكثر ما اتهم الرسول العربي بالدجل والشعوذة ، وما اكثر ما وصف بأنه هدّام ، يعمل على نشر الفوضى وتعكير صفو الاستقرار .

* * *

باستور كان ثائراً ، عندما جابه علماء عصره بالطفيليّة الخبيثة المسببة للأوبئة والامراض . باستور هذا ، ثار على الاستقرار العلمي ، الذي كان يعتبر المرض طارئاً شيطانياً ، والاوبئة مجهولة السبب . وانها من طبيعة الاشياء ، ولا يمكن تجنبها ، وانها قد تكون من فعل الارواح الشريرة

كما كان الاعتقاد السائد في القرون المظلمة ، وان القدر وحده هـو الذي يفشي الوباء ، وهو الذي يشفيه . فاضطهد باستور ، وكُفّر ، واتهم بالزندقة والدجل والشعوذة ، ووصف بأنه هـدام لخروجه عن المألوف والمعروف . ومع هذا فالثورة العلمية التي اضرمها باستور على الميكروب ، وعلى الجهل وحراسه وعلى المنتفعين به ، لم تخمد قبل ان قلبت الاوضاع العلمية ، ومن ورائها الاوضاع الاجتماعية ، رأساً على عقب .

* * *

كوبرنيكوس وغاليليو كانا ثائرين على استقرار النظام الفلكي المغلوط. وعندما قالا بدوران الارض ، اهتزت مملكة الارض ، وانزلت عليهما النوازل ، ولكن الارض بقيت تدور .

* * *

لوثيروس كان ثائراً ، عندما وقف بوجه الكنيسة ورجالها ، وفضح شعوذاتهم ، وأثارها حرباً عليهم ، وعكّر صفو الاستقرار الذي ينشده مستغلّو الدين وتجّاره .

* * *

روجر باكون كان ثائراً ، عندما سفّه نظرية حتمية الاشياء ، وقال بوجوب الاعتماد على البحث والاختبار واستنتاج المسببات من اسبابها . فاضطهد ، وشرّد ، وسجن من اجـل ثورته على الاستقرار . ولكن كل هذا لم يمنع ظفر نظرية روجر باكون العلميّة في آخر الامر .

* * *

داروين كان ثائراً عندما اطلق نظريته الاختبـارية ، بأن الحياة البيولوجية صراع ، وبأن الحياة تتحول في طريق الصعود من الادنى الى الاعلى ، ، وبأن الانسان لم يخلق انسانا بل صـار انساناً بفعل التطور

والاصطفاء النوعي الطبيعي . فاضطهد ، وكُفّر ، واتّهم بالزندقة ، ووصف بأنه هدام للاستقرار . ولكن كل هذا لم يمنع انتشار النظرية الداروينية والتسليم بصوابيتّها حتى من ألدّ اعدائها .

* * *

كارل ماركس كان ثائراً ، عندما طلع بالنظرية المادية التاريخية واثبت بالاختبار العلمي خطأ النظرية المثالية ، التي كانت رائجة في ذلك العصر ، والتي بنى « هيغل » عليها ديالكتيكه . فوضع ماركس اساساً ثابتاً لعلم تطور المادة ، ولتطور النظام الاجتماعي والسياسي على اساس عنصر الاقتصاد المعيشي ، هذا العنصر الذي يتوقف عليه الوجود البشري في ماهيته وتحوّله ، وتطوّره ، وتقدمه . كانت نظرية ماركس ثورة على المثالية ، وعلى الاستقرار المنبثق منها . فكفّر ماركس ، واتّهم بالزندقة والهدم ، واضطهد ، ونفي ، وجوّع . ولكن كل هذا ، لم يمنع الاجيال المتعاقبة من تصويب نظرية ماركس ، واعتمادها من قبل مئات الملايين من البشر ، ما زالت تتزايد يوماً بعد يوم . ان النظرية الماركسية ، او الفلسفة الماركسية ، التي نعتت في الماضي من قبل اخصامها بأنها فلسفة هدامة ، هي اليوم ذات النظرة الأصحّ للحياة . كانت في عصر المثالية فلسفة عصرية هدّامة ، فأصبحت في عصر العلم ، فلسفة ثورية بنّاءة ، لا ينكرها احد ، ولا يجادل صوابيتها احد ، من من اهل العلم والحصافة الفكرية .

* * *

في كل كلمة كتبها فولتير وروسو ثورة على استقرار الاوضاع القائمة في زمانها . هذه الثورة الفكرية هي التي ألهبت فرنسا كلها عام ١٧٨٩ ، وهدّمت الباستيل ، وأطاحت برأس الملك العاتي ، وهزّت العالم من اقصاه الى اقصاه ، وأشاعت الروح التحررية في شعوبه .

* * *

كل من تحدّى واقعاً ، أو تمرّد على واقع في حاجة الى تبديل او تحويل او تطوير ، هو ثائر ، لا فرق اذا كانت ثورته ثورة قلم او ثورة فكر او ثورة معرفة او ثوره سلاح .

* * *

ان الحياة في اصلها وفصلها ثورة . وثورة الحياة استمرت منذ ان كانت الحياة . وستستمر ابداً ما دامت الحياة . ولولا هذا الاستمرار لما تقدّم الجنس البشري ، لا على الصعيد المـادي ، ولا على الصعيد الروحي ، ولا على الصعيد الفكري ، ولا على الصعيد الاجتماعي ، ولا على اي صعيد آخر . فالحياة منذ ان كانت لا تعرف الجمود ، ولا تعرف الاستقرار . ان الحياة صراع ، وتطلع الى الامام ، وثورة من اجل السير نحو الامام .

لولا الثورة لما تفجّرت حقيقة واحدة من حقائق الحيـاة . ولولا الثورة لبقي الانسان يعيش في دنيا الاوهام والخرافات . ولولا الثورة لما تقدم مجتمع من مجتمعات الانسان . ولولا الثورة لما تقدمت صناعة من الصناعات ، ولما استطاع العقل البشري ان يكشف النقـاب عن اسرار الطبيعة ، وينبش خيراتها ، ويضعها في متناول الانسان وفي خدمـة الانسان . وبكلمة وجيزة ، لولا الثورة لما ارتفع الانسان كثيراً عن الحيوان ، فيصح به اذ ذاك الوصف الذي يصفه به الاغبيـاء ، بأنه حيوان ناطق وحسب .

ان لكلمة « ثورة » معنى انساني ، ومعنى تقدّمي ، ومعنى اخلاقي ، ومعنى بنائي . بهذه المعاني يجب ان تؤخذ كلمة ثورة . اما الذين لا يعرفون من معانيها الا معنى الهدم ، فهؤلاء اما اغبياء عن الحقيقة ، او متغابون عنها لغرض في نفوسهم الامارة بالسوء .

* * *

من الخطأ ، بل من الجريمة على الحقيقة ، القول ان الثورة هي فقط

اقتتال على حكم ، تسفك فيها دماء وتزهق فيها ارواح . هذا الاقتتال ليس ثورة بل فتنة . والفتنة ليست ثورة . الثورة هي فورة غيظ الحقيقة . هي غضبة الحقيقة على الباطل . هي يقظة العقل وتفجر المعرفة. هي تأفف من وضع شاذ وتبرم باستقرار مسكين وجامد . هي همس بالتحرر والانطلاق من عبودية الجهل ، وعبودية الحكم ، وعبودية المال ، وعبودية الاستقرار ، وعبودية الاوهام . . . ثم العمل على التخلص من عبودية الجهل والحكم والمال والاستقرار والاوهام . الثورة وثبة الى الامام ، ونقمة على الواقع وعلى الاوضاع التي تتمسك بهذا الواقع وتحافظ عليه . الثورة حركة تحرر من الجمود والرجعة والجهل . الثورة غضبة المظلوم على الظلم والاستبداد . الثورة التي لا تواكبها هذه الشروط ولا تهدف الى التقدم ، لا يصحّ تسميتها ثورة بل الاصحّ تسميتها فتنة . الثورة عقيدة والفتنة هوس . الثورة صعود والفتنة انحطاط . الثورة تقدم والفتنة رجعة . الثورة أمل والفتنة جشع . الثورة مستوحاة من الحقيقة الحياتية والفتنة مستوحاة من الغرور ، غرور حاكم او غرور طامع بالحكم او غرور جاهل الحقيقة . الثورة هدم من اجل البناء والفتنة هدم وهدم فقط . أما المجازر التي تحسم الثورة فليست الا المرحلة الاخيرة من مراحلها . عندما يشتدّ الصراع بين الحقيقة والباطل ، او بين الناشدين الحقيقة وبين المكابرين في تنكرهم لها . . اذ لا بد عندئذ من ان يقع ما ليس منه بدّ .

* * *

اذا ما حللنا الدوافع الحقيقية للثورة ، سواءٌ كانت ثورة فكر أم ثورة معرفة ، أم ثورة عقيدة ، أم ثورة سياسة ، نجد أن أهم هذه الدوافع هو تحكم المطاق في حياة البشر ، وطغيان المثالية الغيبيّة على الحقيقة العلمية ، وطغيان الظلم على الحق في سياسة الحكومات . وهو الطغيان الذي يوصد باب التفتح الفردي والجماعي ، محافظة على استقرار

اقتصادي او اجتماعي او سياسي . مبني على المطلق العقائدي او الروحاني او التقاليدي . والمعروف علمياً وتاريخياً ، ان ناموس الطبيعة قائم على التطور والانطلاق وليس على الاستقرار والاطلاق . ان ناموس الطبيعة لا يقر الحتمية ولا الروحانية ولا المثالية القائمة على الحتمية والمثالية ، اذ مهما اجتهد فلاسفتها في تفسيرها وتنميقها فهي لا تخرج عن كونها فلسفة غيبية . قال فلان عن فلان عن فلان مما لا يحتمل جدلاً ولا نقاشاً .

ان المثالية وليدة الغيبيّة والغيبية وليدة الروحانية . والروحانية وحي وإلهام من قدرة فيما وراء الطبيعة وأقوى من الطبيعة . وهي قدرة لا تتغيّر ولا تخطىء ، وليس فيها مجال للأخذ والردّ . الروحانية هي خضوع لهذه القدرة المعصومة ، وليس للعقل البشري ان يتمادى في تفسيرها ، ولا ان يحاول تمحيص افعالها . الروحانية ايمان ولا شيء غير الايمان . بالايمان فقط على المرء ان يقتنع بما توحي او بما تأمر ، او على الأصح على المرء ان يقتنع بما يقوله عنها من يدعون انهم وكلاؤها والناطقون باسمها . فلا دخل للعقل البشري بالتطفل في تحليل موحياتها . الروحانية فكرة مثالية كمثالية فكرة هيغل ، وان اختلفت في المرجع الموحي بها . فهل تكون المثالية والحالة هذه متعارضة مع الحقيقة العلمية والتاريخية ، وقل إذن متعارضة مع الفكرات التحررية والتقدمية ؟ اقول نعم هي كذلك . وأقولها دونما تردّد .

* * *

ويدّعي المتفقهون ان الروحانية على نوعين ، روحانية واعية ، وروحانية غبية ، وان الروحانية الواعية لا تتعارض مع العلم ومقتضياته ومستنتجاته ، وان روحانية الغرب لم تمنعه من التقدم والرقي ، وان الروحانية الغبية هي فقط سبب الجمود والتأخر والانحطاط الفكري والعلمي والحضاري .

ان حجة المتفقهين هذه ، تحتاج في نظرنا الى تحليل وتمحيص .

* * *

لو كان المتفقهون يعنون بالروحانية ، انه وراء هذه الحياة ، قوة غير منظورة هي مصدر كل حياة ، وان هذه القوة لا يحدها زمان ولا مكان ، وهي التي تلهم الإنسان المحبة والصلاح والخير ، وان كينونة هذه القوة هي وليدة الايمان المطلق ، وبكلمة اخرى ، لو كانت الروحانية لا تتعدى العلاقة بين الإنسان والله ، ولا تتدخل في شؤون الإنسان الحياتية في دنياه ، وتحصر تدخلها في شؤونه فيما بعد الحياة .. فليس من شأن احد ، وان لم يكن مؤمناً ، ان يحمّل هذه الروحانية تبعة الجمود الفكري ، وما ينتج عنه من تأخر وجهل . ولكن المتفقهين لا يكتفون بهذا ، ولا يقفون عند هذا الحد . بل هم يتوسعون في فقههم ، ويحشرون الروحانية في كل امر من امور الدنيا ، حتى كادوا يقيدون بها العقل البشري ، ويمنعونه من الانطلاق ، مبشرين بالحتمية التي توحي بها الروحانية ، ومغلقين الباب دون اي جدل او نقاش او معرفة . ويذهب بعضهم الى أبعد من التبشير ، إذ يسنّ الشرائع كي يتقيد بها الناس في حياتهم الفردية والعائلية والمعاشية والاجتماعية والاقتصادية ، موهمينهم ان هذه الشرائع انما هي وحي هبط من الله الكلي القدرة ، فمن يخضع لها كانت له السعادة السرمدية ، ومن يكفر بها ، او يبحث فيها ، يستحق العذاب في دنياه ، ويستحق نار جهنم فيما وراء دنياه .

لا نريد ان نجادل المتفقهين في تقسيمهم الروحانية الى روحانية واعية وروحانية غبية . ولنترك جانباً ما يسمونه روحانية واعية ، يقصر عقلنا عن فهمها ، لنقول ان الروحانية ، كيفما قسّمها المتفقهون ، هي المسؤول الأول عن الجهل الذي يغمر الشعوب الخاضعة لها خضوعاً مطلقاً . أما لماذا كان الشرق مجالاً لها اكثر من الغرب ، فإلى القارىء رأينا

في الأمر . نعيده مرة ثانية بعد ان كنا أتينا عليه في فصل سابق .

* * *

الواقع ان الشرق خُصَّ بالنبوات الروحانية . لا نعلم لماذا كان هذا التخصيص . ترى هل يكون الشرق أقرب مجالاً وأسهل منالاً للنبوات من الغرب؟هذا ما نحيله الى من يعرفون اكثر منا ، ما إذا كانت حدود الشرق اقرب من حدود الغرب للمصدر الموحي بنبواته . لعل هذا راجع الى كون الشرق اكثر قدماً في التاريخ من الغرب ، وأسبق منه في التقاط الوحي الهابط من ما وراء عالم الإنسان . مهما يكن السبب لهذا التخصيص فالمعروف ان الروحانية نشأت في الشرق .

ومن الثابت ان ظهور اية حركة جماعية ، او اية عقيدة جديدة ، يرافقها انقلاب جامح وتعصب هوسي من قبل القائلين بها والمهيمنين عليها والمنضوين تحت لوائها ، طوعاً ام كرهاً . وهذا الجموح والتعصب يقفلان باب الجدل العلمي .

* * *

لا مندوحة إذن من الجزم ، بأن الثورة الفكرية التقدمية التي انطلقت في الغرب قبل الشرق ، والتي ما تزال مستمرّة في الغرب ، هي التي جعلت الغرب أسبق من الشرق في التقدم والوعي والانطلاق . ولا مندوحة من الجزم ايضاً بأن تأخر الشرق عن الغرب هو نتيجة تخلفه عن مرافقة الثورة الحياتية المستمرة . ومن يتخلف في مؤخرة الركب يسبقه الركب . ان الركب لا يتوقف ولا ينتظر المتخلفين . انه يتركهم في الوراء ويمشي . ولكن هل من طبيعة الاشياء ان يكون لهذا الركب حدود ما ، لا قبل له بأن يتعداها ؟ وبالتالي هل يمكن ان تقفل الحدود امام الثورة الحياتية المستمرة ؟ إن الجواب على هذا السؤال هو ما حصل ويحصل في الشرق ، وفيما حصل في روسيا ، التي لها رجل في الغرب ورجل في الشرق . وسيأتينا هذا الجواب في الفصول التالية .

٢٤ . الثورة الروسية الاشتراكية

●

لم تكن الثورة الاشتراكية في روسيا بنت ساعتها ، إذ ان انقلاب عام ١٩١٧ ، ما كان الا المعركة الفاصلة في ثورة استمرت زهاء نصف قرن ، كان يتخلله ثورات متقطعة ، اكثرها حدة وأبعدها أثراً ، ثورة عام ١٩٠٥ . بالطبع لم تكن تلك ثورات جماعية مثلما كانت ثورات مناسبات وظروف ، في شكل اضرابات ومظاهرات وما الى ذلك . على ان هذه الثورات الصغيرة ، وما كانت تقابل به من أعمال عنيفة من جانب السلطات ، كانت تنذر بالعاصفة الكاسحة التي هبت عام ١٩١٧ .

* * *

كان الحكم القيصري في روسيا حكماً استبدادياً طاغياً . وكانت السلطة الكنسية صنواً للسلطة الزمنية في ممارسة الطغيان . السلطة الكنسيّة مهمتها تخدير الشعب وتجهيله ، والسلطة المدنية مهمتها اخضاع الشعب للقيصر ، الذي كان قيصراً زمنياً وقيصراً روحياً في نفس الوقت .

مما لا شك فيه ان « شرقية » الشعب الروسي — او نصف شرقيته على الأقل — كانت عاملاً هاماً في إبقائه في حالة الجهل والأمية والفقر شأن الشعوب الشرقية الاخرى ذات النزعة الروحانية والعقلية الروحانية .

وكانت هذه النزعة المتملكة فيه ، سبباً في جعله سهل الانقياد والاخضاع والقبول بالتضحية في هذه الدنيا ، مقابـل ما يوعد به من السعادة في الآخرة . وكانت السلطات ، الزمنية والروحية ، تستثمر هذه النزعة وهذه العقلية ، وتحرص كل الحرص عـلى استقرارها فيه . وكانت وسائل التجهيل التي تستعملها السلطات من النوعين الآنفي الذكر ، الى جانب الاجراءات التعسفية التي كانت تتخذها إحداها – السلطة الزمنية – العامل الأهم في بقاء الشعب الروسي مستعبداً طوال اجيال . عـلى ان كل هذا خلف في نفسيته نزعة لا شعورية لعمل شيء ما ، من اجل الخروج من حالة العبودية التي كان يرزح تحت وطأتها . لقـد عرف الشعب الروسي بالصبر على العذاب ، وعرف ايضاً بايمانه الذي ليس له حدّ ، بأن فجر خـلاصه لا بد وان يأتي . ولكن ايمانه هـذا كان يحتاج إلى عامل آخر ، يخلق فيه عنصر الدافع العام للقيام بعمل اكثر إيجابية من الإيمان . وكان الضغط الذي تمارسه السلطات قميناً بأن يخلق فيه هذا العامل الايجابي . وقد خلقه فيه بالفعـل فانفجر . والانفجار هو النتيجة الحتمية لشدة الضغط .

* * *

إذا راجعنا تاريخ روسيا القيصرية ، لا نجد واحـداً من قياصرتها كان يهتم بسعادة شعبه . حتى بطرس الكبير ، في حنكتـه وعظمته واجتهاده ، كان يهدف أولاً وآخراً إلى تقوية الدولة الروسية ، ورفع شأنها ، وتعزيز صناعاتها ، وزيادة تسليحها ، واغناء مرافقها ؛ من اجل منفعتها كدولة فاتحة وغازية ، دون ان يخطر له ببال ان دولته انما تقوم على شعب يعيش ملايينه عيشة الذل والحاجة والجهل والعبودية والمسكنة . ومن المحال ان ترتكز الدولة – اي دولة – عـلى كثرة عدد سكانها فقط ، اذا كان هؤلاء الملايين مسخرين لاشباع مطامـع امبراطور وبلاط وفئة قليلة خاصّة من المقربين للامبراطور والبلاد ، او

إذا كانت هذه الملايين لا تشعر ان وطنها لها كلها لا للخاصة فقط . وإن عزة الدولة من عزتها هي لا من عزة الطبقة الحاكمة والمقربين اليها فقط .

* * *

ان الدولة الروسية تملك سدس الكرة الأرضية . وعلى هذا السدس يعيش عشر سكان الدنيا . وفي هذه المساحة الواسعة من الأرض، ثروات وكنوز لا توجد في غيرها . غير ان هذه الثروات الكبيرة كانت موزعة على قلة ضئيلة من الروسيين ، من امراء واشراف وقواد ورجال دين ، بينما كان السواد الاعظم من الشعب ، محروماً من كفاف العيش ومستعبداً من ابناء الطبقة المفضلة والمحظوظة . فبينما كان ابناء هذه الطبقة الخاصة يعيشون عيشة البذخ والإسراف واللهو، كانت العامة تعيش عيشة الفقر المدقع ، تكدح ليلها ونهارها كي تقدم لأسيادها ثمار تعبها وعرق جبينها .

* * *

كان الفلاح الروسي مضرب مثل في الجهل والذل والعبودية . وكان الاقطاعيون يتحكمون به تحكمهم بآلة صماء وخرساء . الويل له إذا خالف لهم امراً ، وأبدى رغبة ، او طالب بحق ، إذ ان جزاءه عندئذ الضرب بالسوط ، والتجويع في السجون ، والنفي الى مجاهل سيبيريا .

* * *

كان « الموجيك » الروسي ، هذه الشخصية التي عرّفها تولستوي اعظم تعريف ، العبد الذي لا يحق له من نعم الحياة ، إلا شيء من الطعام يسدّ به زاوية من زوايا معدته الجائعة ومعد افراد أسرته . وكان هذا الموجيك لا يطمع بشيء اكثر من رضى سيده عليه . كان يعتقد ان عبوديته ناموس طبيعي . هذا ما كان يدخله في عقله الجاهل مشترعو

الناموس . كان هدفه الوحيد في حياته ان يموت عـلى دين الكنيسة ، مرضياً عليه من رجال الكنيسة .

* * *

كان ثمانون بالمائة من الاراضي ملكاً لخمسة في المـائة من سكان روسيا . وكانت العشرون الباقية موزعة على ملكيات صغيرة لعشرة في المائة من السكان المحاسيب للطبقة الحاكمة . اما تلك المجموعة البشرية الباقية ، التي تشكل خمسة وثمانين بالمائة من السكان ، والتي يطلق عليها اسم العامة ، فقد كانت تقاسي أقسى ألوان الذل والفقر والاستعباد . فكان طبيعيـاً ان لا تستثمر الأراضي كلها استثماراً واسعاً ، مـا دام العمال والفلاحون لا يعود اليهم شيء من الانتاج اذا كثر ، ومـا دام كدحهم مهما كان لا يزيـد في حصصهم شيئاً . ولا عجب إذن، إذا ما تعددت المجاعات في تلك البلاد الواسعة بسبب افتقارها الى الاستثمار الواسع . والواقع التاريخي يثبت انه لم يكن تمضي سنتان او ثلاث سنوات حتى تقضي المجاعة على الوف الألوف من الناس . كانت الشحاذة مهنة للمحتاجين ، وهواية عاطفية للنساء الغنيات .

* * *

كانت الصناعة في روسيا محدودة ، لأن الاقطاعيين كانوا يعتمدون النتاج الزراعي فقط ، ليغنيهم ولا يغني الشعب . وكان القعـود عن تعزيز الصناعة ، سبباً لرواج الصناعات الأجنبية ، وهي ما يتعذر على الفلاحين الفقراء شراؤهـا . الاقطاعية منذ كانت في التاريخ عـدوة التصنيع ، وبالتالي عدوة العمال . وفي عدائها للعمال ، هي حليفة طبيعية للصناعات الاجنبية وشركاتها وسياسة دولها . هذا العداء بين الاقطاعية والتصنيع ، عداء تاريخي ، ما يزال مستحكماً في كل البلدان المتأخرة اقتصادياً ، والمستعمرة سياسياً . ومنذ بدأت الثورة الصناعية في الدول الأوروبية ــ وقد بدأت ثم ازدهرت في الدول الأوروبية الغربية قبـل

غيرها – وهذه الدول تحاول مقاومة التصنيع في البلدان التي تطمع في استثمارها او استعمارها. وكانت في محاولاتها هذه تعتمد على مساعدة اقطاعيي هذه البلدان لها .

ان الحركة التصنيعية التي بدأها بطرس الكبير ، لم تجد تشجيعاً من الاباطرة خلفائه ، لا سيما بعد ان رأى هؤلاء تأثير الصناعة في يقظة الوعي عند العمال . فروسيا القيصرية كانت تعتمد على القوة العسكرية والقوة العددية اكثر مما كانت تعتمد على قوة الوعي في ناسها . حتى الرأسمالية الروسية كانت رأسمالية تجارية وزراعية اكثر مما كانت رأسمالية صناعية وطنية ، مخالفة بذلك النظرية الرأسمالية نفسها . من اجل هذا بقيت الصناعة الروسية متأخرة عن صناعة الدول الرأسمالية الاوروبية . ومن اجل هذا كان غزو الصناعات الاجنبية للصناعة الروسية .

* * *

كان لباس الأثرياء من مخازن باريس وبرلين ولندن . الآلات المحركة معظمها من مصانع انكلترا والمانيا وفرنسا . مفروشاتهم اجنبية الصنع . حتى في لحوهم وسمرهم ، كانت خمورهم ومشروباتهم ، باستثناء الفودكا ، من خارج روسيا . وما كان يصنع في روسيا إلا الحاجات البخسة التي يستعملها الفلاحون الفقراء ، مع قليل قليل من الصناعة الانتاجية ، لا يعد شيئاً يذكر مقابل ما تستورده من الخارج . هذا ما جعل تلك البلاد الواسعة وشعبها العرمرم ، سوقاً مفتوحة للرأسمال الأجنبي والاقتصاد الاجنبي .

كان التعليم في روسيا القيصرية وقفاً على طبقة الخاصة القليلة العدد، بينما كانت الأمية نصيب ثمانين بالمئة من الناس . كانت اللغات الأجنبية، الفرنسية والانكليزية والالمانية هي لغة الطبقة الارستوقراطية ، في الحفلات والسهرات ، وفيما بين افراد العائلة بالذات ، بينما كانت اللغة الروسية لغة التخاطب بين العامة فقط . ان روائع الأدب الروسي ،

التي لا يفوقها روائع ، قلما كانت تجد طريقها الى بيت العامة ، لجهل العامة القراءة ، او لجهل من يقرأ منها استيعاب مـا يقرأ . فالادب الروسي الرائع ، الذي كانت النخبة من الادباء تخرجه ، مثل دوستويفسكي وبوشكين وتولستوي وزملائهم ، كان يقرأ في خارج الروسيا اكثر مما كان يقرأ في قلب الروسيا . ولم يكن للعلماء — وقـد كان في روسيا القيصرية علماء — حظ اكبر من حظ مواطنيهم الادباء .

* * *

كانت الحياة الاجتماعية في روسيا القيصرية على اكثر ما يكون من التفسّخ . في المجتمعات الارستوقراطية ، فحش ومجون . وفي المجتمعات الحقيرة ، سكر ، وعربدة ، وبغاء ، ولصوصية ، واجرام .

* * *

كانت الاوبئة نزيلة البلاد الروسية الدائمة ، اذ كانت العناية بالصحة من حق الطبقات العالية وحدها . وكان الفقر والمرض والجهل ، حلفاء طبيعيين للطبقات العامة .

* * *

كانت سيبيريا من اولها الى آخرها سجناً لخمسة ملايين من البشر او اشباه البشر . بعضهم سجناء طبيعة تلك البـلاد الواسعة القاسية ، الماحلة ، وبعضهم سجناء القيصر المستبد الظالم .

* * *

كان الدين عبادة اصنام اكثر مما هو عبادة الله . وكان رجال الكنيسة الارثوذكسية — كنيسة الدولة الرسمية — يعظون بالشعوذة الدينية اكثر مما يعظون بالتقوى والمحبة والصلاح . كانت غايتهم تخدير العامة ، كي تبقى العامة قانعة بذلها ، مستسلمة لظلم الخاصّة ، صابرة على عذابها ،

مطمئنة الى عبوديتها ، موقنة بالسعادة في دنيا الآخرة .

* * *

هكذا كانت روسيا القيصرية ، اوسع امبراطورية على الارض . كانت روسيا اخصب حقل لنمو بذور الثورة . ولم تعدم الروسيا من زرّاع لهذه البذور . فعلى الرغم من الطغيان القيصري واستبداد الطبقة الحاكمة ؛ وعلى الرغم من تخدير الشعب بالمخدرات الروحانية ، وعلى الرغم من التجهيل الموجه من قبل السياسة القيصرية ، وعلى الرغم من الفقر المدقع الذي كانت تعيش فيه الطبقات العامة ، وعلى الرغم من الاوبئه التي كانت تكتسح الجماهير ، وعلى الرغم من ظلمات السجون ومنافي سيبيريا ، وعلى الرغم من كل العوامل الداخلية والخارجية التي كانت تسعى وتعمل من اجل استقرار الحالة كما هي ، فان الشعب الروسي لم يحرم من روّاد مؤمنين ومخلصين ، حملوا شعلة الحرية ، وشقوا لهذا الشعب الكبير طريق الخلاص ، فكتبوا ، وناضلوا ، واضُطهدوا ، وسُجنوا ، واعدموا ، على انهم القوا في تربة بلادهم بذرة التحرر . وما أكثر ما حاول الطغيان ان يبيدها ، ولكنها بقيت وعاشت وترعرعت ، ثم انتصبت في آخر الامر ، شجرة باسقة ، تخيم بظلها الوارف ، على شعب سيكتب له التاريخ اروع صفحات البطولة والمجد .

* * *

كان القرن التاسع عشر حافلا ببوادر الحركات الثورية في روسيا . على انه كان يغلب في تلك الحركات الطابع الفوضوي « والنيهيلستي » من وحي فئات خاّصة ، ذات غايات اصلاحية احياناً ، وذات غايات شخصية احياناً اخرى . كانت هذه الحركات فتناً اكثر مما كانت ثورات ، غير انها على كل حال كانت ردّة فعل للطغيان .

وكان الى جانب ذلك ، نشاط ادبي تحرري ، من قبل بعض المثقفين والكتاب والشعراء . هؤلاء عبدوا الطريق للثورة اكثر مما عبّدتها

الجماعات الفوضوية والنهيليستية . وذلك عن طريق ايقاظهم للوعي في الشعب . ففي كتابات بوشكين ، وتولستوي ، ودوستويفسكي ، وغوغول ، وتشيخوف ، وسائر افراد هذه العائلة الأدبية المخلصة ، تتجلى الحالة المرة التي كان يتخبط فيها الشعب الروسي . حتى الجهلة والاميين من الشعب الروسي كانوا يتناقلون ما يقرأ عليهم سراً من هذه المنشورات .

كان بوشكين النافخ روح الثورة في كل شعر من اشعاره . في منافي سيبيريا كان المساجين يتغنون باشعاره اللاهبة ، فتوقظ فيهم روح الأمل بالخلاص من مظالم الحكم الاستبدادي . ولطالما شغل بوشكين دوائر البلاط الامبرطوري ودوائر الجاسوسية في الحكومة ، حتى انتهى الامر بتدبير مؤامرة على حياته ، الشائع انها حيكت في القصر الامبراطوري بالذات ، ونفذت في براز بينه وبين ضابط من حاشية القيصر .

* * *

الكونت ليون تولستوي ، في حبّه للشعب ، تنازل عن كونتيته ، وطلّق بيئته الارستوقراطية ، ووصل به الامر ، الى هجر عائلته ، ليعيش مع الفلاحين والكادحين ، ويلهمهم في حياته بينهم ، ما لم تكن كتاباته تستطيع ان تلهمهم به بسبب جهلهم قراءتها والتزود من موحياتها وملهماتها . ان تولستوي الأديب ، والحكيم والرسول ، كان حارثاً في حقل الثورة الروسية ، على الرغم من طابع اللاعنف في روائعه الادبية وفي رسالته الانسانية ، اذ انه في كتاباته كلها كان يهدف الى تعريف الشعب الروسي على حقيقة حياته ، وايقاظ وعيه ، وانهاضه من حالة الاستسلام والذل والعبودية . ان في رائعة تولستوي « الحرب والسلم » اعظم تحفة ادبية واجتماعية ، وصف شامل للمجتمع الروسي ، ولأماني الشعب ، ولمحبته لأمه الروسيا . كما فيها وصف دقيق للنفس الروسية ، حليفة الالآم والكفاح والتضحية والعذاب المكبوت . وفي روايته « انا

كارنيني » صورة ناطقة عن الحياة الارستوقراطية في روسيا ، وتهتكها، واستهتارها ، الى جانب الحياة المسكينة التي تحيـــاها العامة ، المخدّرة بأفيون الكنيسة ، كي ترضى عن عبوديتها وتقبـــل ضروب التضحية المفروضة عليها .

* * *

غوغول ، تشيخوف ، دوستويفسكي ، بيلنسكي ، ... اسمـــاء ، كان لكتابات اصحابها فضل في خلق وعي عند الشعب ، اذ هيأ الطريق لثورته ضد الطغيان . حتى كتابات دوستويفسكي ، الرجل المتعبّد ، المؤيد للقيصرية ، المؤمن بخلاص الشعب الروسي عن طريق الايمان فقط، العازف عن الأخذ بالنظام الاشتراكي الثـــوري .. حتى دوستويفسكي هذا ، اسهم اسهاماً لا شعورياً ، ولا ارادياً ، في التمهيد للثورة ، فيما كتب عن ظلم الحـــكم وظلم رجال الكنيسة ، وفيما ابدع من روائع تحليلية للمجتمع الروسي وآلامه وعذابه وصبره .

ان الادب الواقعي والتحرري ، الذى اخرجـــه هؤلاء الكتاب ، يضعهم في مقدمة العاملين الممهدين لنجاح ثورة اكتوبر الكبرى . هذا الأدب الواقعي ، هذا الادب الحياتي ، هذا الابداع في تصوير الحياة الروسية والنفسية الروسية ، الذي اخرجه هؤلاء الروّاد ، خلـــده فيما بعد رائد جبار ، عاش العهدين ، عهد الطغيان القيصري ، وعهـــد الثورة التحررية ، اسمـــه مكسيم غوركي ، واضع اسس ادب الواقعية الاشتراكية . وكما ان الثورة الفكرية سبقت الثورة الفرنسية في عشية قرن التاسع عشر ومهدت لها ، هكذا كان شأن الثورة الفكرية الروسية ، اذ سبقت ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ ، ومهدت السبيل لانتصارها .

ان الشعب الروسي لم يكن يوماً في كل تاريخه ضعيف الايمان ولا ضعيف الوطنية ، بل كان ضعفه في وعيه . كان يحتاج الى من يخلق فيه هذا الوعي ، ويخلق فيه التصميم على العمل . وقد خلقتها فيه تلك

الثورة الفكرية التي حفل بها القرن التاسع عشر .

* * *

ان في تاريخ شعب روسيا ما يشبه الاساطير عن وطنيته وتمسكه بارضه ومقاومته الضارية لكل من تسول له نفسه غزوها والتسلّط عليها . كان يكظم غيظه على طغاته الداخليين ، اذا ما دعاه الداعي لمحاربة الاعداء الخارجيين ، كان هذا الشعب الجبار يدرك ان لا بـد من يوم يتحرر فيه من عبوديته . ولذلك كان يتناسى مـا يقاسيه من الحكام فيهب لمحاربة غزاته ، فلا يهدأ له بال حتى يقهرهم ويردّهم خائبين ، مؤجلاً تصفية الحساب مع مستعبديه الداخليين الى يوم الحساب .

* * *

ما كسر شوكة نابليون في اوروبا غير الشعب الروسي . ان معركة روسيا كانت بحق نقطة التحول في الحروب النابوليونية في القرن التاسع عشر ، تماماً كما كانت معركة روسيا في الحرب الاخيرة نقطة التحول في كسر شوكة النازية الهتلرية . فلا عجب اذا ما اطلق عـلى الشعب الروسي لقب مروّض المجانين ووحوش الحروب .

اريد ايها القارىء ان تطالع « السلم والحرب » لتولستوي ، كي تتعرف الى الشعب الروسي في حالتي السلم والحرب ، فتدرك اي شعب هو هذا الشعب ؛ الذي انتفض كما ينتفض الطير المذبوح ، واجترح من صميم آلامه وصبره وثباته ، عجائب بطوليته ، عندما اراد المجتاح ان ينزل به الضربة القاضية ، اذ هب بقضّه وقضيضه ، وحـارب الفاتح ، وقهر جيوشه ، ودك صرح الامبراطورية النابوليونية ، واعاد الامل الى النفوس ، بأن وحشية الطغيان لها عـــدو قهار وعنيد اسمه الحق .

لقد كان غزو نابليون لروسيا وفشله المريع ، درساً لدعـاة سياسة الفتح بالقوة ، لم تتعظ به الدول الاوروبية في ذلك الحـين ، اذ ان

حروبها مع نابليون ، لم تكن تبغي من ورائها قهر الامبراطور المتجبر وانما كانت تبغي فيها ، القضاء على الرواسب الباقية من روح الثورة الفرنسيّة . هذه الروح التي كان الامبراطور المتجبّر يرائي فيها ، بينما هو يتنكر لها في واقع حكمه .

ومع هذا فنحن نحسب ان غزوة نابليون لروسيا لم تكن عديمة الاثر من الناحية الحضارية . اذ انها زادت في التفاعل الفكري ، بين فكرات الثورة الفرنسية التحررية وبين الفكرات التحررية التي بعثها رواد الفكر التحرري في روسيا ، مما اذكى في الشعب الروسي روحاً كانت مكبوتة هي روح الشوق الى التحرر والانعتاق ، ما لبثت حتّى ظهرت في ثورة الديسمبريين .

* * *

كانت ثورة الديسمبريين عام ١٨٢٥ ، حركة بورجوازية ، قام بها نبلاء على القيصر . فلم يكن طبيعياً ان تنجح ثورة يضرمها نبلاء على نبلاء ، مفقود فيها العنصر الشعبي العارم . ومهما يكن من امر حركة الديسمبريين ، وعلى الرغم من فشلها ، فليس من الانصاف ان تجرّد من الفضل والفائدة . وبصرف النظر عن عدم استيحاء الديسمبريين حركتهم من اماني عامة الشعب ، وبصرف النظر عما كان هدف هذه الحركة ، فما لا شك فيه ، انها كانت على كل حال ، حركة تحرريّة، لم تمض بدون ان تترك اثراً في الشعب ، اذ بذرت فيه بذور الثورة ، وايقظته من سباته العميق . وكان من نتائجها ، ان اجبرت القيصر على الغاء الرقّ ونظام القنانة ، واوحت للشاعر بوشكين اروع اشعاره ، فألهب الروسيا من اقصاها الى اقصاها . اقرأه في ماحمته عن المنفيين الديسمبريين في منافي سيبيريا :

في جو المناجم السيبيرية القاتمة
ترقبوا الفجر بكبرياء وصبر

سيكون اثر لهذا الكدح المرهق الذي تكدحون
ولهذه الاشواق السامية التي بها تمجدون
للبلاء شقيق هو الرجاء
يناديكم نداء غبطة وقوة
يا ايها الذين يتلمسون السبيل الى النور
لينفجرنّ عليكم النهار خلال قفل ومفتاح
وليسرعنّ اليكم الاصدقاء ويقبل الحب دونما ابطاء
كما يطوف بكم الآن صوتي طليقاً رناناً
اذ انتم في دياجير الاقبية
ستقع عنكم السلاسل دفعة
وتنهدّ جدران الحبس مدحورة
فتستقبلكم الحرية باسمة الابواب
ويرد الاخوان الى ايديكم الحسام .

* * *

ثم يردّ بوشكين باسم الديسمبريين :
« وصلت الينا النبرات الحادة
التي عزفتها على اوتار تحركها روح النبوة
فامتدت ايدينا الى السيوف
غير انها لم تصادف الا السلاسل
ومع هذا فكنْ مطمئناً ايها الشاعر
لنا العزة بقيودنا ومصيرنا
نحن وراء اقفال السجون
نضحك من القياصرة
ليس عملنا المتواضع سدى
فنحن الشرارة تقدح الشعلة

وعندئذ يهرع شعبنا المستنير
ملتفاً حول اللواء المقدس
لنسكبن من سلاسلنا سيوفاً
ولنجددنّ شعلة الحرية
ولنثبنّ جميعاً على الملوك
فيتنفس الشعب آخر الامر ؛ الاغتباط

* * *

كانت ثورة الديسمبريين مقدمة لثورات لاحقة . وكثرت الفتن والاضطرابات والتظاهرات . وكانت من جهة ثانية حافزاً لتشديد السلطات في مراقبة كل حركة تحررية وقمعها والتنكيل بالقائمين بها . وعرفت روسيا في ذلك العهد اوحش انواع الاضطهادات الارهابية . وكانت الحكومة تحاول أحياناً اتخاذ اجراءات ترقيدية . ولكن لا اجراءاتها الارهابية ولا اجراءاتها الترقيدية ، استطاعت تهدئة الجو المتجهم . واذا كانت تمكنت من ان تخنق الانتفاضات الشعبية الى حين ، فانها عجزت عن اطفاء الشعلة الثورية في عامة الشعب ، التي كانت بدأت تنهج طرقاً مختلفة في اظهار غيظها . في هذه المدينة اضراب ، وفي تلك مظاهرة ، وفي غيرها اغتيالات فردية يقوم بها جماعة النيهيلست لالقاء الرعب في نفوس الحكام .

وفي عام ١٨٨١ اغتال الفوضويون القيصر اسكندر الثاني . وفي عام ١٨٨٧ ، حاولوا اغتيال القيصر اسكندر الثالث . وفي عام ١٨٩٦ اندلعت ثورة استطاعت الحكومة ان تخنقها بالقوة . وكانت هزيمة روسيا في حربها مع اليابان ايذاناً بثورة ١٩٠٥ ، اكثر الثورات شمولاً قبل ثورة اوكتوبر الكبرى . كل هذه الثورات انتهت بالفشل . غير ان الغليان استمر في مجراه ، وكان يزداد حدّة على حدة ، حتى دخلت روسيا الحرب العالمية الاولى ، وكان ما كان من انكسارها فيها ، وانهيار

النظام الامبراطوري ، وقيام حكومة كيرنسكي ، التي مـــا لبثت حتى طردهـــا من الحكم حزب لينين البولشفيكي .

* * *

قد يصح زمن تعيين انطلاق فكرة الثورة الاشتراكية العمالية في رأس باعثها لينين ، بعام ١٨٨٧ . ففي هـــذه السنة دبرت المؤامرة لاغتيال القيصر اسكندر الثالث . ومن جملة من اتهموا بالمؤامرة اسكندر اوليانوف شقيق لينين . فحوكم واعدم . وكان اعدامه سبباً لازدياد حقد اخيه لينين على النظام القيصري وعلى القيصر بالذات . لينين الفتى ، الذي لم يكن عمره وقتئذ اكـثر من سبع عشر سنة ؛ لينين هـــذا ، لم يكن يخطر ببال احد ، انه سيكون الملهم والقائد لاكبر ثورة في التاريخ ، تدك معالم اكبر امبراطورية ، وتقلب اعظم عرش ، وتقضي على اوسع نظام اوتوقراطي ، وتقيم مكانه نظاماً اشتراكياً شعبياً ، يرعب الحكومات وترقبه الشعوب في كل اقطار المعمورة . فما هو السحر في هذه الثورة ، وبماذا تمتاز عن سائر الثورات في التاريخ؟ وما هي العناصر التي تجعله وهو مضرمها محبباً الى هذا الحد؟سنسعى الى ان نجيب على هذه الاسئلة بايجاز.

* * *

تمتاز ثورة لينين عن جميع الثورات التي سبقتها ، بكونها مبنية على اسس علمية وتاريخية واقتصادية ومعيشيـــة . فهي ليست وليدة الهوس والحقد على الظلم وحسب ، بل وليدة الدرس والاحتكام الى العقل ، ووليدة النظرة الشاملة الى الحياة . هي ثورة حياتية ايجابيـــة ، حتى في مراحلها السلبية . هي ثورة من صميم ارادة الإنسان ، بان يعيش عيشة تليق بالانسان . هي ثورة لاتستند الا على الحقيقة العلميـة . ولا تأخـذ الا بها ، ولا تخضع الا لها . هذا ما يميزها عن سائر الثورات . وفي هذا عنصر نجاحها . ومن هنا كان فشل جميع المحاولات للقضاء عليها.

* * *

لنأخذ مثلاً الثورة الفرنسية ، وهي اقدس ثورة قامت قبل الثورة الروسية . ان الثورة الفرنسية ، اشتعلت نتيجة لطغيان الحكم الملكي ، واستبداد الطبقة الخاصة المحظوظة بالطبقات العامة المهملة . لقد انتفضت هذه الطبقات وقوّضت الملكية في فرنسا . ولكن ما كاد النظام الملكي ينهار ، حتى اخذ الفساد يتسرب الى النظام الجديد . كان شعار الثورة الفرنسية : حرية ، اخاء ، مساواة . غير ان هذا الشعار الجميل ، لم يسلم من الاعتداء عليه عندما قامت في النظام الجديد طبقات مفضلة ، ما لبثت حتى حلّت محل الطبقات الاقطاعية والبورجوازية والانتهازية، ذلك لأن العنصر العلمي والحياتي كان مفقوداً في الثورة الفرنسية . كانت الثورة الفرنسية ثورة غضب على ظلم ، ولكنها لم تكن تحمل معها توجيهاً علمياً لنظام يقوم مقام نظام الظلم ، ويقف سداً منيعاً ضد عودته بأساليب جديدة . كانت الثورة الفرنسية غاية ، ولم تكن وسيلة لغاية مرتكزة على عناصر تمنع تحقيق الغاية . هذا بالطبع لا ينتقص من أهميتها ولا ينتقص من فضلها على الحركة التحررية في العالم . ولكنها على كل حال لم تكن الثورة التي لا بد منها لتحرير الإنسان من عبوديته لأخيه الإنسان .

هذا ما أدركه لينين أكثر من غيره . وهذا ما جعله يؤسس ثورته على أسس علمية وتاريخية واقتصادية ومعيشية وحياتية ، لا على أساس الهوس والارتجال والمثالية الإنسانية الميتافيزية .

* * *

منذ جالت في خاطر لينين الفكرة الاشتراكية ، عكف على دراسة كارل ماركس ونظريته العلمية . ان لينين كان رجل علم قبل ان يكون رجل سياسة . فأراد ان يدخل عالم السياسة من الباب العلمي المادّي ، لا من باب الفكرة الميتافيزية . وقد وجد في فلسفة كارل ماركس ضالته المنشودة . الإنسان هو العنصر الأهم في المجتمع ، إذ لولا الإنسان لما

كان مجتمع . والإنسان ما كان وصل الى أعلى مرتبة بين الكائنات الحيّة لولا الصراع البيولوجي بين الأنواع ذات الحياة . هكذا شأن المجتمع ، فهو لن يصل الى المجتمع الأفضل إلا عن طريق الصراع بين مختلف طبقاته ، فتسوده الطبقة العامة الكاسحة العاملة ، وتقضي على الطفيليات التي تتحكم فيه . هذه الطفيليات هي جماعات المستثمرين بدون تعب ، والمرفّهين على تعب العمال والفلاحين ، الذين يشكلون الكثرة الساحقة من الناس ، والذين يكدحون وينتجون ويكافحون ، ولكنهم لا يشبعون. الصراع الاجتماعي يجب ان يحذو حذو الصراع البيولوجي الطبيعي التاريخي، إذ بدون هذا الصراع لا سبيل إلى قيام مجتمع لائق بالإنسان ، الذي تطلق عليه الفلسفة الماركسية اسم « الكائن الأعلى » .

* * *

رأى لينين – كما كان يرى قباه كارل ماركس – في النظام البورجوازي مرحلة تاريخية من مراحل التطور الاجتماعي ، على انها ليست المرحلة الأخيرة التي يتوقف عندها التطور . وكما ان هذه المرحلة كانت وليدة صراع بين طبقتين اجتماعيتين متناقضتين ، هما الاقطاعية المتأخرة والبورجوازية الناشئة المتقدمة ، انتصرت فيه الطبقة الثانية، هكذا سيكون الشأن بين الطبقتين ، الطبقة البورجوازية التي أخذت محل الطبقة الاقطاعية وبين الطبقة الثالثة التي نشأت من جديد . ذلك لأن التناقض الذي ولد الصراع بين الطبقة الاقطاعية والطبقة البورجوازية ، موجود مثله بين الطبقة البورجوازية والطبقة العاملة ، ولن يزول بدون صراع بين الطبقتين، سواء كان الصراع حيلياً وتساومياً وشرائياً كما كان الصراع بين الطبقتين الأولى والثانية ، أم كان صراعاً ثورياً في حال عجز هذا النوع عن بلوغ الغاية المنشودة . أما لماذا يتغلب العامل الثوري في الصراع بين البورجوازية والبروليتاريا ، فالسبب في كون البورجوازية أوسع حيلة من الاقطاعية ، وتمتلك من القوى أكثر مما كانت تمتلكه تلك ، وأكثر مما

تمتلكه الطبقة العاملة . هذا الفرق بين طبقة قليلة العدد ، وتمتلك كل شيء ، وبين طبقة كبيرة العدد ولا تمتلك من القوة غير الايمان ، يجعل الصراع بين البورجوازية والبروليتاريا صراعاً ثورياً . هذا ما جعل لينين يدعو الطبقة العاملة المغبونة ، والتي تسدّ الأفق بكثرتها الساحقة، الى الانتفاض والثورة كي تحصل على حقها . وعندما نفخ لينين روح الثورة في الطبقة العامة ، دعاها الى عدم التنازل عن أي حق من حقوقها ، مهيباً بها الى عدم القبول بالمساومة ، كي لا تقع في الأخطاء التي كانت تقع فيها في الثورات السابقة ، عندما كان العمال يثورون ، حتى إذا ما فازت الثورة يهرع البورجوازيون لاستلام الحكم . على هذا الأساس انشأ لينين حزبه الاشتراكي الديموقراطي . وإذ رأى ان في هذا الحزب جماعة تميل الى المساومة والتعاون مع من يسمونهم اشتراكيين وتقدميين من البورجوازية الصغيرة ، وقع الصدام بينه وبين هؤلاء التعاونيين ، وشنّ عليهم حملة لا هوادة فيها ، وفصلهم عن الحزب . ومنذ ذلك الوقت انقسم الحزب الى جناحين ، جناح لا يهادن ولا يساوم ، اسمه حزب البولشفيك بزعامة لينين ، وجناح اسمه المنشفيك حائر الزعامة . وقد بقي لينين يحارب المنشفيك طول حياته ، تاركاً لخلفه ستالين مهمة تصفيتهم النهائية . كان شعار لينين « كل الحكم للبروليتاريا ولمجالسها السوفياتية ، إذ ان الذين يعملون الثورة هم الذين يجب ان يتسلموا الحكم » .

* * *

اعتنق لينين الفلسفة الماركسية عن علم ووعي . والفلسفة الماركسية قلبت وجه الفلسفة من وجهها المثالي الميتافيزي الى وجه علمي مادّي . إذ إن الفلسفة الماركسية لا يجوز ان تحسب امتداداً او تطوراً للفلسفات التي سبقتها ، بل يجب ان ينظر اليها كفلسفة جديدة مستوحاة من نظرية داروين المادية . هي ليست فلسفة فكرة ، بل فلسفة علم ومعرفة ،

وتمشي مع تطور العلم والمعرفة . وهي ليست فلسفة جــامدة بل فلسفة متحركة ومتطورة . ولقد كان للينين الفضل الاكبر في تطورها ، من ماركسية ماركس وانكلز ، الى ماركسية لينين وفقاً للتطورات التاريخية التي حصلت في المرحلة الرأسمالية التي كان يعيش فيها ماركس ، الى المرحلة الامبريالية التي اخذت تتدرج اليها الرأسمالية . هــذا التطور في النظرية وتطبيقها بمقتضى تطور الرأسمالية التاريخي ، هو الذي جعل اسمها الحالي « الماركسية اللينينية » . ان الماركسية لا تقرّ الجمود ولا هي عقيدة حكمية ، كما يدّعي اعداؤها ، بل هي فلسفة علمية تطورية ، وضع أسسها ماركس وانكلز ، وطوّر قواعد تنفيذها لينين .

* * *

ليس هناك اي خلاف بين جوهر الماركسية وجوهر الماركسية الاينينية. هناك فقط فرقٌ في طريقة تطبيق الفلسفة المــاركسية بما يتلاءم مــع المراحل التاريخية ، وظروفها ، وملابساتها ومشاركاتهــا . الديالكتيك الماركسي والديالكتيك الماركسي اللينيني واحد،لأنه ينبثق من جوهر واحد. الانسان وليد التطور المادي البيولوجي . الوجدان نتيجة هــذا التطور . القوى الادراكية العاملة ، والصفات ، والأخلاق ، هي ايضاً وليــدة هذا التطور . المعرفة ليست وليــدة فكرة مثالية مطلقة ، بــل وليدة تطور المادة الدماغية وصقلها وتهذيبها . وقــد عبّر لينين عن جوهر الفلسفة المادية التاريخية بثلاث نظريات .

١ : ان الاشياء وجدت مستقلة عن الانسان وعن شعوره ووجدانه.

٢ : لا فرق بين الاشياء وما ينتج عنها . الاختلاف مرهون بمــا يعرف من الحقائق وما لم يصل الإنسان الى معرفته .

٣ : المعرفة بنت الجدل ، وهي كغيرها من العلوم ليست محدودة، ولا مطلقة ، بل نسبية ، وقابلة للبحث والاستكشاف . لا عصمة في المعرفة . الجهل بالشيء لا ينفي وجوده ولا صحته .

على هذه الأسس بنى لينين فلسفته . وعلى هذه الأسس بنى ثورته الشاملة : المجتمع ، الاقتصاد ، الدين ، السياسة ، السلطة . كل هذه الأمور تتطور حتماً بتطور المعرفة والزمن والحاجة . لا اطلاق في الحياة . ما كان حسناً او حقيقة في القرن الثامن عشر ، قد يظهر فاسداً وخطأ في القرن العشرين . الحقيقة نسبية . الطبيعة مستمرة في ناموسها التطوري. الجمود محال .

هذا هو جوهر الفلسفة الماركسية اللينينية وجوهر الفلسفة الماركسية على السواء . ومن هذه النظرة وضح لينين قاعدة الانتقاد والانتقاد الذاتي ، مدلّلاً على ان الماركسية اللينينية ، شأنها شأن الماركسية ، ليست عقيدة حكميّة ، وان الانتقاد والانتقاد الذاتي ، يجب ان يكونا عنصرين صميمين فيها ، من أجل التوصل الى معرفة الحقيقة . ان عنصر الانتقاد يدخل في صلب كل فلسفة ، ولكن لم يسبق لفلسفة غير الفلسفة الماركسية ان أدخلت في صلبها عنصر الانتقاد الذاتي ، وأصرّت على إحلاله عنصراً صميمياً فيها . وهو دليل على انها الأكفأ بين كل الفلسفات التي سبقتها لاستطلاع الحقيقة والكشف عنها ، بل هو دليل على أنها الوحيدة القابلة التطور مع تطور العلم والمعرفة ، والفلسفة الوحيدة التي في وسعها حلّ مشاكل الإنسان .

* * *

لم يكن لنشاط لينين حدّ . فهو الفيلسوف اذا كتب . وهو المناضل الذي لا يكلّ ولا يملّ . فقد حمل انجيل الماركسية وراح يبشر بها في المؤتمرات التي كان يعقدها خارج روسيا وداخلها ، وفي الصحف التي كان ينشرها ويوزعها اتباعه وتلاميذه سراً . ووقف في وجه الاضطهاد والإرهاب ؛ وما كان يخرج من السجن حتى يبعد الى منفى ، او يبعد نفسه الى بلاد اجنبية ، فيرسل منها منشوراته ، ويذكي حماس محبذيه

الذين لم يكن نصيبهم من الاضطهاد والتشريد والاعتقال والنفي أقل من نصيبه .

* * *

بقي الحزب البولشفي أميناً لفلسفة كارل ماركس وتفسيرات لينين لها . وأبى ان يحيد عنها ، او يتعاون مع من يحرف فيها . هو حزب الثورة الشاملة الكليّة . هدفه الوصول الى السلطة عن طريق الثورة . لا مفاوضة ، ولا مساومة ، ولا مهادنة . وأبى الاشتراك « بالدوما » الذي دعا اليه القيصر ، بل حاربه حرباً لا هوادة فيها ، إذ رأى فيه وسيلة تهدئة وتخدير وحسب . السلطة كلها للعمال والفلاحين . لا بورجوازية في الحكم . الأرض ملك الدولة ، تعطيها لمن يحرثها ويستغلها ويستثمرها بتعبه وعرق جبينه ، فتأخذ الدولة – وهي دولة الشعب – ما يمكنها من تصريف الأمور ، ويرصد الباقي على الفلاحين ، حسب نظام تعاوني وضعه الحزب (الكولخوز والسوفكوز) لا ملكية خاصة يستأجر لها عمال ، ولا تجارة خاصة ، ولا مهنة حرة خاصة . دولة الشعب هي المالكة ، وهي المهيمنة ، والكل عمال في دولة العمال ، كلّ يأخذ اجرته على قدر كفايته وانتاجه .

* * *

كان الحزب البولشفي هدفاً لمقاومة اليمينين والرجعيين واليساريين المعتدلين (المنشفيك) . فما لانت له قناة . وكان لينين ورفاقه طويلي الأناة أحياناً وقساة احياناً اخرى . وقد ساعدهم تطور الحوادث في روسيا ، كما أسهمت في نجاحهم ، المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تواجهها ، مما قوّى روح النقمة في العامة ، التي لم تجد لها نصيراً الا عند البولشفيك . ولما وقعت الحرب العالمية الاولى ، تنبأ لينين بأن روسيا ستخرج منها خاسرة . وعندما تحققت نبوءته ، وجد في هذا الانهيار مجالاً لبذر فكرته الثورية . فما كادت روسيا تغلب على امرها ، حتى

اسرع في العوده الى بلاده ، بعد ان سهّل له الالمان سبيل العودة ، ظناً منهم ان وجود لينين في روسيا يساعدهم على نيل رغائبهم. مساكين هؤلاء الالمان .. فهم ما عرفوا ان هذا القائد الشعبي الكبير ، الذي رضي بمصالحتهم وابرام معاهدة « برست ليتوفيسك » كان يضمر لالمانيا وكل الدول الرأسمالية كرهاً لا يفوقه كره .

•••

كانت غاية لينين أثر عودته الى روسيا ان يشعل الثورة فيها . فما كاد يصل الى بطرسبورج (لينينغراد فيما بعد) حتى التف حوله قواد الثورة الموجودون في روسيا . وفي اول خطاب ألقاه في الجماهير ، سحر الناس وألهب حماستهم . وعندما اعلن على الفلاحين ؛ ان الأرض بعد الآن هي لهم ، لا لملاكيها الاقطاعيين ، اصبح منذ ذلك اليوم معبود الشعب الروسي ، الذي اكثريته الساحقة من الفلاحين الكادحين الذين كانوا لا يملكون شيئاً من الأرض . ثم ما لبث ان أعلن الحرب ضد حكومة كيرنسكي التي كانت تألفت اثر تنازل القيصر نقولا الثاني ، وأرادت ان تستمر في متابعة الحرب . ثم كان يوم ٢٤ اكتوبر عام ١٩١٧ ؛ إذ هاجم جيش الثورة القصر الملكي في بطرسبورج واحتله ، وطرد كيرنسكي وحكومته، وألّف حكومة العمال والفلاحين باسم الحزب البولشفيكي وبرئاسة لينين . وكان اول مرسوم اصدرته حكومة لينين الثورية البولشفية ، مرسوم وقف الحرب ؛ مرسوم السلام .

•••

كان لينين فريداً في عبقريته، كما كان جباراً في إرادته . ادرك خطورة العمل فجابهه بأكثر ما يكون من الصلابة والايمان والجرأة . لقد استطاع ان يؤلب حوله اكثرية الشعب الروسي الساحقة كي يواجه بها اعداءه . في مرسومه بوقف الحرب جلب الجيش كله الى جانبه ، إذ ان الجيوش الروسية التي كانت الحرب قد انهكتها وجدت في مرسوم وقف الحرب

خلاصاً لها ، فالتفت حول لينين ، وعاد افرادها الى عائلاتهم وارضهم ومشاغلهم . وفي اعطائه الارض لمن يشتغلها ومصادرتها ممن يستثمرها ولا يشتغلها ، سارع الفلاحون الى الوقوف في جانب الثورة للذود عما اكسبهم اياه مرسوم الارض . وفي تحديده ساعات العمل بثمان ساعات ربحت الثورة تأييد العمال . وفي تأميمه وسائل الانتاج ، جعل العمال يشعرون انهم لم يعودوا اجراء مسخّرين لخدمة ارباب العمل وتجميع الثروات في خزائنهم ، اذ رأوا في التأميم أملا بان الانتاج بعد الآن سيكون من نصيب الشعب لا من نصيب قلة فقط .

بهذا التجمع العارم من عامة الشعب الروسي ، بين العمال والفلاحين ومسرحي الجيوش ، تمكن لينين العبقري من تأليب اكثرية الشعب الساحقة حوله في مجابهة الثورة الاهلية التي قامت بعد الثورة ودامت اكثر من سنتين ، والتي هرعت الدول الغربية لمساعدتها بكل طاقاتها العسكرية والمالية . كانت الثورة المعاكسة ثورة اهلية من جهة ، وكانت حرباً بين روسيا الجديدة والدول الرأسمالية من جهة ثانية . وحصلت الأعجوبة التي لم يكن ينتظر احد انها تحصل ؟ شعب جائع يشدّ الحزام على بطنه ، وشعب أعزل من السلاح أو نصف أعزل على الأقل ، وشعب حافٍ يرتدي الاسمال ويعضه البرد القارس ، وشعب خارج من حرب هدّت كل قواه ، وشعب فقد في الحرب كل ثرواته .. هذا الشعب الذي كان شأنه على هذا الشكل ، تمكن ان يفوز على اعدائه من مرتزقة وخونة من طراز « كورنيلوف » و « كلتشاق » و « دنيكن » و « فرانجل » ، تساعدهم جيوش احدى عشرة دولة غربية ومستغربة. أليست أعجوبة ان تُسحق جيوش منظمة على احسن ما يكون التنظيم ، ومزودة باحسن ما تكون الاسلحة ، وممولة بملايين الدولارات الاميركية والجنيهات الانكليزية والفرنكات الفرنسية والماركات الالمانية .. أليست اعجوبة ان تُسحق هذه الجيوش كلها على يد كتائب مُلملَمة من هنا

وهناك ، ليس لديها من السلاح إلا سلاح الايمان بان الثورة هي ثورتها، ثورة كل فرد من افراد الشعب ، ثورة من اجل ان يعيش الشعب عيشة انسانية كريمة ؟ أليست اعجوبة حقاً ان تتمكن ثورة لينين من سحق اعدائها الاقوياء بظرف سنتين فقط ، وتشيع الاستقرار في تلك البلاد الروسية الواسعة التي ما عرفت الاستقرار في تاريخها ، وتخلق جيشاً اسمه الجيش الاحمر ، له أكبر حساب بين جيوش العالم ، وتضع الأسس التنظيمية لأعظم ثورة اجتماعية في التاريخ ؟.. إذا لم تكن هـذه اعجوبة فكيف تكون اذاً الاعاجيب !

* * *

كان طبيعياً أن تتألب على لينين جميـــع القوى الرجعية ، المتمسكة عن اعتقاد أو عن مصلحة ، بالفلسفات الميتافيزية والحتمية . فكان عليه والحالة هذه ، أن يحارب على عدة جبهات . النظام القيصري الاتوقراطي جبهـــة . والكنيسة الارثوذكسية بمعتقداتها وتعاليمها ومخدراتها ، جبهة ثانية . الاقطاعية الزراعية والوراثية ، جبهة ثالثـــة . البورجوازيون ، ثائرين وغير ثائرين ، جبهة رابعة . والاستعمار الاجنبي ومصالح شركاته التي كانت مسيطرة في العهـــد القيصري ، جبهة خامسة . كل هـــذه الجبهات تحالفت وتوحدت لمحاربة لينين وحزبه ، بغية القضاء على ثورته الاشتراكية التحررية .

* * *

لم يلن لينين وحزبه . ولم يجبنا أمام هذه القوى المتحالفة ضدهمـــا . قالا للشعب ، ان السلطة القيصرية والكنيسة والاقطاعيين والبورجوازيين والاجانب ، حرموك حقك في الحياة ، ونحن انما نبغي اعـــادة حقك اليك . ان السلطة القيصرية تمنع عنك النور والحريـــة ، والسلطة الكنسية تخدرك بافيونها ، والاقطاعيين يستعبدونك ، والاجانب يستثمرون كدحك، وليس لك من خلاص إلا الانضمام الى حركتنا ، الهادفة الى تحريرك من

عبودية الجهل والفقر والمرض . فوقف الشعب الى جانب لينين وحزبه . وبقيت الحرب سجالاً بين البولشفيك ومناوئيهم واعدائهم ، الى أن تمت الغلبة الاخيرة للشعب ، وتوطدت اشتراكية لينين في البلاد كلها .

* * *

مما لا شك فيه أن الثورة البولشفيكية جنحت الى التطرف في اقصى حدوده في بادىء الأمر . فنزعت الملكيـــة كلها ، وأقفلت المعـــابد ، واضطهدت رجال الاكليروس ، والغت كل شركة او مصلحة اجنبية ، وأعدمت المئات من المتزعمين ، وشردت كل من سولت له نفسه مقاومة الثورة . كان التطرف واجباً في تلك الظروف ، لمقاومة التطرف الرجعي القديم . فالعنف لا يقاوم إلا بالعنف . والحرب لا تقاوم إلا بالحرب . وهذه الحرب التي شنهـــا المتحالفون ، من اقطاعيين ، وبورجوازيين ، وجيوش انكليزية ، وفرنسية ، والمانية ، ويابانية ، وأميركية ، وجيوش مرتزقة ، هـــذه الحرب الكاسحة الماحقة ، التي جوبهت بهـــا حكومة الثورة ، هل من انسان فيه ذرة من العقل ، في وسعه أن يلوم هـــذه الحكومة عـــلى العنف الذي قابلت به من كانوا يريدون خنـــق الثورة والقضاء عليها ؟ إن الدول الغربية طالما نسبت الوحشية الى حكومة الثورة ، ولكن هذه الدول ، تتجاهل وحشيتها عندما جندت جيوشها ؛ واشترت بأموالها ، المرتزقة من جنرالات ومحاربين ، ما تورعوا عن خيانة بلادهم وشعبهم ، وحاربوا مع الاجانب ضد أمهم الروسيا وضد اخوانهم وبني قومهم . لن يستطيع أي فيلسوف منصف من فلاسفة التاريخ ، إلا أن يعترف ، بأن الوحشيّة ليست في العنف الذي يستعمله المدافعون عـــن أنفسهم وعن شعبهم وعن القيم الـــتي نشأت الثورة على أساسها ، بل الوحشية هي في الذين فرضوا على هؤلاء ان يعنفوا ، وان يستبسلوا في عنفهم ، ضد العنف الوحشي الذي استعمل ضدهم . ان ما قاساه الشعب الروسي من حرمان وجوع وأوبئـــة ، في تلك الحروب المريرة ، تلك

الحرب الاهلية من جهة ، والحرب ضد الجيوش الاجنبية المعتدية من جهة ثانية ، لخليق بأن يكتب للشعب الروسي المكافح ، انصع صفحة في تاريخ النضال من أجل الحرية .

* * *

على أن التضحيات التي قدمها الشعب الروسي ؛ وعناده في مقاومة المتدخلين الاجانب ، وقضاءه على الرجعيين والخونة ، لا يعد شيئاً يذكر تجاه انتصار الثورة واستقرار النظام الاشتراكي في روسيا ، حتى اذا ما استقر هذا النظام ، عمد الحزب فيما بعد ، الى الحد من التطرف واستعمال العنف شيئاً فشيئاً تبعاً لمستلزمات الزمن والظروف . فتعدل الدستور ، وسمح بالملكية الخاصة الصغيرة التي لا تدع مجالاً لاستثمار الانسان لاخيه الانسان ، وابيحت حرية ممارسة الدين بعد أن انتزعت من رجال الدين كل سلطة زمنية . غير أن الاتحاد السوفياتي بقي يشعر بعداء العالم الرأسمالي الخارجي له واستعداده للانقضاض عليه لدى أول فرصة تسنح له . هذا ما جعله يقف على حذر من أي تدخل خارجي في شؤونه . فالاتحاد السوفياتي ، على ما أحسب ، قد يعدّل ويطوّر في أي خطة من الخطط ، ولكن شيئاً واحداً لن يتسامح ولا يتساهل فيه ، وهو العودة الى الرأسمالية .

* * *

من المحقق ان النظام الذي ساد البلاد الروسية بعد نجاح الثورة هو نظام ديكتاتوري . ولكن من المحقق ايضاً أن ديكتاتورية هذا النظام تختلف عن ديكتاتورية النظام القيصري. فالديكتاتورية السوفياتية هي ديكتاتورية الطبقة العاملة، أي ديكتاتورية الشعب، الذي تؤلف هذه الطبقة كثرته الساحقة، كما انها تؤلف الكثرة الساحقة في كل شعب . هذا النوع من الديكتاتورية الذي يتولاه حزب، وهو من صميم عامة الشعب، ومصلحته الحزبية منبثقة من مصلحة عامة الشعب ، لا نخطىء اذا ابتدعنا لها اسم « الديكتاتورية الديمقراطية » مع

ما في الكلمتين من تناقض قاموسي . اذ ان ديكتاتورية الطبقة العامة هي في مصلحة الطبقة العامة بينما الديكتاتوريات الأخرى هي ديكتاتورية الطبقة الخاصة المفضلة والمحظوظة ، أي أقلية الشعب ، ولمصلحة هذه الاقلية على حساب الاكثرية .

* * *

لا شك أن الديكتاتورية السوفياتية البروليتارية ذات نظام قاسٍ جداً . ولولا هذه القسوة ، لما استطاع مدبرو الثورة وقوادها أن يركزوا نظامهم ، ولما استطاعوا أن يقضوا على جشع الاقلية التي تعودت استثمار الاكثرية طوال الاجيال بتحالفها مع المطامع الاستعمارية الاجنبية ، وباستخدامها السلطة الروحية بغية إبقاء العامة في ظلمات الجهل والفقر والحاجة كي تظل غبية وذليلة ومستعبدة . من هنا كانت قسوة الديكتاتورية السوفياتية في بادىء الأمر على الأخص . فبالقسوة فرض الاصلاح الاجتماعي ، وبالقسوة فرض التعليم الاجباري والتطبيب الجماعي ، وبالقسوة فرض التحرر على جهلة الشعب . ولكن الامور يجب أن يحكم عليها من خلال الظروف التي كانت موجودة فيها . إن عند الظروف موجبات وملزمات لا يجوز التغاضي عنها .

ان الديكتاتورية بمعناها القاموسي شيء ، وبمعناها الفلسفي شيء آخر. فلننظر الى الديكتاتورية السوفياتية من المعنى الثاني .

* * *

كل ثورة تحررية يفرض فيها قيام سلطة ديكتاتورية . وقد تكون — أو بالأحرى غالباً ما تكون — بيد النخبة الواعية من الشعب وهي قلّة . وكل الثورات التحررية تتمخض بها هذه النخبة الواعية . فمتى كانت هذه الاقلية واعية وساهرة على المصلحة العامة ، ومتى كانت سلطتها محققة لأماني الكثرة ، فلا يلبث الشعب أن يلتف حولها بحيث تصبح الاقلية أكثرية ، والا تبرز من الشعب جماعة غيرها وتثور عليها . فالقول بأن

حكم الاقلية بطريقة ثورية حكم ظالم يحتمل الأخذ والردّ . ان الاكثرية في كل نظام هي واحدة من اثنين . إما أكثرية راضية عن الحالة العامة ولا تجد ما يدفعها للقيام بعمل ثوري، وهو لم يكن حاصلاً في روسيا القيصرية ، واما أن تكون أكثرية جاهلة مستعبدة وخاضعة بالقوة للحكم الظالم ، فتجد في ثورة تقوم بها جماعة منها — ولو كانت قلّة — معيناً لها على الخلاص . وفي هذه الحال لا تلبث الاكثرية ان تنضم اليها ، بحيث تصبح الاقلية الثورية اكثرية . وهو ما حصل بالفعل في روسيا . فالذين يعيبون على الثورة السوفياتية ديكتاتوريتها ، يجهلون ، او يتجاهلون لغاية ما ، الفرق بين الديكتاتورية بمعناها القاموسي وبين الديكتاتورية بمعناها الفلسفي الذي هو المعنى الأصح .

* * *

إن قسماً من الشعب الروسي قاوم الثورة في بدايتها ، إما تزلفاً لأسياد ألف استعبادهم له، او هرباً من انتقام هؤلاء الأسياد منه في حال إخفاق الثورة . هذا القسم من الشعب سبّب قيام الحرب الاهلية في السنتين الاوليين من الثورة . وعلى هذه الفئة بنت الدول الاجنبية آمالها في خنق الثورة . غير ان هذه الفئة بالذات ، والفئات الأخرى التي وقفت موقف المتربص في ذلك الحين ، ما عتمت حتى انقلبت من فئات حانقة وفئات متربّصة الى فئات مؤيدة للنظام الجديد . وانقلبت على النظام القديم ، عندما وثقت بنية الثورة والقائمين بها ، وعندما حرّرتها الثورة من عبوديتها الماضية ، وفتحت لها ابواب العمل والعلم والعيش ، وعندما خلّصتها الثورة من جور المستبدين بها ، وكفلت لها الضمانة الاجتماعية والمعيشة التي لم تكن تعرفها من قبل . صحيح ان الفترة التي مرّ بها النظام السوفياتي في سنواته الأولى كانت فترة قاسية جداً . وما كان طبيعياً ان تكون غير ذلك ، تجاه ما كانت تجابهه الثورة من اخطار خارجية وداخلية . ولكن النتيجة جاءت اخيراً كما يعلم الجميع ، وكما

سيذكرها التاريخ عندما يتحرر التاريخ من تأثير احداثه عليه ، وعندما يتحرر من الدعايات المغرضة ، وعندما يكتب التاريخ فلاسفة علم التاريخ، لا مسجلو حوادث التاريخ .

* * *

لم يقتصر مفعول الثورة الروسية على البلاد الروسية وحسب ، بل تعداها الى الدنيا كلها . فالثورة الروسية كانت بمثابة عود الثقاب الذي يشعل النار ، التي نوّرت عقول الشعوب المستعبدة ، واهابت بها الى اتخاذ الثورة الروسية قدوة لها . ففي كل بلد شكلت احزاب شيوعية واشتراكية ، اخذت على نفسها مقاومة الاستثمارات والاحتكارات والعبودية ، ومؤيدة للطبقات العاملة الكادحة المستثمرة . لقد وجدت الشعوب في التجربة الروسية ما يشيع فيها الأمل بالخلاص من تحكم الطبقة البورجوازية بها . وكان من الطبيعي ان تجد هذه الاحزاب تربة صالحة لنمّوها في البلدان المتأخرة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً . واذا كان من الطبيعي ايضاً ان تلاقي هذه الاحزاب تأييداً من الاتحاد السوفياتي ، فمن الصعب التدليل على ان الاتحاد السوفياتي كان يقدم لها الاعانات ، اللهم إلا في البلدان المتاخمة له ، والتي تشكل خطراً عليه إذا ما وقعت الحرب بينه وبين الدول الرأسمالية ، في حال بقائها ارجوحة بيد الدول الرأسمالية المتأهبة دائماً للانقضاض عليه وتقويض نظامه الاشتراكي . فالادعاء بأن الثورة الروسية تتدخل فعلياً لاحداث ثورات مشابهة في البلدان الاجنبية هو إدعاء خاطىء ، تناقضه تماماً طبيعة الفلسفة الماركسية التي هي عقيدة لا تأتي عن طريق القوة ، اذا لم يكن الشعب — اي شعب — يعتنقها بعقله ووعيه . كل ما في الأمر ان التجربة السوفياتية كانت مصدر إلهام للشعوب التي تأخذ بها . وليس عجيباً والحالة هذه ان تتطلع الشعوب الى البلد الذي يصدر منه هذا الالهام ، وتباركه ، وتستلهم نضالها منه

وتتعلم من تجربته .

* * *

الواقع أن العالم بعد الحرب العالمية الثانية انقسم الى جبهتين جبارتين، الجبهة الاشتراكية بزعامة الاتحاد السوفياتي ، والجبهة الرأسمالية بزعامة الولايات المتحدة الاميركية . كلا الجبهتين تدينان بالديمقراطية . غير ان لكل منها نظرة خاصة ومفهوماً خاصاً للديمقراطية . فالديمقراطية الرأسمالية ديمقراطية بورجوازية ، تحتكر خصائصها الطبقة البورجوازية ، بينما الديمقراطية الاشتراكية ديمقراطية شعبية لا تعترف بوجود طبقات في المجتمع الواحد . الديمقراطية الرأسمالية ديمقراطية طبقة خاصة ، والديمقراطية الاشتراكية ديمقراطية الطبقة العامة ، طبقة العمال والفلاحين والمثقفين ، الطبقة التي تعمل وتكدح وتنتج وتسعد وتُسعد .

* * *

من هذا الاختلاف في مفهوم الديمقراطية بين الجبهة الرأسمالية والجبهة الاشتراكية ، انبثقت الحرب الباردة الناشبة بين الجبهتين . كل منهما ينشد السلم على طريقته ، وكل منها يعطي « الحرية » معنى مستوحى من مفهومه للديمقراطية . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا ان المفهوم الاشتراكي يملك رجحان الكفة ، اذ ان المفهوم الاشتراكي اقرب الى الحقيقة العامية، ولأنه ايضاً أكثر تجاوباً مع رغبة عامة الشعوب وأمانيها في حياة سعيدة ، ليس فيها استثمار انسان لأنسان أو شعب لشعب ، وليس فيها جماعات تتوقف مصلحتها على اثارة الحروب والتكالب على جمع الأرباح. والاشتراكية في قضائها على هذه الجماعات – التي هي قلة بين البشر – وفي حرمانها إياها من حرياتها الاستثمارية والاحتكارية لوسائل الانتاج ، انما تقضي على أسباب الحروب . فالحروب ما كانت لولا جشع هذه القلة . والحروب ما كانت يوماً في مصلحة الشعوب ، حتى تلك التي تنتمي الى دول حاربت وانتصرت واستعمرت . هذه حقيقة تاريخية يعترف

بها كل المؤرخين .

* * *

كان على الرأسمالية ان تعمل شيئاً ما لتغايف وجهها ونياتها تجاه الموجة الاشتراكية العارمة . فعمدت الى الجمع بين الرأسمالية والاشتراكية ، عن طريق إحداث أنظمة وأحزاب اشتراكية اصلاحية ، تجمع بين طمع رأس المال ، وانسانية المبادىء الاشتراكية . فكانت هذه الاحزاب الاشتراكية في الدول الغربية التي لا تحصى وليس لها عدّ . على أن منطق الاحداث يدل علي ان هذه الانواع من الاشتراكية ليست أكثر من ستار تختبيء وراءه الرأسمالية ، إذ أن اشتراكية تجيز الاستثمار والاحتكار ، وتجيز الحروب الاستعمارية والتوسعية ، كما هي حال الاشتراكية الغربية ، إنما هي اشتراكية كاذبة ومناقضة للحقيقة الاشتراكية . من هنا كانت حملة الاشتراكية العلمية الثورية على هذه الانواع من الاشتراكية الاصلاحية والتساومية ؛ وهي حملة ليست اقل ضراوة من حملتها على الرأسمالية السافرة .

* * *

لقد كان الاتحاد السوفياني أول دولة اعتنقت الاشتراكية العلمية المادية والتاريخية ، وطبقتها بطريقة علمية وجذرية . فتحدّت ، وما زالت تتحدى ، سائر أنواع الاشتراكية ، المتفتقة عن عبقرية الرأسمالية الدولية. والاشتراكية العلمية تمشي من نصر الى نصر ، والشعوب تهرع لاعتناقها والأخذ بها وبتعاليمها . والنظام الاشتراكي العلمي يهيمن اليوم على نصف أقطار المعمور ، من حيث حكومات هذه الاقطار ؛ وهو قبلة الشعوب في الاقطار ذات النظام الآخر . وفي كل يوم تقوم حركات من شعوب الاقطار الرأسمالية وتفصح عن تأييدها لمبادىء الاشتراكية العلمية . والجدير بالملاحظة ، ان الفئات المثقفة من الشعوب هي الأكثر تأييداً لها . فإذا أخذنا بما هو حاصل ، استنتاجاً لما سيحصل ، باستطاعتنا الجزم بأن

عالم الغد سيكون عالم الاشتراكية العلمية ، أي عالم الاشتراكية الحقيقية .

* * *

ان علم التاريخ ليس فقط تسجيل أحداث وقعت ؛ بل هو عدا عن ذلك تفسير لهذه الأحداث ... تفسير أسبابها وظروفها ، وتفسير العبر التي تؤخذ منها ، وتفسير الحقائق المستخلصة منها ، وتكهنات واستنتاجات العقل الواعي منها بعد تمحيصها .. إذ انه اذا كان الحاضر هو حصيلة الماضي ، فان الحاضر هو الرحم التي يولد وينمو فيها جنين المستقبل . علم التاريخ إذاً ، هو تمحيص الاحداث ونبش الحقيقة المختفية فيها ، وابرازها ، وتفسيرها ؛ وجعلها مرتكزاً وإلهاماً لما سيجيء .

في هذه الاضواء ، يجب ان تدرس الثورة الروسية . وعندئذ يتبين للدارس ، ان هذه الثورة تتميز عن غيرها من الثورات ، بكونها تحولاً تاريخياً لا حدثاً تاريخياً وحسب . ميزتها الكبرى ، انها غيّرت وجه التاريخ ، ووضعت الأسس والقواعد لمجتمع انساني جديد ، مجتمع يليق بأعلى كائن من الكائنات الحيّة ، ليس فيه استثمار انسان لإنسان ، وليس فيه ما يسمح ان تتحكم فئة من الناس بفئة او بفئات اخرى ، ولا فيه ما يجيز استعمار شعب لشعب ، ولا فيه تفاضل بين الشعوب ، لا من حيث لون بشرتها ، ولا من حيث مناطق سكنها ، ولا من حيث التباين في تراثاتها وتاريخها وعاداتها وتقاليدها ومجتمعيتها . مجتمع قوامه العدالة الاجتماعية والانسانية ، وقوامه عدم حرمان الانسان – مطلق انسان – من الفرص لاظهار ذاته فيه ، ان بعلمه او بعمله او بما يكون عنده من الكفاءات .

* * *

وفضلاً عن ذلك ، فان الثورة الروسية أعطت للكلمة معانيها ومفاهيمها الحقيقية ، المنبثقة من الحقيقة الانسانية ، لا من شيء آخر . الديمقراطية هي التي يشعر بها كل الناس ، لا فئة خاصة من الناس ،

تستبدّ بغيرها من الناس . والحرية يجب ان تكون من حق عامة الناس، لا ان تكون وقفاً على قلّة من الناس. ووسائل النموّ والرقي والتقدم يجب ان تكون في متناول كل ابناء الشعب ، لا في متناول حفنة قليلة من الشعب . انها ثورة العلم على الجهل ، وثورة الحقيقة على الخرافات والوهم ، وثورة الانسان على الطبيعة ، وثورة الكفاءات على الكسل ، وثورة الحق اينما وجد على الباطل اينما وجد ..

هذه هي ميزات ثورة اوكتوبر الاشتراكية الكبرى . وهذه هي كوامن نجاحها ، ومقومات بقائها وانتشارها وانتصارها .

٢٥ . يقظة الشرق

•

بينما كان الغرب يمضي قدماً في نهوضه ، وبينما كان العلم في الغرب يوالي كشوفاته عن مخبـآت الطبيعة ويضعها في خدمة الانسان ، وبينما كانت الصناعة في الغرب تمشي في طريق الازدهار ، وبينما كان التقدم العمراني في الغرب يزداد قرناً بعد قرن، وسنة بعد سنة، ويوماً بعد يوم؛ وبينما كان مستوى الحياة في الغرب يرتفع باطّراد .. كان الشرق يغط في هجعته الروحانية ، نائماً على ماضيه ، قانعاً في حاضره ، مستسلماً للاقدار ، ولا يعمل شيئاً من اجل مستقبله . وكانت عين الغرب ساهرة دوماً ، حرصاً منها على ان يبقى الشرق في غطيطه ، كي يسهل عليه استثمار ما في الشرق من كنوز وخيرات . وكانت الشقة تمتد ابعد فابعد، على الرغم مما كان للعـلم الغربي من فعالية في تقريب الشقة المساحية بينهما .

وقد حطّ الغرب عينه على الشرق ، وجعل يجشع باستثماره ، واخذ يفلسف جشعه فيه . كان الغرب يفلسف الاستعمار، ويفلسف الروحانية، ويفلسف الحق ، ويفلسف الحرية ، ويفلسف المعتقدات كلها ، لغاية واحدة ، وهي استعماره للشرق كيفما كان الحال . وكانت زبدة هذه الفلسفة الغربية قول الشاعر والفيلسوف الانكليزي كبلنغ : «الشرق شرق والغرب غربٌ ولن يلتقيا» . هذه العبارة التي ما زال الغرب حتى الآن

يتلوها ويرددها كما لو كانت من الآيات المنزلة ، هي مجمل الفكرة التي تقوم عليها نظرة الغرب الى الشرق .

وقد بقي الشرق ، على كبر مساحته وكثرة عـدد شعوبه ووفرة مرافقه وخيراته ، القطعة الجغرافية المتأخرة .. شعوبها مستعبدة، وسلطاتها آلة تحركها يد الغرب ، ونفوس اهلها مستذلة ، ومستوى حياة ابنائها في الحضيض ، وارواح بنيها مسترخصة ، وسلامتها وامنها على كف عفريت – عفريت الاستعمار الغربي – وبقي الشرق شرقاً ، والغرب غرباً دون ان يلتقيا .. وكانت الثورة الاشتراكية في روسيا ، العامل الاول والاكبر في لقائهما .

* * *

كان في الثورة الروسية تياران ، تيار يتطلع صوب الغرب ، وتيار يتطلع صوب الشرق . موجهو التيـار الاول يقولون : ان نجاح الثورة يتوقف على تعميمها في اوروبا ولا سيا المانيا، على اعتبار ان في الغرب حركة عمالية، ووعياً عمالياً ثورياً ؛ يسهل معهما قيام الثورة . كان يتزعم هذا التيار تروتسكي ، الغربـي الثقافة والنزعة . وموجهو التيـار الثاني يقولون : يجب استقرار الثورة في روسيا اولا ، وامتدادها الى الغرب يجب ان يأتي عن طريق الصين في الشرق مهما كان الوعي العمالي فيها ضعيفاً ؛ اذ ان نير الاستعمار في الصين واضطهاد الاستعمار لشعب الصين، لا بد وان يدفعا الشعب الصيني الى استمراء فكرة الثورة، ثم التيام بها. كان يتزعم هذا التيار ستالين بعد ان مات لينين عام ١٩٢٤ . وكان الصدام بين التيارين وبين الزعيمين . واستطاع التيار الستاليني ان يفوز على التيار التروتسكي. وغاب تروتسكي عن المسرح ونفي . وقد برهنت الاحداث فيما بعد ، على صحة نظرية ستالين . وانتصرت النزعة الستالينية

الشرقية على النزعة التروتسكية الغربية بل الكوزموبوليتية .

* * *

لا مجال هنا للتبسّط في الخلاف بين التيارين . الشيء المهم هو تبيان تأثير الثورة الاشتراكية الروسية في احداث الشرق عامة ، وفي الثورة الصينية خاصة .

* * *

بعد انهيار الامبراطورية في الصين ، وتحولها الى جمهورية على يد قائدها العظيم «صن يات صن» ، وبعد القضاء على الخلافات التي نشأت بين الزعماء واستقرار الجمهورية ، اخذ هذا القائد يعمل على تحسين اوضاع بلاده الكبيرة ، واضعاً نصب عينيه مبادىء ثلاثة: القومية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية . وكان طبيعياً ان يتطلع القائد الى مساعدات خارجية لتطوير بلاده اقتصادياً . ورفضت الدول الغربية ان تمدّه بايما مساعدة لعدم هضمها وجود صين قوية تفقدها ما كانت ترجحه من وجود صين فقيرة ومتأخرة ، يسهل عليها استغلالها واستعباد شعبها . فتطلع صن يات صن الى الاتحاد السوفياتي حيث وجد الترحاب لمطالبه منه . كان صن يات صن قد سافر اكثر من مرة الى الاتحاد السوفياتي ، واطلع على نجاحات الثورة فيه ، ورأى ان ظروف بلاده لا تختلف عن ظروف روسيا قبل الثورة . فجعل ينظر الى الثورة الاشتراكية الروسية كنموذج يجب ان تحتذيه الصين. وجعل يهدف الى احداث انقلاب شعبي كالانقلاب الذي قام به الشعب الروسي . وعلى الرغم من ان صن يات صن لم يكن شيوعياً ، بل كان اشتراكياً معتدلا ، فقد تأثر من عطف الاتحاد السوفياتي على بلاده واستعداده لمدها بالمساعدات . ووضع نصب عينيه تحويل الصين الى جمهورية ديموقراطية شعبية ، ووضع للثورة الصينية المبادىء الثلاثة التي ذكرناها آنفاً وهي : القومية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية ، هادفاً من وراء هذه المبادىء الى تحرير وطنه من الاستعمار ،

في نظام ديمقراطي تؤمن فيه معيشة الشعب . وعندما اشرف على الموت كتب وصيته التالي نصّها .

« اربعون سنة قضيتها في الجهاد في سبيل الثورة الوطنية من اجل تحرير الصين . ان اختباري في الاربعين سنة هذه ، ركّز فيّ الاقتناع بأن الهدف الذي نصبو اليه يقتضي لتحقيقه ، العمل على اثارة انتفاضة شعبية من جماهير الشعب كلها ، والكفاح مع جميع الأمم في العالم الّتي تعاملنا على قدم المساواة . ان الثورة لم تنجح حتّى الآن . فعلى كل الرفاق ان يواصلوا كفاحهم الشاق من اجل تعمير الوطن وازدهاره ، حاملين معهم باخلاص وأمانة ، المبادىء الثلاثة الّتي وضعت اهدافها . اننا ندعو الى قيام مجلس وطني ، وندعو الى الغاء كل المعاهدات غير المتكافئة » .

* * *

لم يكن في الصين حزب شيوعي وقتئذٍ . كان فيها نفر من الشباب والمثقفين يتمذهبون بالشيوعية ، ويقومون بنشاطهم في خلايا سريّة . ولكن لم يكن لهم لا حول ولا طول . غير ان الانطباعات الحسنة الّتي تركتها في ذهنه استعدادات الاتحاد السوفياتي لاستجابة مطالبه ، جعلته يتقرب من الاتحاد السوفياتي ، ويرحّب بقدوم مستشارين سوفيات لتنظيم شؤون بلاده اقتصادياً قبل كل شيء آخر . كان اخلاص هؤلاء المستشارين في عملهم في الصين يزيد تعلق صن يات صن بالاتحاد السوفياتي. ومع ان هؤلاء المستشارين لم يحاولوا تشكيل حزب شيوعي ، غير ان صن يات صن ، سمح بخروج الحزب الشيوعي من سريته ، وانضم الى حزب الكومنتانغ ، حزب صن يات صن .

* * *

غير ان موت صن يات صن المبكر ، كان سبباً في الانقسام بين خلفائه . وطمع بالسلطة الكاملة عديله تشان كاي تشك ، الذي تولى

رئاسة الجمهورية بعد وفاة صن يات صن . وتزعم حزب الكومنتانغ ، الذي ظل مهادناً للحزب الشيوعي مدة من الزمن . وتحالف الحزبان في محاربتهما الغزو الياباني . وبقيا متحالفين في الحرب العالمية الثـانية . ثم انقلب حزب الكومنتانغ فيما بعد على الحزب الشيوعي الذي كان يتزعمه ماوتسي تونغ . وتحول عن محاربة الغزو الياباني والاستعمار الغربي الى محاربة الحزب الشيوعي . وجعل يتنكر لمبادىء صن يات صن . وانجرف الى الغرب . واستقباله الغرب بذراعين ممدودتين . وتحولت الجمهورية الصينية الى جمهورية يرأسها دكتاتور برعـاية الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة الامير كية .

* * *

كانت ديكتاتورية تشان كاي تشك في الحكم، على غرار ديكتاتورية موسوليني الفاشية وديكتاتورية هتلر النازية دون ان تكون على غ ارهما بالتنظيم الاقتصادي . وبقيت الصين على ما كانت عليه : عامة الشعب في فقر مدقع . تجارة الافيون لم تفقد ازدهارها . الدعارة لم تتوقف بل ازدادت عن ذي قبل . الصناعة الاجنبية استمرت في محـاربة الصناعة الوطنية الناشئة . مستوى المعيشة عند العامة بقي في الحضيض . الظلم الاجتماعي كان من صلب السياسة التشان كـاي تشكيه . الاستبداد الامبراطوري تحول الى استبداد كومنتانغي . الاقطاعية عادت الى الحكم. النفوذ الاجنبي فوق كل نفوذ . الفساد المتفشي كاد يطيح بمبادىء صن يات صن . الثورة كادت تخنق في المهد . زوجة تشان كاي تشك تقمصت فيها الامبراطورة ماري انطوانيت . بطانة تشان كاي تشك جعلت تسرح وتمرح وتستثمر وتبيع وتشتري وتثري . الجمهورية الصينية والشعب الصيني اصبحا على كف عفريت .

* * *

على ان مارداً كان يقف على عتبة، ويتحفز للانقضاض على الباب..

كان هذ المارد تلميذ صن يات صن البار ، ماوتسي تونغ .

كان ماوتسي تونغ مفكراً وشاعراً وعالي الثقافة . وكان ماركسياً من قمّة رأسه الى اخمص قدميه .. واذ رأى انحراف تشان كاي تشك عن مبادىء صن يات صن ، جعل ينشيء المقاومة الشعبية ضد الكومنتانغ . واسرعت جماهير الفلاحين للالتفاف حول حركته. وبث فيها روح الثورة على الحكم التشان كاي تشكي . وكان الزحف التاريخي المشهور في المقاطعات الجنوبية الى المقاطعات الشمالية الشرقية . كانت الاهالي تستقبل الزاحفين بأكثر ما يكون من الترحاب ، وتنضم الى صفوفهم . وكان ماوتسي تونغ كلما وصل الى منطقة شرع من توه الى تنظيمها اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً . وتوالت المعارك بين جيش ماوتسي تونغ وجيش تشان كاي تشك الى سنوات . كانت الولايات المتحدة تغذي جيش الكومنتانغ بكل انواع الاسلحة فينتزعها جيش ماوتسي تونغ منه ؛ اما بالمعارك ، او عن طريق فرار كتائب تشان كاي تشك الى الجانب الآخر. كان جيش ماوتسي تونغ يعرف انه انما يحارب من اجل الحصول على حقه في العيش ، وكان جيش تشان كان تشك يحارب ولا يعرف لماذا يحارب . هذا ما كان يجعل جيش ماوتسي تونغ يزداد قوة وعدداً وعتاداً يوماً عن يوم ، وهذا ما كان يجعل جيش تشان كاي تشك ينقص ويضعف يوماً عن يوم . وكان النصر الاخير لجيش ماوتسي تونغ ، جيش الشعب الصيني . فهرب تشان كاي تشك من بلاده الى جزيرة فورموزا بعد ان ارتكب اثناء فراره افظع الجرائم في طريقه الى هذه الجزيرة حيث استقر تحت حماية الاسطول الاميركي ، وحيث الف حكومة كركوزية ترعاها وتساعدها وتشرف عليها وتستعبدها حكومة الولايات المتحدة . ونجحت الثورة في الصين . وجعلت تمشي من نجاح الى نجاح. وتوطدت السلطة الثورية في بلاد شعبها ستمائة مليون انسان . وصحت نبوءة التيار الستاليني ؛ في ان الثورة الاشتراكية الشعبية طريقها الصين الشرقية ،

لا اوروبا الغربية .

* * *

وانطلقت الصين في طريق التقدم منذ اليوم الاول لانتصار الثورة ، وهو اليوم الاول من شهر اكتوبر عام ١٩٤٩ . وجعلت تبرمج سياستها الانعاشية والتحررية . والتف حولها الشعب الصيني كله اذ رآها تتمسك بمبادىء صن يات صن وتعمل بوصيته . وتحرر الشعب الصيني من الاستعمار ، وتحرر من الاستبداد الاقطاعي ، وتحرر من آفتي الافيون والدعارة، وتحررت المرأة من عبوديتها للتقاليد وجعلت تشعر بانها انسان ونشطت الجمهورية الجديدة الى تنظيم العمل الجماعي على غرار التنظيم السوفياتي مع بعض الفوارق التي تقتضيها الحالة في الصين . ونشأت في الصين حركة تعليمية وتثقيفية كان اهم من قام باعبائها الحزب الشيوعي. ولم يعد العلم وقفاً على الطبقات الارستوقراطية والبورجوازية الغنية ، بل اصبح مشاعاً لعامة الشعب . وتبخرت من الانسان الصيني روح القدرية والتواكلية ؛ وحلّت محلها روح العمل . واخذت الصناعة تزدهر شيئاً فشيئاً . وصدر قانون الاصلاح الزراعي الذي حرر الفلاح من عبوديته للارض ولصاحب الارض ، اذ جعل انتاج الارض ملكاً لمن يخدمها ويحرثها . واخذ الدخل القومي يزداد باطراد . وارتفع مستوى المعيشة عند عامة الشعب ، وجعلت تشعر هذه العامة ان وطنها اصبح لها، لكل فرد منها، بعد ان كان هذا الوطن لقمة سائغة للمستعمرين وزبانيتهم . ودخلت الصين في المحيط العالمي بعد ان بقيت قروناً واجيالا منطوية على نفسها . وظهرت في الشرق قوة جبارة، لم يعد بمقدور العالم الخارجي ان يتجاهلها او يستهين بها .

اما لماذا نجحت الثورة هذه ولم تنجح الثورات التي سبقتها ، فهذا

ما يحتاج الى توضيح .

* * *

لن نتعرض للثورات في العهود الامبراطورية ، إذ ان تلك الثورات ، ما عدا بعض انتفاضات موضعية وارتجالية ، لم تكن ثورات بالمعنى الكامل الصحيح . وانما كانت فتناً يقوم بها اشخاص او جماعات من اجل استلام الحكم محل الحكام او الملوك او الاباطرة القائمين . كان العنصر الشعبي في تلك الانتفاضات مفقوداً . وكان الشعب آلـة يستخدمها الثائرون والمثار عليهم . فالعنصر الشعبي لم يظهر إلا مع ظهور صن يات صن ولكن لماذا لم تنجح ثورة صن يات صن ايضاً ؟

ليس من ينكر على صن يات صن اخلاصه ومحبته للشعب الصيني وكفاحه من اجل تحريره وتقدمه . وليس من ينكر تلهفه على احداث ثورة شعبية وطنية في الصين ، تنقلها من حالة الجمود والعبودية الى حالة التقدم والتحرر . فهو الاب الحقيقي الاول للثورة الصينية والشعب الصيني . وهو اول من وضع مبادىء الثورة ، واول من زرع بذورها . وهو اول من خلق في الشعب الصيني وعياً ثورياً . على ان ما كان ينقص ثورة صن يات صن ، هو ظروف نجاح ثورته . صحيح ان صن يات صن كان يتطلع الى الثورة الروسية كنموذج يجب الاقتداء به . ولكن الثورة الروسية ، وان كانت اصابت الكثير من النجاح في حياة صن يات صن ، غير انها لم تكن استقرت وتوطدت تماماً بعد . فما كان لصن يات صن ان يأمل في مساعدتها بغير النزر القليل . وما كان للشعب الصيني ان يأخذها عبرة له وينسج نسجها . فما ان غاب صن يات صن حتى دبت في حزبه الكومنتانغ الخيانة لمبادئه الثورية . وتحالف الكومنتانغ مع اعداء الثورة الداخليين والخارجيين . فجمدت الثورة ولم يبق منها غير جذوتها .

ثم تغيرت الظروف . واشتد ساعد الثورة الاشتراكية السوفياتية ،

وتركزت نجاحاتها . واستقرّت على احسن ما يكون الاستقرار. واصبحت قادرة على مدّ يد المساعدة لمن يطلبها اكثر من ذي قبل . ووجد ماوتسي ظروفاً اكثر ملاءمة من ظروف صن يات صن . ورأى ماوتسي تونغ خليفة صن يات صن وحامل مبادئه ، في التجربة السوفياتية ونجاحاتها ، ما يقوي ايمانه بنجاح ثورته في الصين . وأنس باستعداد الاتحاد السوفياتي لمساعدته . فحمل لواء الثورة مجدداً . واعطى الشعب الصيني مثالا من التجربة السوفياتية على ما يستطيع ان يعمله الشعب متى اراد . وكان نجاح التجربة السوفياتية حافزاً على قيام الشعب الصيني بتجربة مماثلة ، بعد ان آمن وايقن ، ان التجربة المماثلة لا بد وان تأتي بنجاح مماثل . ونجحت التجرية الصينية بعد نضال شاق ضد اعدائها الداخليين ، وضد قوى الاستعمار التي هرعت لمساعدة هؤلاء الاعداء الداخليين .

كان صن يات صن الاب الأقدس للثورة الصينية والشعب الصيني . وكان ماوتسي تونغ ، الابن الاخلص والأبرّ لهذا الأب .

* * *

وجاءت ظروف اخرى تؤاتي نجاح الثورة الصينية، غير ظروف التجربة السوفياتية ومساعدة الاتحاد السوفياتي. وهي ظروف خلقتها الحقيقة التاريخية بعد الحروب الاخيرة . فانهيار الفاشية والنازية من جهة ، والموجة التحررية التي اكتسحت الشعوب في جميع اقطار العالم من جهة ثانية ، وضعف الاستعمار من جهة ثالثة ، كل هذا شدّد من عزيمة الشعب الصيني على خوض معركته التحررية ، بعناد وايمان وصلابة ، وهو موقن بأن ساعة خلاصه قد دقت .

إذن . يصح ان نقول ان نجاح الثورة الصينية الاخيرة كان نتيجة أشياء ثلاثة ، هي : وعي شعبي متزايد ، وظروف مؤاتية ، وقيادة صالحة حكيمة ومخلصة .

ان مارداً في الشرق استيقظ من سباته وخرج من القمقم الذي كان حبيساً فيه .

* * *

لا يسع اي عالم في التاريخ ، ومفسّر لاحداثه ، الا ان يأخذ بعين الاعتبار ، يقظة الشرق اثناء الثلث الثاني من القرن العشرين . فالحرب العالمية الثانية ، وما انتاب فيها الشرق من ويلات ، وما ذاقته الشعوب من مصائب وكوارث ، وانهيار الفاشية والنازية ، وخيبة امل الشعوب الشرقية من انجاز الوعود التي كانت تعدها بها الدول الاستعمارية بعد النصر ، وتحول ديموقراطية هذه الدول الى « ديموقراطية استعمارية واستيلائية واستثمارية » ، وظهور نوع جديد من الاستعمار الاقتصادي والتعاقدي .. كل هذا ، نفخ في الشعوب الشرقية روحاً جديدة، وجعلها تدرك ان خلاصها لا يمكن ان يأتيها من الخارج ، اذا هي لم تكافح بنفسها من اجله. فكانت اليقظة . واكتسحت الشرق موجة من النضال ، ما زالت مستمرة حتى الآن وبتزايد متواصل . وليس هناك ما يدل على ان هذه الموجة ستتوقف قبل ان يتحرر الشرق من استعمار الغرب .

* * *

ليس مهماً ان يكون نضال شعوب الشرق قد اخذ طرقاً مختلفة ، واستعملت فيه وسائل واساليب مختلفة . وليس مهماً ولا مستغرباً ان يكون هذا النضال اصاب عند مختلف الشعوب نجاحات متفاوتة الدرجات . فاختلاف اشكال النضال يتبع حتماً اختلاف امزجة الشعوب وتقاليدها ، وظروفها ، ومدى استعدادها ، والتباين في عقائدها وفي نظرتها الى الكون. ولكن هذه الاختلافات لا تنفي وجود قاسم مشترك بينها ، وهو الشعلة الوطنية المقدسة التي تلهب النفوس وتحفزها على الكفاح من اجل الغاية المنشودة في جميع هذه الشعوب ، الا وهي التخلص من

الاستعمار بجميع اشكاله المكشوفة وغير المكشوفة . وليس من ينكر وجود هذه الشعلة في شعوب الشرق ، اقصاه ، وأوسطه ، وأدناه . فلننظر الى الحالة في الشرق بعد الحرب العالمية الثانية .

* * *

تحدثنا بشيء من التطويل عن الصين اذ ان الصين هي حجر الثقل في الشرق . فلتكن جولتنا الثانية الى خارج الصين .

بعد نضال طويل وشاق استقلّت الهند ، البلد الشرقي الثاني في الكبر وفي عدد النفوس بعد الصين . وتخلصت من الاستعمار البريطـاني الذي رزحت تحته اكثر من مائتي سنة . لم يكن نضال الهنـد نضالا ثورياً بالمعنى الكامل ، بل كان نضالا ذا طابع ثوري خاص ، وضع فكرته وطبقها ابو الهند الروحي المهاتما غاندي. كان غاندي يبشر بمبدأ اللاعنف، لأنه كان رسول سلام لا رسول حرب . هذا من جهة . ومن جهـة ثانية ، كان غاندي ، وهو الرجل الحكيم، يدرك ان الاستعمار البريطاني، القوي بجيوشه وأساطيله ونفوذه الدولي ، لا يستطيع الشعب الهنـدي ، المتأخر ، الفقير ، الضعيف ، المستعبد للروحانية والتقاليد الرجعية ، والغارق في الجهل ، ان يجابه هذا الاستعمار الجبار بالقوة وجهاً لوجه . فاختار طريقة الثورة اللاعنفية : مقاطعة المستعمر مقاطعة كاملة . الامتناع عن دفـع الضرائب . اضرابات وتظاهرات كان يقودها هو بنفسه ، ويتلقى اول الضربات بسببها . تقشف في المعيشة كي يخسر المستعمر البريطاني سوق الهند الكبيرة . عدم الاشتراك مـع الحكام بحفلة ما ، وعدم التوظف في دوائرهم . العودة الى المغزل اليدوي لحياكة الالبسة الهندية . طرح الالقاب ورتب الشرف كلها . عدم الاكتتاب في قروض الحكومة. اضراب المحاكم ورجال القانون، وتصفية الخصومات بالتحكيم . مقاطعة المدارس الاجنبية ، الخ الخ .

كانت الهند في ثورة دائمة ، قد يصحّ تسميتها ثورة صامتة ، ما كانت تراق فيها الدماء الا عندما يغضب الاستعمار ؛ ويعمل هو على سفك الدماء . ولكنها على كل حال كانت ثورة طالما أقضّت مضاجع الامبراطورية البريطانية ، وكسرت شوكتها ، وأذلّت عنفوانيّتها ، وأجبرتها في آخر الأمر ، على الخضوع أمام جبروت الشعب الهندي . وقد قدر للرسول العظيم ان يرى بلاده تستقل قبل ان يغمض عينيه . وأصبحت الهند القوة الثانية الجبارة في آسيا بعد الصين ، بل في الشرق كله .

ان الشعوب هي التي تصنع التاريخ . ولكن الشعوب لكي تصنع التاريخ يجب أولاً ان تصنع منها ابطالاً يقودونها في صنع التاريخ . هكذا كان غاندي والشعب الذي جعله بطلاً . ان غاندي ، هذا الرجل الكبير في ايمانه لا بقوته ، والكبير ببساطته لا بجبروته ، هذا الرجل الذي ما أحاط نفسه بمجد ، وعاش مع أحط طبقات مجتمعه ، وآكلها وشاربها ، وكان يخرج الى الناس نصف عارٍ ، وكان يقابل أكبر قوة على الأرض بالصمود الصامت ، والسماحة الى اقصى حدّ ، وبسلاح الصوم حتى الموت الذي أرهب أكبر عرش . . هذا الرسول الذي كانت كلمة تخرج من فمه ، تلهب الاربعمائة مليون هندي .. هذا الرجل النحيل النحيل في جسمه ، والضخم الضخم ، في إرادته وعقيدته ووطنيته وإيمانه .. هذا المسيح الجديد ، الذي ما انحنى أمام جبروت الملوك والأباطرة ، بل انحنى أمام عظمته الملوكُ والاباطرة . . غاندي هذا مثال رائع على قوة الايمان ، وما تستطيع أن تفعله قوة الايمان !

لقد نجحت الثورة الهندية حتى الآن عن طريق مبدأ غاندي في اللاعنف ، وتخلّصت من الاستعمار . واستقلت ككل دولة مستقلة . وأخذت المكانة التي تستحقها بين الدول . وبدأت تنتعش اقتصادياً ، وتحاول جهدها لكي تنتعش وتتقدم اجتماعياً . وعلى ما نحسب ونرجو ونؤكد ، ان

الهند ستستمر في كفاحها على جميع الصُّعدان ، فيتحرر الشعب الهندي مما ركزه فيه الاستعمار من ركائز اجتماعية وتقاليد رجعية ، ويكون لهذا الشعب العظيم دور كبير في تحرير الشرق وتقدمه .

* * *

بعد ان استقلت اكبر دولتين شرقيتين ، الصين والهند ، اخـــذت تتفكك حلقات الاستعمار واحدة اثر واحدة.. من كوريا في اقصى الشرق الى البلاد العربية في ادناه ، بدأت الشعوب تستعيد انفاسهـــا وتنتزع حرياتها . واخذ العالم يتحول من عـــالم حكومات الى عالم شعوب . وارتفعت قيمة الانسان بعين نفسه ، ودالت دولة الملوك والامراء والمهارجة الذين كانوا يحكمون « بمشيئة الله » حسب زعمهم ، وبمشيئة الشيطان حسب اعتقاد الشعب ..

صحيح ان استقلالات بعض أمم الشرق ما تزال بحاجة الى مقومات ، وصحيح ان دول الاستعمار ما تزال تعمل لعرقلة هذه المقومات . وليس طبيعياً ان يكون الأمر غير ذلك قبل ان يمضي على هذا التحول التاريخي قدر كاف من الزمن . على ان الزمن وظروفه هما في جانب الشعو ، لا في جانب مستعمري الشعوب . هذه حقيقة تتجلى يوماً بعد يوم ، وأكثر فأكثر . ولن يستطيع احد ان ينكرها او ان يحدّ من فعاليتها . ودليلنا على هذا ، في الاحداث القريبة ، التي لم يمر عليها الزمن بعد.

* * *

لأول مرة منذ اختط الغرب سياسة استعمار الشرق ، اجتمعت الدول الآسيوية والافريقية في مؤتمر كي تقرر مصيرها ، دونمـــا استئذان من دول الغرب . ولأول مرة تجاوبت الدول والحكومات الآسيوية والافريقية مع اماني شعوبها في الخروج من التبعية الغربية. فكان مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٤ النقطة الاولى في تحوّل تاريخي. وكان هذا المؤتمر حافزاً للشعوب الآسيوية والافريقية كي تتـــابع كفاحهـــا . واخذت تتوالى مؤتمرات

حكومية وشعبية ، مستوحاة من مؤتمر باندونغ ومبادىء مؤتمر باندونغ . كانت هذه المؤتمرات تدخل الهلع في نفوس الدول الغربية وتحاول مقابلتها باحلاف من طراز حلف الاطلنطي وحلف بغداد وحلف جنوبي شرقي آسيا ، بقصد الحد من فعالية الشعوب ، او بالحدّ من فعالية حكوماتها على الاقل . على ان هذه المحاولات فشلت حتّى الآن ، ولا بدّ انها ستفشل دائماً . هذا الشيء الجديد ، اذا دلّ على شيء فانه يدلّ على ان الشعوب الشرقية استيقظت من سباتها واخذت امرها بيدها ، وجعلت تتولى زمامها بنفسها . كما أنه يدلّ على ان استعمار الغرب للشرق دقّت ساعة نهايته .

وجعلت الاحداث تتعاقب الواحد بعد الآخر .

شاءت بريطانيا ان تضرب ضربتها كي تعيد الاستعمار الى مصر . فانضمت اليها فرنسا . ومشت معها اسرائيل منفذة الخطة الاستعمارية . وبارك العدوان الحلفُ الاطلنطي . وباركه ايضاً حلف بغداد . فكانت الحملة الوحشية على مصر . وماذا كانت النتيجة ؟ قاوم المصريون مقاومة الابطال . والتف العرب كلهم حول مصر . وناصرتها جميع الشعوب المحبة للسلام . وارتدّت الحملة الماكرة على اعقابها ، وما كسب المعتدون غير العار . وانتصرت مصر .

* * *

خلعت اندونيسيا ذات الثمانين مليون انسان ، نير الاستعمار الهولندي عنها . وغضب الاستعمار لغضب احدى ركائزه . وهرع بكل قواه العسكرية والاقتصادية لمساعدة هولندا . ووقفت الشعوب كلها الى جانب اندونيسيا المجاهدة . فانتصر الحق ، وانتصرت اندونيسيا ، وخذلت هولندا ، وخذل معها مساعدوها .

* * *

واشتعلت ثورة عارمة في الفيتنام ضدّ الاستعمار الفرنسي . وهرع

« الاستعمار الدولي » كله ، بقضه وقضيضه لمساعدة فرنسا . واستبسل الشعب الفيتنامي على أروع ما يكون الاستبسال . وناصرته الشعوب المحبة للسلام كلها . ومن هذه المعركة بين دولة استعمارية كبيرة وبين الشعب الفيتنامي الصغير ، خرجت فرنسا منهوكة عسكرياً واقتصادياً ودولياً ، وانتصر الشعب الفيتنامي ، ولا عبرة ببقاء فرنسا موقتاً في جزء من الفيتنام ، اذ لا بدّ من توحيدها وانتزاعها من فرنسا .

* * *

والتهبت الجزائر كلها بثورة تحررية ما يزال لظاها مستعراً . ومنذ أربع سنوات يقاوم الشعب الجزائري ببطولة اسطورية . وتتضعضع الدولة الفرنسية . وتذهب فيها حكومات وتأتي حكومات ، كل منها تفظّع ما شاء لها التفظيع . ويلقي الحلف الاطلسي ثقله في هذه الحرب الاستعمارية . وتخاتل قيدومة هذا الحلف ، اي الولايات المتحدة ، ما شاءت لها المخاتلة . ولكن مهما حاولت فرنسا تطويع الشعب الجزائري ، ومهما حاول شركاؤها كبح جماح الثورة الجزائرية فلا بد من ان تنتصر الجزائر ، وتخذل فرنسا ، ويخذل معها شركاؤها .

* * *

وكان الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ يوم العراق . هذا القطر العربي الذي كان معقل الاستعمار في الشرق العربي . وكان المقرّ الأسود لحلف اسود هو حلف بغداد . فما أطلّ فجر هذا اليوم حتى انتفض شعب العراق باروع ثورة . وانقضّ على الملكيّة وأسقطها . وأقام جمهوريته الشعبية . وحطّم الحلف الاسود تحطيماً . وتحرّر الشعب العراقي من كوابيسه الاستعمارية والرجعية .

* * *

وكما فعلت الشعوب الّتي اتينا على ذكرها ، هكذا فعلت شعوب

تونس ومراكش والسودان وغانا والملايو . وهكذا تفعل الآن شعوب الاقطار الجنوبية من الجزيرة العربية . حتى الشعب القاطن الجزيرة « القشة » العائمة على سطح البحر والتي اسمها مالطة .

* * *

ان كل احلاف الاستعمار العسكرية التي أنشئت والتي يجري انشاؤها، وكل المؤامرات التي دبرت على الشرق ، والتي يجري تدبيرها في كواليس الاستعمار ، وكل المؤتمرات التي تعقدها حكومات الغرب لتذليل صعوباتها ، وكل المحاولات التي تبذلها حكومات الغرب لوصل ما انقطع بينها وبين الشعوب الشرقية ؛ كل هذا لن يغير ، ولن يبدل في النتيجة المحتومة ، وهي ان يقظة الشرق الآخذة بالامتداد بسرعة هائلة ، سترفع يد الغرب عن الشرق . فقد يتجاهل الغرب هذا الواقع في الشرق . قد يتجاهله الى سنة .. الى سنتين .. الى ثلاث سنوات .. الى عشر سنوات او اكثر . غير ان تجاهله لهذا الواقع ، سواء أكان تجاهله لغاية ، أم تجاهلاً عن غباء ، لن يغير هذا الواقع بشيء .. فالشعوب اليوم لم تعد تهضم فكرة الاستعمار ، ولم تعد تهضم فكرة الحروب ، لا الساخنة ولا الباردة ، ولم تعد تهضم فكرة تنويع البشر الى أسياد وعبيد ، ولم تعد تطأطىء رأسها للقوة ، ما دامت أصبحت عندها قوة الايمان ، وما دامت تستمد القوة لنصرة قوة ايمانها ، من الشعوب المحبة للحرية والسلام في العالم اجمع . ان عالم اليوم هو عالم الانسان سواء أكان أبيض ام أسود أم اصفر ام احمر . وحضارة الغد حضارة انسان ، لا حضارة مدفع وقوة عسكرية وحربية . والشرق انسان كما ان الغرب انسان . ان شروق الشمس وغروبها لا يشكلان مقياساً لقيمة البشر ، ولا مقياساً للطاقة العقلية في ان ابن الشرق يختلف عن مقياسها في ابن الغرب !

* * *

وبعد هذا يبرز امامنا السؤال التالي : ماذا سيكون اثر يقظة الشرق في العالم ؟

لن يكون جوابنا على هذا السؤال من قبيل النبوة ، اذ نحن لا ندعي النبوّة ، ولا نؤمن بالنبوّات . على ان من يتعمق في الامور ، ويبحثها بحثاً موضوعياً وعلمياً ، يستطيع استنتاج ما سيحصل ، مما هو حاصل .

* * *

ان الشرق يحتاج الى مدة طويلة كي يسترجع ما قد خسره طوال القرون والاجيال من مقومات التقدم المادي والمعنوي . ويحتاج الى عمل طويل وشاق ، كي يستطيع اللحاق بالركب الحضاري العالمي . فهو متأخر عن الغرب في جميع الميادين ، سواء أكانت علمية أم تكنيكية ، أم صناعية أم انتاجية أم ثقافية . ويقظة الشرق لا تعني فقط تحرره من استعمار الغرب له . فالتحرر من الاستعمار لا يعني شيئاً اذا ما وقفت شعوب الشرق عند هذا الحدّ . واذا ما تكاسلت او تباطأت في العمل الانشائي الايجابي ، كي تصل الى مستوى شعوب الغرب المتقدمة . ان التحرر من الاستعمار هو مجرّد حافز للعمل . واليقظة التحررية والاستقلالية هي نقطة انطلاق وبداية العمل . فالذي يعوز الشرق هو التحرر من جهله ، والتحرر من تواكله ، والتحرر من خرافاته ، والتحرر من رجعيته ، والتحرر من قيود روحانيته . ان تحرر الشرق من الاستعمار هو اذن وسيلة لا غاية . انه المنطلق الذي ينطلق منه الى التحرر الكامل ، أي التحرر من الجهل والفقر والمرض ، ومن كل الآفات الاجتماعية التي كانت سبب تأخره ، وسبب ضعفه ، وسبب طمع الغرب به .

ان في الشرق طاقات هائلة ولكنها كامنة ولم تتفجر . وان في اراضيه ثروات لا ينضب لها معين ولكنها مخفيّة . وان في أغوار أرض الشرق وبحاره خيرات ليس لها حصر ، ولكنها لا تتدفق على اهل

الشرق لأنه ليس ثمة من يعمل كي تتدفق إلا بمقدارٍ زهيد . زهيد لا تفيد منه غير القلّة من خاصة الشرق واسيادهم من ابناء الغرب المستثمرين .
وفي رؤوس اهل الشرق عقول كما في رؤوس اهل الغرب ، ولكنها مجمّدة ومخدّرة ومستسلمة لاستعمار العقول الغربية لها « وهذا ما خلق شكلا من اشكال الاستعمار ، هو شرّه الأكبر ؛ اسمه الاستعمار الفكري والعقلي . ترى هل تمتد يقظة الشرق ، فتشمل كل هذه النواحي الخلاّقة ؟

في يقيننا انها ستمتد وتفعل في امتدادها ما فعلته يقظتها التحررية والاستقلالية . اننا نراها تمتد وتمتد باستمرار عند الشعوب الصينية والهندية والعربية وسائر الشعوب التي تحررت والآخذة في التحرر . واليقظة الجديدة كفيلة بأن تخلق فيه وعياً جديداً يتصف بالشمول ، وليس فقط في ناحيته السياسية . وامتداد هذا الوعي يشمل الوعي الاجتماعي ، والوعي العلمي ، والوعي الاقتصادي . والوعي الذهني . ان الوعي عند شعوب الشرق في ثورة شاملة وكليّة . وشعوب الشرق متى تكامل وعيها الشامل لا يعود يعوقها شيء عن النهوض ، وعن العمل ، وعن التقدم ، وعن تأمين السلامة في ربوعها ، والمشاركة في تأمين السلام في العالم كله . من هنا نجزم بان يقظة الشرق الآخذة بالامتداد أكثر فأكثر ، لا تفيد شعوب الشرق فقط ، بل تفيد كل شعوب العالم ، وتقدم النوع الانساني نحو الكمال .

* * *

ويبرز أمامنا في الحال سؤال ثان وهو : هل تخيف يقظة الشرق الغرب ؟

على هذا السؤال نجيب بنعم ، ولا .

قد تخيف يقظةُ الشرق الغربَ المستعمر ، الغرب الذي تمتلكه العقلية التفوقية والاستئثارية ، الغرب الذي يتأكله الجشع ، الغرب الذي يعتقد ان شعوبه من طينة غير طينة الشعوب الشرقية ، الغرب الذي يقلقه

وهمٌ سخيف بأن يقظة الشرق تحمل معها ما تسميّه الاوساط الاستعمارية الغربية « الخطر الاصفر » أو « الخطر الاسود » أو الخطر « الاسيوي الافريقي » أو « الخطر الشيوعي » ، يا للفظاعة ! هـــذا هو الغرب الذي يخشى يقظة الشرق . ويحاول اخمادها بشتّى الطرق الدعائية والتبشيرية والثقافية احياناً ؛ وبالطرق الوحشية ، اذا ما عجزت الطرق الاولى . هذا الغرب هو الذي لا يسمّي الخطر خطراً الا بقدر ما يصيب جشعه منه ، والذي لا يرى سبيلا لتجنبه ؛ إلا بالحروب والقنابل المدمّرة . هذا هو الغرب الذي يهلع ليقظة الشرق ويخشاها خشيته من الشيطان .

ولكن هناك غرباً آخر لا يخشى يقظة الشرق ؛ ولا يحاول اخمادها ، بل على العكس يساندها ويناصرها ويعطف عليها عطفه على نفسه . هذا الغرب هـــو الغرب الانساني ، الغرب المسالم ، الغرب المحب لنفسه ولغيره ، الغرب العامل من أجل خيره وخير الانسانية جمعاء ، الغرب الذي يحترم الانسان لانه انسان ، لا لانه غربي فقط ، ولا يعطي أيما قيمة لاختلاف اللون او اختلاف الدين او اختلاف الحسب والنسب ، الغرب الذي يبغي ان تتعاون الشعوب وتتفاعل تفاعلاً خلاّقاً لا تفاعلاً مصحوباً بالكره . هـــذا الغرب لا يخشى يقظة الشرق ولا يخـــاف على نفسه منها .

***

والذي يدعو الى التفاؤل ، ان اليقظة التحررية والاستقلالية ، انطلقت منها يقظة انشائية ايجابية . هذه اليقظة لا بدّ وان تعاني من الصعوبات أكثر مما لاقته اليقظة التحررية . ولكن مهما جابهها من صعوبات ، ومهما كانت طرق العمل فيها شاقة ، ومهما حاول الاستعمار ان يقضي عليها ، فلا بدّ ان تصل الى هدفها ما دامت الشعوب المحبة للحرية والسلم ... الحرية الحقيقية لكل انسان ، والسلم المركّز على العدالة الاجتماعية في كل الشعوب ، لا السلم المركّز على الاحلاف والكتل الدولية ؛ والقوة

العسكرية والحربية ، والتنويع بين البشر . إن مـــا يفرض على شعوب الشرق هو ان تتألب حول حركة السلم العالمية وتغلغلها في كل شعب من أقصى الشرق الى ادناه . ان الاستعمار الذي رزح الشرق تحت نـــيره اجيالاً وقروناً ، ليس ما يقوى عليه غير هذه الحركة العالمية المباركة . وتقدم الشرق وعمرانه في مختلف المجالات لن يفسح له المجال واسعاً الا اذا عمّ السلم أقطار الشرق والغرب كلها . ومن بشائر الخير ان شعوب الشرق في آسيا وافريقيا أفاقت على هذه الحقيقة ، وهي آخذة بها في بناء مستقبلها . وهو المستقبل الذي يلتقي فيه الشرق والغرب على الرغم من فلسفة كبلنغ الاستعمارية . وهذا المستقبل لن يكون فيه شرق وغرب ، إلا من حيث وضعها الجغرافي ، ومن حيث شروق الشمس وغروبها . وهو أمرٌ لم يعد ذا قيمة في حساب الحضارة الانسانية .

٢٦ . المدنية الفضلى

●

يتميز الانسان عن سائر الفصائل الحية بعقله وادراكه . فهو الكائن الاكمل والاصلح لتكوين اجتماعية فاضلة ، لأنه الكائن الاجتماعي الوحيد من بين الكائنات الحية . وهو الاكمل والاصلح ايضاً لتكييف عناصر الطبيعة ووضعها تحت تصرفه وفي خدمته . ان في الطبيعة ظروفاً وفيها نواميس . والانسان هو وحده الذي يقدر على تغيير هذه الظروف والتحكم بهذه النواميس . والطبيعة خيِّرة ، والانسان هو وحده الذي يستطيع أن يستخرج من الطبيعة الخيّرة الخيرات .

على أن الطبيعة لا تعطي خيراتها من نفسها . وان اعطتها فلا تعطيها كلها . فمن هذه الخيرات ما هو سهل المنال ، ولكن منها ايضاً ما هو دفين في طيات الارض ، او في قعر البحور ، أو في ذرّات الفضاء . هنا يأتي دور العمل الخلاّق ، ميزة الانسان على الحيوان .

* * *

ان الحيوان لا يخلو من صفة الادراك . ولكن هذه الصفة فيه هي غريزة وشهوة وعادة ، بينما هي في الانسان خلق وابتكار ، تنبثق عنها مزايا خاصة بالنوع الانساني ، تعرف بالقيم الانسانية والابداعية والروحية . فالانسان كائن ذو شخصية اجتماعية وشخصية عقلانية . والانسان لا يقتصر

مروره في هذه الدنيا على الأكل والشرب والنوم والتزاوج والتناسل ، والسير على نظام مقرر ومحتوم ، بل هو يحمل رسالة ترفعه فوق سائر الانواع ذات الحياة ، وتؤهله لخلق مجتمع انساني ذي قيم وفضائل ، وهذه القيم والفضائل حريّة بأن تخطو بالمجتمع الى الهدف الاكمل والمدنية الفضلى ، بقدر ما تتوافر لها ، من عمل الانسان بالذات ، سبل النمو والسمو . انعمل الإنسان وحده هو الذي يخلق ما يسمى « إنسانية » .

الإنسانية قيم وإدراك وخلق ، ومجتمع يقوم على القيم والإدراك والخلق . بينما الحيوانية غرائز وشهوات وعادة ، ومجموعات حيّة تعيش على الغرائز والشهوات والعادة . وإذا كانت إنسانية الإنسان تتطلب كما تتطلب حيوانيته ، بديهيات الحياة ، كالأكل والشرب والنوم والراحة وما إلى ذلك ، من أجل بقائها ، فهي تتطلب ما هو اكثر من هذه البديهيات والضرورات ، مما يجعلها تسمو على الحيوانية ، ومما يجعلها ايضاً تتطلب الضرورات لكي تجعل منها وسيلة لغاية اوسع وارفع واسمى .

* * *

ان الحيوان يدرك انه يجب ان يعيش وهو يفتش عما يكفل له العيش. والحيوان تدفعه الشهوة إلى الاستمتاع بلذاذات الجنس دون ان يكون الدافع له الرغبة في اكثار النوع وتحسين الجنس . فالعصفور مثلاً ، بدافع غريزة المحافظة على البقاء ، يبني عشاً يأوي اليه ويضع فيه صغاره كي يقيها خطر البرد والحر والهلاك . وبدافع هذه الغريزة نفسها يبني النحل قفيره المحكم الهندسة ليحافظ على نفسه وعلى أنساله . على انه لا في العصافير ، ولا في النحل قدرة إدراكية خلاّقة تجعلها تحيد عن النمط الذي ألفته في تدابيرها هذه . وبدافع الغريزة ايضاً يهجم الأسد على فريسته ويفترسها . فكل اسد عندما يلتقي بالفريسة سواء أكانت إنساناً أم حيواناً يبادر فوراً الى مهاجمتها وافتراسها دون ان يكون ثمت تبدل في استراتيجية الهجوم والافتراس بين اسد كبير واسد صغير إلا بمقدار

الفرق بين الاثنين في القوة العضلية . ان الغريزة سليقة حيوانية وراثية ملازمة للنوع او للفصيلة كلها ، وهي لا تختلف في الفرد من النوع الواحد عما هي عليه في الفرد الآخر .

ولكن هذا لا يعني ان الغريزة غير قابلة التحوّل او التطور . على ان تحولها او تطورها لا يحدث عن طريق الوعي والإدراك العقلي المتكاملين، وانما يحدث استجابة للحاجة . فالعصفور مثلاً يحتاج الى القش لكي يبني به عشّه ، فيبحث عن القش حتى يجده ، فإذا ما قُدّر ان تجدب الأرض من القش ، اندفع العصفور بدافع الحاجة وغريزة حب البقاء ، الى البحث عن مادة اخرى يبني بها عشه ، إذ ان غريزة حب البقاء تخلّق فيه غريزة ثانية تكون وسيلة لدوام الغريزة الأصلية وامتداداً لها . ولكن في هذه الاثناء ، وقبل ان تتحول الغريزة الاصلية ، يكون الهلاك نصيب عدد من افراد النوع ، لأن الفرد من النوع الحيواني ليس له قدرة الابتكار ، التي خصّ بها الإنسان وحده ، والتي هي صفة ملازمة للعقل البشري الخلاق . إن الانسان لو وجد في أرض قاحلة من لوازم العيش والدفء ، قمين بأن يخلق مما يجده في طريقه ما يدفع عنه الموت جوعاً او عرياً ، دون ان ينتظر زمناً ما ، يدله اليه . هذا إلا إذا اجدبت السماء والأرض جدباً تاماً ، وهو امر مغاير لناموس الطبيعة الخلاقة .

* * *

هذه الميزة الادراكية الخلاّقة في الإنسان،هي التي بوّأته المركز الأعلى بين الأنواع ، وخوّلته التسلط على الحيوان والنبات والجماد، ووضعتها في خدمته ومنفعته وتقدمه . هذه الميزة الادراكية الخلاّقة ، لازمت وجود الإنسان منذ وجوده ، وهي تتدرّج مع تدرّجه التاريخي، وتتقدم بتقدمه. ووجودها في الإنسان يشمل النوع الانساني كله . وكل تباين في مستوى هذه الميزة بين الناس ، مرجعه التباين الحاصل في الظروف والتربية

والبيئة والحاجة ، وليس في وسع احـــد ان يرجعه علمياً ، الى طبيعة الأشياء ، كأن يقال ان الإنسان في هذه البقعة من الأرض هو من نوع يختلف عن الإنسان في تلك البقعة . فعندما يكون هناك تمييز في القوى الادراكية بين جماعة البشر وجماعة غيرها ، فلا شك في ان الجماعة المميزة تكون قد اكتسبت مميزاتها من ممارسة قواها تلك على التفاعـــل لمواجهة مقتضيات الحياة ، واستنباط المؤهلات الكافية للافادة مما يمكن الافادة منه من خيرات الطبيعة ، ولا سيما الكامن منها ، التي يحتـــاج الكشف عنها واستثمارها الى مفاعيل القوى الادراكية .

* * *

سبق القول ان قدرة الخلق في الإنسان هي ميزة النوع الإنساني كله وليست ميزة أفراد من النوع : وان هذه الميزة قابلة للتطور والنمو بواسطة المراس والتربية والتوجيه . وكلما زاد مفعول هـــذه العوامل في الأفراد والجماعات ، كان النمو والتطور اوفر وأعمّ . وهذا ما يزيد في الكشف عن خيرات الطبيعة الغنية . واستثمار الافادة منها في تقـــدم النوع . ولنأخذ مثلاً على صحة هذه النظرية من الحجة الرجعية التي كان يتحجج بها المتنكرون للحقيقة العلمية — او متجاهلوها لغاية ما — عندما كانت الرجعية تتحكم بحياة الناس ومقدراتهم ومصائرهم ، وعندما كانت تتحكم أيضاً بعقولهم ونفوسهم . وهي مسألة شغلت افكار الناس أجيالاً وقروناً الى ان حلّها العلم اخيراً . هذه المسألة هي مسألة تزايد عـــدد سكان العالم المستمر تزايداً لا يتفق مع نسبة تزايد المواد الغذائية لحاجة الملايين المتكاثرة سنة بعد سنة . هي مسألة لم يكن يرى العالم الرجعي ، بعقليته الاقتصادية الرجعية ، حـــلاً لها إلا بتطبيق فلسفة مالتوس الاقتصادية الاستعمارية .

من هو « مالتوس » ؟ وما هي نظريته ؟ ولماذا نقول انها نظرية رجعية واستعمارية ، ولا تتفق مع الحقيقة العلمية ؟ ولماذا يستهوينا بحثها كلما

بحثنا موضوع الثورات ، وإن يكن في بحثها إعادة وترديـــد يزيدان في توضيحها ؟

* * *

كان مالتوس عالماً اقتصادياً بريطانياً ، من معتنقي مذهب آدم سميث في الاقتصاد الحر . وكانت بريطانيا في عهده آخذة في التوسع الاقتصادي والتجاري والاستعماري . فأخذ كتابه « محاولة النظر في التناسل » من هذا الواقع ، لأنه كان يحسب ان هذا الواقع شيء طبيعي . بل كان يحسب ان الوجود البشري وجود طبقي ، طبقات متقدمة ، وطبقات متأخرة او على الأصح ، شعوب متقدمة ، وشعوب متأخرة . فعـــلى الشعوب المتأخرة ان ترضى بواقعها ، مفسحة المجال للشعوب المتقدمة كي تسيّرها وتقرر مصائرها . ربما يكون مالتوس استلهم نظريته هذه من الفاسفة الميتافيزية التي كانت مسيطرة في ذلك العهد . وإذ هاله تكاثر عدد سكان الأرض وعدم تكاثر المواد الغذائية بنفس النسبة ، جاء بنظريته كحلّ لمشكلة البؤس في العالم ، وجعل يبشر بوجوب تحديد النسل في الشعوب المتأخرة عن طريق التوجيه السلمي والارشاد ، او بواسطة استعمال مواد مانعة للحبل .

ليس لنا ان نتهم مالتوس بسوء النية . ولكن لا بد من اتهامـــه بالجهل . فهو في حدبه على الاحتفاظ بمستوى المعيشة في حالته الراهنة (وكان همّه الأول الاحتفاظ بمستوى المعيشة في بلاده) وفي ظنه ان الواقع الذي كان يعيش فيه واقع ازلي ، لم يرَ حلاً لمشكلة تزايد عدد السكان ، وتوقيف موجـــة البؤس في العالم ، غـــير الحل الذي بنى من أجله نظريته ، جاهلاً ان قوى الاستثمار والاستعمار ، ستتخذ منها ذريعة لإيقاف تزايد سكان الأرض بغير الطرق التبشيرية والوعظية التي وضعها في كتابه ، اي بطرق وحشية ، كإضرام الحروب وإبادة البشر بالجملة في البلدان المتأخرة ، او بطرق لا تختلف عن هذه في وحشيتها .

ان مالتوس عندما وضع نظريته هذه ، كان يجهل (ولهذا اتهمناه بالجهل لا بسوء النية) الى اي مدى سيتوصل العلم والتكنيك . كان يجهل قدرة الانسان على اكتشاف المخبأ في الطبيعه ، وتطويعه لعناصر الطبيعة ، واستخدامه لها في العمل على تقدمه ورفاهيته — والجهل رجعيّة — والتمساك به رجعية اكثر شراً . فإذا كانت رجعية نظرية مالتوس سببها الجهل فقط ، فرجعية النظريات المستوحاة منها ، سببها التجاهل وسوء النية ، ورغبة فلاسفة هذه النظريات ومعتنقيها ، في تكريس استثمار الانسان للانسان ، وتكريس مبدأ استعمار الشعوب المتخلفة ، وتكريس مبدأ تقسيم البشر الى طبقات متفوقة طبيعياً ، وطبقات متأخرة طبيعياً ، يتحتّم عليها الرضوخ لرغبة الطبقات المتفوقة .

على ان التقدم العلمي الهائل (الذي لم يكن مالتوس يحسب له كبير حساب) جاء يدحض النظرية من اساسها . اذ اظهر ان تزايد عدد سكان العالم ، يقابله من جهة ثانية ، تزايد في الكشف عن خيرات الارض فالانسان الخلاّق ، والانسان بطبيعته خلاق ، بمقدوره أن يكتشف ويخترع وينتج ، كما بمقدوره ان ينتزع من الطبيعة كنوزها وخيراتها ، اذ ماذا يبقى من ميزة الانسان على الحيوان اذا اكتفى بتناول الخيرات التي تعطيه اياها الطبيعة من نفسها دونما جهد ؟ ان النظرية التي تقوم على عدم الاقرار بقدره النوع الانساني كله على الخلق ، وحصر هذه القدرة بفئة او فئات مخصوصة من الناس ، هي مخالفة صارخة لناموس الطبيعة وسنة التطور . اما توفر هذه القدرة في قسم من الناس افراداً او جماعات ، أكثر من توفرها في قسم آخر ، فمرجعها ظروف حياة هذا القسم وذاك . ومرجعها ايضاً تدخل الانسان نفسه ، في صقل هذه القدرة او عدم صقلها ، هذا التدخل الذي تبعثه الشهوة في الانسان وتجعله يتذرع بأساليب مختلفة ونظريات حكمية ، للحد من القدرة الخلاقة في غيره من الناس ، كي يبقى هو متفوقاً عليها . وما هذه

الشهوة الا بقية باقية من الغريزة الحيوانية فيه ؛ وتحدّ لناموس الطبيعة وافتئات عليه .

* * *

ان الادعاء بان الناس منهم الموهوبون ومنهم غير الموهوبين ، ادعاء باطل ليس فيه شيء من الحقيقة العلمية . فالنقص الادراكي في الانسان هو نتيجة النقص في الصقل والتربية . حتى النقص الادراكي الناتج عن خلل صحي ، مرجعه هو أيضاً الى نقص الصقل والتربية ، واهمال البيئة اهمالا يؤدي الى افساد السلالات البشرية وابنائها في حالة التأخر والجمود والضعف . مما لا شك فيه ان هناك شذوذاً عن هذه القاعـدة . ولكن القاعدة لا تبنى على الشذوذ .

* * *

على هذا الضوء يتضح ان النظرية المالتوسية الرجعية لم تعد صالحـة للاخذ بها في عصرنا العلمي . فتزايد عدد سكان العالم من شأنه ان يزيد في مجموع القوى الادراكية الخلاقة ، ومن شأنه بالتالي ، زيادة ما يمكن من استخراج خيرات الارض من مواد غذائية ومواد غير غذائية لازمة لاسعاد الانسان . فاذا اصطنعت عثرات وحواجز لعدم انطلاق هذه القوى الخلاقة في مجموعة ما من البشر ، يكون هذا الاصطناع عملا شريراً مدبراً يقصد منه مصطنعوه ان يبقى التوازن مفقوداً بين الانسان المستهلك وبين الانتاج المعد للاستهـلاك . وتسنح الفرصة اذ ذاك لاتبـاع مالتوس وتلاميذه والمتمسكين بنظريته لغاية ما ، (ليست انسانية على كل حال) ، للتدليل على صحة هذه النظرية . وهذا بالضبط ، ولهذه الغاية بالضبط ، يعمل اقطاب النظم الاقتصادية القائمـة على استثمار الانسان للانسان ، والقائمة أيضاً على استعمار واستعباد الشعوب .

* * *

لقد دلل العلم ، ودلات المباحث العاميـة ، ودلات الدول التي تبني

سياستها على اسس علمية ، ان العالم يتسع لاكثر من ملياري انسان ، وان في هذا العالم من الخيرات ما إذا كشف عنها كلها : تكفل لسكانها ولو كثروا ، حياة سعيدة . ولكن عندما تُهمل بقاع من الارض واسعة بحجة ان سكانها غير موهوبين ، ومتأخرون، ولا يصلحون الا لأن يكونوا مجرد آلة في يد من يطمع في استخدامهم واستثمارهم واستعبادهم من « اصحاب المواهب » ؛ وعندما يدخل في خلد هؤلاء الموهوبين ، انهم وحدهم القادرون على استثمار ما يمكن استثماره ، لمنفعتهم الخاصة او لمنفعة طبقتهم فقط ، عندئذ يتراءى لجهلاء الناس ، ان الارض تضيق حقاً بسكانها ، وتحجب عنهم هذه الرؤيا الحقيقة الاساسية .

* * *

ان الشيء المؤسف هو ان الانسان بالذات ، هو الذي يعمل على الحد من مفعول القدرة الخلاقة في النوع الانساني . وهو انما يفعل ذلك بدافع من بقايا السليقة الغريزية فيه ، التي هي بقية من مواريث طبيعته الحيوانية ، وصفاتها الشهوانية . على ان هذه البقايا الغريزية في الانسان في صراع دائم مع العقل البشري الخلاق . فهي اشبه بفلول جيش مهزوم ، يحارب منكفئاً ، دون ان يرمي سلاحه . ولكن لا بد وان يرمي سلاحه في آخر الامر .

لنتكلم بلغة الامثال .

* * *

بالامس توصل العقل البشري الخلاق الى تحطيم الذرة ، مما يبشر بفتح آفاق جديدة لتطور المعرفه وقدرة الخلق في الانسان . فثارت في نفس الانسان البقية الغريزية ، وأثارت فيه بالتالي شهوته الى حصر هذا الفتح العلمي الجبار بقسم محدود ومعين من أبناء جنسه ، بغية قصر فائدته عليه ، واستثماره لمصلحة الفرد لا لمصلحة النوع كله . وبدلاً من استخدام هذا الفتح العلمي الجبار ، كوسيلة تعميرية لفتح آفاق جديدة اخرى ،

يفيد منها النوع الانساني كله ، وتسهل له طريق الحياة ، وتعينه على الكشف عن الكنوز المخبأة في الارض وخيرات الارض ، وتساعده في معيشته وتحسين صحته وتوسيع مداركه ، وترفع من قيمة الانسان ، تحاول البقايا الغريزيه فيه ان تشبع نهمها على حساب المجهود العقلي الجبار ، ولو كانت محاولتها سبباً لتاخير تقدم النوع الانساني .

ان العلماء لم يبذلوا الجهود الجبارة والحثيثة الا لغاية انسانية . لم يبذلوها ابداً لغاية اخرى غير هذه الغاية . لم يبذلوها ابداً كي يضعوا اكتشافهم العجيب في خدمة الشرّ . لم يبذلوها أبداً لكي يصنع من الذرة قنبلة تدمير وقنبلة لابادة البشر بالآلاف ومئات الآلاف والملايين ، وانما بذلوها كي يتهيأ للإنسان حياة سعيدة تليق بأعلى كائن بين الكائنات الحية . بذلوها لكي يتمكن الانسان من غزو الارض واستخراج خيراتها، ولكي يتمكن من غزو المجهول في الطبيعة واستخراج ما يفيده منها في حياته على الارض . وبذلوها لكي يتمكن الانسان من غزو الفضاء واستكمال معلوماته عن هذا الكون . وبذلوها كي يكون هذا البذل عوناً للإنسان في حياته . لا عاملاً على تهديم حياته .

* * *

لقد طالما ثار العلماء عندما وجدوا ان جهودهم الانسانية تبعث بها القوة الحيوانية الغاشمة . فقد سمعنا العالِم العالمي الكبير « آنشتاين » يصرح بندمه على الاسهام في اكتشاف الطاقة الذرية إذ وجد أن هذا الاكتشاف يُستثمر للشر عوضاً عن الخير . كان العلماء يؤملون أن يستعمل اشعاع الطاقة الذرية لبلوغ ما لم يبلغه اشعاع « اكس » والراديوم مثلا . بل كانوا يؤملون ان تستعمل الطاقة الذرية في المشاريع الصناعية والعلمية والطبية . كانوا يأملون ان تنفتح امام الانسانية آفاق جديدة من النور ، وتبعث الرجاء على التوصل الى مكافحه آفات الانسانية ؛ فيقضى على الفقر والعوز والامراض المستعصية ، والاوبئة التي تفتك بالبشر . كان

العلماء يبذلون الجهود ويموتون أحياناً أثناء جهودهم ، بدافع من انسانية العلم . فاذا بالقوى الشريرة تقبض على حصيلة العلم الخيّرة ، وتضرب العلماء في صميم انسانيتهم ، وتنتزع منهم ، بالقوة ، أو بالنفاق ، أو بالمداورات الريائية ، مكتشفاتهم ، كي تخضعها لعنجهيتها الشهوانية ، وتدمّر بواسطتها معالم الانسانية التي لا تلائم غريزتها الحيوانية .

غير انه ليس طبيعياً أن تبقى الغريزة الحيوانية هي الرابحة في الجولة الأخيرة ، من هذا الصراع القائم بينها وبين العقل الخلاّق . وقد بدأت تباشير انتصار العقل الخلاق على الغريزة الحيوانية ، وبدأ المجتمع البشري ينظر إلى هذا الانتصار بأمل وغبطة . وبدأ يتحقق حلم العلم والعلماء شيئاً فشيئاً ولو تحقيقاً جزئياً وفي مجتمعات معينة ، لا بد وان تصبح شاملة . على أن التاريخ سيكتب أبشع صفحاته لهذه الفترة ، التي سادت فيها غريزة الانسان الحيوانية ، أو بقايا هذه الغريزة فيه ، على ميزته الادراكية الخلاقة ، هذه الفترة التي اقترف فيها الانسان من الجرائم ما لم يسبق له مثيل في تاريخ النوع الانساني .

* * *

عندما كانت الحرب العالمية الثانية قائمة ، ادعى الانسانيون الدجالون ، ومبشرو السلام المنافقون ، وحفظة القيم الانسانية الكاذبون ، انهم ما رموا قنبلتهم الذرية على « هيروشيما وناغازاكي » إلا رغبة منهم في تقصير أمد الحرب ، والاقتصاد بأرواح المتحاربين ، وإقامة سلم دائم في العالم ، كما لو كان السلم الدائم ، لا يقوم إلا بتدمير المدن الآهلة ، وابادة سكانها ، كل سكانها ، رجالاً ونساء وأطفالاً ، دونما تمييز أو تفريق بين الخاطئين منهم والابرياء . وكأن من مقومات هذا السلم ، ان يجاز لقويّ ما ، ان ينتزع من العلم سراً من أسراره ، ويضعه تحت تصرفه الخاص ، ويستعمله لغايته الشريرة ، ضارباً عرض الحائط بالسنّة العلمية الانسانية ، التي تمنع سرّية العلم ، بل تحسب هذه السرية كفراً

بالعلم نفسه . كل ذلك انما يعمله الإنسان بدافع الغريزة الشهوانية الحيوانية الكامنة فيه ، لابادة معالم الحياة بالجملة ، وافقار الأرض ، المفتوك بها ، من السكان والحيوانات والنباتات ، واستمرار جدبها ، واستئصال السلالة البشرية منها ، أو على الأقل ، تشويهها وقتل قدرة الخلق فيها . بهذه الوسائل التدميرية والافقارية ، يدعي هولاء الكذَبة ، انهم يبغون إقامة سلم دائم ، وإقامة حضارة إنسانية ، تتوطد فيها الحريات ، وترتفع فيها القيم . هؤلاء الكذبة يجب أن تنظف منهم المدنية لكي تكون مدنية فضلى .

* * *

إن المدنية الفضلى هي التي لا يكون فيها آفات اجتماعية ، أو هي التي لا تسمح بأن يكون فيها آفات اجتماعية . إنها المدنية التي تحارب هذه الآفات وتقضي عليها .

ما هي هذه الآفات ؟.. إنها الفقر والجهل والمرض ، وما ينتج عن الفقر والجهل والمرض . وإذا أردت التخصيص قلت ان الفقر هو الآفة الاصلية ، التي تنبثق عنها سائر الآفات . فالفقر هو الآفة الكبرى ، والعائق الأهم لقيام مدنية فضلى . وهو ما تجب معالجته قبل كل شيء آخر .

ومعالجة الفقر مرهونة بتوسيع مدى الخلق في البشر . فلو توفرت القدرة الخلاقة في المائة وخمسين مليوناً من الناس في افريقيا ، وفي المليار من الناس في آسيا ، وفي مئات الملايين في سائر البقاع المتأخرة ، ولولا المساعي الشريرة التي تحاولها الفئات الطامعة من الناس ولولا النظريات الخاطئة والخبيثة ، التي تتذرع بها هذه الفئات لتبرير مساعيها في الحدّ من القدرة الخلاّقة في المجموعة البشرية ، لولا هذا ، لما بخلت الأرض على ساكنيها بما يكفيهم شر الفقر ، وبالتالي شر النتائج الحاصلة من الفقر ، كالجهل والمرض ، وما يتأتى عنهما من الفساد الخلقي والانهيار

في القيم الانسانية . ولولا هذا أيضاً ، لما أتيح للفئات الطامعة ، أن تنعي هذه القيم في الفئات العامة التي تطمع الفئات القليلة الطامعة باستثمارها واستعبادها ، ثم تتطوع بين الفينة والفينة ، لمساعدتها وتخديرها ، بما تسميه احساناً أو حماية ، أو صفات إنسانية أخرى تبتكرها مخيلتها الشريرة .

* * * *

من العبث أن يطمح العالم إلى مدنية فضلى ، إذا لم يتحرّر النوع الانساني كله من الفقر ومشاركاته . ان الفقر والخوف من الفقر ، هما العقدة التي على الانسان أن يحلها . إن الرغيف هو المادة الأولية التي لا يستغنى عنها في صنع مدنية فضلى . فإذا كان الانسان لا يحيا بالخبز وحده ، فهو لا يستطيع أن يحيا بدون خبز ، ولا يستطيع أن يصنع قيماً ولا يبدع عملاً إذا تملكه الخوف من أن يجوع . وما الجوع والحرمان والجهل والمرض إلا مشاركات الفقر .. والانسان المبتلى بهذه الآفات لا يمكنه أبداً أن يتحرر ، لا سياسياً ولا اجتماعياً ولا أخلاقياً ، وبالتالي لا يمكنه أبداً أن يصنع قيماً انسانية . إن البحث في الحرية والحضارة والقيم وما إلى ذلك ، في مجتمع نصفه عبد للرغيف ، ولمن يمسك عليه الرغيف ، هو من قبيل البحث عن العنقاء . فالحرية لها مقومات لا يستغنى عنها ، أولها ، أن يؤمن المجتمع لكل فرد من أفراده حياة مادية متوفرة ، عن طريق عمله وجدّه ، بحيث لا يأتيه غذاؤه عن طريق الاحسان ، أو بوسيلة أخرى تحدّ من انطلاق قواه الإدراكية الخلاقة . إن الانسانية ليست آلية ولا حيوانية ، إنما هي صفة لها ميزة الابداع . ومتى قلنا الابداع ، فاننا لا نقصره على الاعمال الخارقة ، كاكتشاف الكهرباء مثلاً ، أو تفكيك الذرة ، أو اختراع المحركات الكبرى ، أو التفوق في الفنون والعلوم . إن الابداع يعني أكثر من ذلك بكثير . فالعامل البسيط في المصنع ، والفلاح وراء المحراث ،

وماسح الأحذية على الرصيف ، والخادمة في بيت ، والمربية التي تسهر على تربية طفل ، والممرضة في مستشفى ، والضارب بالمعوّل .. هؤلاء كلهم إذا ما أحسنوا أعمالهم ، وانتزعوا إعجاب الغير بعملهم مهما كان عملهم وضيعاً ، هم مبدعون . إن الابداع لا يقدّر بضخامة العمل ، ولا بأهميته ، ولا بشموله ، بل يقدر بما للعمل من حيث هو عمل ، من حرمة في نظر المجتمع . هي الحرمة التي تلاحق العمل الصغير ملاحقتها للعمل الكبير ، متى كانت الجودة هي هدف العامل . إن المدنية الفضلى ليس فيها عمل وضيع وعمل رفيع .

* * *

وما دام الفقر هو الآفة الاجتماعية الاساسية . يجب أن تكون معالجتها معالجة أساسية . ومعالجة الفقر الاساسية هي العمل لا غيره . حتى المسيح نفسه لم يرَ في غير العمل علاجاً للفقر « بعرق جبينك تأكل خبزك » .

إن أكثر أنواع المعالجة عقماً وضرراً للفقر هو الاحسان . فالاحسان كالمورفين في الطب ، يخدّر ولا يشفي . الاحسان يقتل النفس ، إذ ينفخ في المحسن روح الكبرياء ، ويثير في المحسن اليه ، لواعج الألم والضعة والمسكنة ، والميل إلى التكاسل والجمود . لا ، ليس الاحسان انسانية كما يبشّر بالاحسان الانسانيون الكذبة ، إنما الانسانية عمل وعدل وقيم قائمة على العمل والعدل . إن المجتمع الذي يكثر فيه عدد جمعيات البر والاحسان ، هو مجتمع فقير إلى العدالة الاجتماعية ، العلاج الوحيد لمرض الفقر والحاجة ، ومشاركات الفقر والحاجة . ان الأموال التي يتحمّس في جمعها من يدّعون الغيرة على الانسانية ، وعلى الفقير والمريض والمحروم ، هي غالباً ، إن لم يكن دائماً ، منتزعة من كدح الفقراء ، الذين يسلبهم جشع المحتكرين والمستثمرين ما لهم ، بطرق تعطيها الانظمة صفة الشرعية ، إذ تسميها أحياناً تجارة حرة ، تبيح للتاجر حرية التحكم بالسلع التي يتاجر بها ،

فاما ان تمسكها عن المحتاجين اليها ، أو تحتكرها وتخزنها ، ولا يبيعها إلا إذا أخذ مقابلاً عنها اضعاف ثمنها . وتسميها أحياناً أخرى ، مهنة حرة ، تبيح لصاحبها أن يقدم خدماته أو يمنعها ، بقدر ما تحلل لـه وجدانه استغلالها . هذه التجارة الحرة أو المهن الحرة ، يصح أكثر أن تسمّى سرقة حرة .. ان هذا المفهوم المشوّه للحرية ، الذي يعتبر الحرية مطلقاً ، والذي لا يقيم وزناً لمقومات الحرية الصحيحة ، هـذا المفهوم الغريب ، هو شر آفات المدنية .

* * *

مما يدعو إلى العجب ، بل إلى الاستنكار ، أن تكون المدنية التي تبشر بها النظم الرأسمالية ، تبيح للانسان أن يستثمر أخاه الانسان ، وتبيح له تجويعه وافقاره ، ثم ترتجل نفسها مدنية انسانية ، فتعظه بالاحسان على من كان هو السبب في تجويعه وافقاره وامراضه وموته . لولا الفقر لما كان الغنى . ولو لم تتغاضَ الانظمة والقوانين ، عن وجود فقراء ومعدَمين ، وتعساء ومظلومين ، وجهلاء اذلاء بائسين ، لما سنحت الفرصة لوجود أثرياء مستثمرين ومحتكرين طمّاعين . وما أصدق الحكمة التي فاه بها الفيلسوف والحكيم العربي ، عليّ بن أبي طالب عندما قال : « ما رأيت نعمة موفورة إلا إلى جانبها حقّ مضيع » .

* * *

ويتفلسف فلاسفة هذه الانظمة ، إذ يدّعون ، ان الفروق الاجتماعية هي مشيئة الله ، أو هي تعود إلى الفروق الحاصلة بين البشر في المواهب وحدّة الذكاء والاجتهاد في العمل . ويقولون أن الحياة سباق ، يفوز فيه الأقدر والاكفأ . إن قولهم هذا لا يخرج عن دائرة النفاق أو الدجل ، فهم يتجاهلون أن السبق يجب أن ينطلق من نقطة واحدة ، وان التزاحم على الفوز ، يقضي بأن تتساوى وتتعادل الفرص بين المتزاحمين والمتسابقين . أما أن تتحيز الانظمة إلى فريق دون آخر ، أو

تكفل للواحد ما لا تكفله للثاني ، وان تتذرع بحجج مبتكرة وواهية ، كأن تقول مثلاً ، ان الناس خلقوا غير متساوين ويجب أن يبقوا كذلك نزولاً على المشيئة العليا التي خلقت البشر . هذه المشيئة التي يتكلمون باسمها ، وهم يسيئون اليها ، تارة باسم الحرية كما يفهمونها ، وتارة باسم ما تسميه فاسفتهم حظاً .. أما هذا التحيز ، فمرده شهوة في النفس ، هي علة النفس ، لا يسمو المجتمع الانساني إلا بشفائها ، وهي لا تشفى إلا عن طريق نظام اجتماعي ، يعدل بين الناس ، نظام ، مستوحى من ناموس حق الانسان الطبيعي في الحياة والتقدم والارتقاء .

* * *

ويقول هؤلاء، أن لا مدنية بدون حرية شخصية . ويشترعون أنظمتهم على ضمانة هذه الحرية . حتى جرائمهم الانسانية يرتكبونها باسم هذه الحرية ، فما هي الحرية ؟

إن الحرية ليست مطلقاً ، بل مفهوم له صفة النسبة . حريتك لها حدود ، تنتهي حيثما تبتدئ حرية غيرك . أنت لست حراً في أن تجعل من حقك في الحرية سبباً لحرمان غيرك من حقه فيها . الحرية إذا نظرت اليها كمطلق ، تبيح لك الاعتداء على حرية غيرك . الحرية المطلقة تبيح لك الامتناع عن استعمال لقاح الجدري أو لقاح الطاعون ، أو غيرهما من الأمراض الوبائية . ولكن اصابتك بالجدري أو الطاعون ، قد تنتقل منك إلى غيرك ، وتكون أنت السبب في انتشار الوباء في محيطك . أفيجوز أن يكون حقك في الحرية ، أو حقك في اختيار الموت لنفسك ، سالباً لحق غيرك في الحياة . إذن هناك قانون ، يسمى قانون الصحة العامة ، مفروض فيه أن يضع حداً لحريتك .

* * *

الحرية المطلقة تبيح لك ان تخرج عارياً إلى الساحات العامة ، وان

تكشف عن عورتك أمام الناس . ولكن عملك الشائن هذا يثير اشمئزاز الجيران والمارّة ، فيقفلون أبوابهم ونوافذهم ، لكي لا يشاهدوا منظرك القذر ، ويحرمون أنفسهم من ارتياد الساحة أو الشارع ، هرباً منك . هذه مشكلة لا يحلّها قانون الحرية المطلقة ، بل يحلّها قانون الاخلاق العامة : المفروض فيه أن يضع حداً لحريتك .

* * *

الحرية المطلقة تخولك ان كنت ثرياً ، أن تشتري أو تستأجر فندقاً أو بلداً بكامله ، وتخولك ان تشغله أو لا تشغله : بل هي تعطيك كل الحق في اقفال أبوابه كلها ما دام في حوزتك ، وتحرم أهل البلد أو مرتادي الفندق من مأوى يأوون اليه . أنت دفعت الثمن أو الايجار من مالك ، وأنت حرّ في كيف تصرف أموالك وفاقاً لمبدأ الحرية المطلقة . ولكن إلى جانب هذا المبدأ ، مبدأ آخر بديهي ، وهو يقضي بأن يتمكن أهل البلد الذي امتلكته بمالك ، ومرتادو الفندق الذي استأجرته بمالك أيضاً ، من ايجاد مأوى يأوون اليه . هذه أيضاً مشكلة لا يحلها مبدأ الحرية المطلقة ، بل يحلها قانون اسمه قانون العدالة الاجتماعية ، إذا كنت انت ترى فيه افتئاتاً على حريتك في التصرف بأموالك ، فالذين تحرمهم حريتك المأوى ، يرون فيه عدالة وضمانة . تجاه هذا القانون أنت مغبون ، وتطبيقه اعتداء على حريتك . أنت تنعى فيه الحرية ، ولكن اولئك يشكرون .

* * *

إذا كنت صاحب مصنع أو مؤسسة كبيرة ، يكثر فيها عدد العمال ، وإذا كنت في بلدٍ نظامه ديموقراطي وانتخابي ، فالحرية المطلقة تجيز لك أن تخيّر عمالك بين انتخاب من تريده أنت وبين تركهم الخدمة في مؤسستك . وقد يكون مرشحك آخر من يرغب هؤلاء في انتخابه ، وهذا طبيعي جداً ، إذ أن هدفك يرمي إلى مساندة نظام يفتح لك باب

الغنم الكثير وتخفيض أجور العمال وما إلى ذلك ، بينما هم يهدفون إلى إقامة نظام ينصفهم من تحكمك فيهم . إنك حرّ في أن تشغّل من تريد وتطرد من تريد ، والعامل حرّ في تأييد مرشحك أو عدم تأييده ، على أنه في الحالة الثانية يكون معرضاً للطرد ، ثم للبطالة ، ثم للجوع ، ثم للموت . بالطبع أنت استعملت حريتك ، وتركت لعاملك أن يستعمل حريته . ولكن أي مبدأ انساني يقرّ هذين المفهومين المتناقضين للحرية .

* * *

قد لا تكفي صفحات هذا الكتاب لسرد جميع الامثلة الدالة على ان الحرية مفهوم له صفة النسبية ، وان الحرية ليست مطلقاً . على ان الحرية إذا ظلت انشودة وحسب ، يتغنى بها الناس ، بينما هم يتناقضون في مفاهيمها ، ويعطونها التفاسير التي توحي لهم بها غرائزهم وشهواتهم ، ويستبعدونها عن دائرة الحياة الواقعية ، ومشاكلها ومقتضياتها المعيشية والاجتماعية والاخلاقية ، فقدت مدلولها ، وتشوهت في اسطورتها القيم الانسانية ، هذه القيم التي يحرص الانسانيون الكذابون على تسميتها بالقيم الروحية بدلاً من تسميتها بكل بساطة ، القيم الانسانية ، وهم يقصدون من ذلك إخراجها عن دائرة العقل والادراك والضمير والواقع ، واخضاعها لفلسفات غيبية ونظرية ، تعوزها مقومات المدنية الفضلى .

* * *

في الصراع القائم بين المدنيات في هذا العصر ، ما أكثر ما يتحدث الناس عن الحرية والقيم الانسانية والعدالة الاجتماعية . إن التحدث عن هذه المثاليات لا يكفي وحده لاستتبابها . إن حرية الجائع والجاهل والمحروم ، وهم . والتحدث عن هذه القيم في طبقة من الناس ، تنعدم فيها ميزة الانطلاق العقلي وقدرة الخلق ، خيال . والتحدث عن العدالة الاجتماعية في نظام يبيح لحفنة من الاسياد والاقطاعيين والمحتكرين ، أن

تتحكم بمجموعة كبرى من المستعبدين والجهلة والمحرومين ، نفـاق ودجل . إن للحرية والقيم الانسانية والعدالة الاجتماعية مقومات بديهية . وهذه المقومات ليست وليدة الغيب المجهول ، وليست الروح هي التي تخلقها خلقاً في الانسان ، وتوزعها حصصاً على الناس ، وإنمـا هي صفات وخصائص مكتسبة ، بفضل العقـل البشري وميزته الادراكية الخلاّقة . وهذه الصفات والخصائص تنمو كلما نما العقل ، وكلما سمت قدرة الخلق فيه . والعقل لا ينمو ، وقدرة الخلق لا تسمو إلا إذا توفر للجسد الغذاء المـادي . فمـا العقل إلا من مكملات الجسد في النوع الانساني .

* * *

على ضوء هذا المفهوم للحرية والقيم الانسانية ، يجب أن يحكم فيما إذا كانت هذه المدنية أو تلك ، مدنية انسانية أم غير انسانية أم نصف انسانية . وعلى ضوء هذا المفهوم ، يجب أن يحكم فيما إذا كـان هذا النظام أو ذاك ، نظاماً صالحـاً أم غير صالح لبناء حضارة يسعد فيهـا الانسان ، كل انسان . وما أحسب أن نظاماً يهضم وجود كل هـذه المقومات الحياتية فيه ، غير النظام الاشتراكي الديموقراطي الشعبي . نظام ديموقراطي اشتراكي شعبي ، مأخوذ عن الحقيقة العلمية المادية . نظام اشتراكي تكون فيه « حرية الرغيف » هي الأساس لكل حرية غيرها . نظام اشتراكي ، لا يكون على قمة هرمه « اشتراكيون » اسماً ، وهم خونة لأبسط مبادئ الاشتراكية الحقيقية . نظام اشتراكي يسهّل تفجير الطاقة العقلية في كل انسان ، وتسهّل فيه وسائل هذا التفجير عند كل انسان . نظام اشتراكي تحترم فيه الكفاءآت أكثر مما تُحترم فيه الشعوذات والمخاتلات . نظام اشتراكي يمجّد فيه الحرية كل انسان ، ولا يمجدها فقط انسان جشع ، أو انسان متحكم ، أو انسان يهوى الحرية ما دامت هذه الحرية تخوله استعباد الآخرين . نظام اشتراكي « تؤمّم » فيـه

الحرية ، بحيث لا تكون وقفاً على من يستغلون مثاليتها ويكفرون بحقيقة ماهيتها . ولماذا لا نقول صراحة ، ان هذا النظام الذي يهيء لقيام مدنية فضلى ، هو النظام الاشتراكي المأخوذ عن النظرية المادية العلمية التاريخية ، ما غيرها .

* * *

المدنية الفضلى ، في خلاصتها ، هي المدنية التي تهيئ الوسائل لكل انسان أن يعمل ويسعد ويُسعد غيره . وهي التي لا تبيح لحرية انسان أن تتعدى على حرية غيره . وهي التي تشرك عامة الناس بانتزاع قوانينها وأنظمتها ، بحيث لا يكون هذا الاشتراع وقفاً على فئة خاصة تشترعه لمصلحتها فقط . وهي التي لا تبيح استعباد أحد للرغيف أو للدواء أو للكلمة . وهي التي لا تجيز وجود طبقة مترفة غنية مستهترة ، ووجود طبقات معدمة جاهلة . هي التي تعطي كل انسان حقه الطبيعي كإنسان .

* * *

واذ يستعرض المرء ما تنوء بعبئه البشرية من قلق وخوف وفوضى ، وعندما يستعرض المرء حالة البؤس التي يتخبط فيها أكثر من نصف سكان العالم ، وعندما يرى المرء أن أكثر من ثلثي مساحة الكرة الأرضية في حالة من الجدب المقصود أو الموجّه ، وان الثلث الباقي مرهون بالقلة العددية من سكان هذا السيار الذي يسمى الأرض .. وعندما يرى أن الغيارى على القيم الانسانية والمتحمسين في الدعاية لها ، هم أول من يتنكرون لحقيقتها ، وأول من تتغلب عليهم شهوتهم وغريزتهم ، فيعملون ما في وسعهم على تقويضها ، متذرعين بحجج توحيها اليهم فلسفات غيبية وعقائد يصفونها بالعقائد الروحية الانسانية وهي في الحقيقة لا روحية ولا انسانية .. عندما يرى المرء كل هذا ، يدرك أن الانظمة التي تسكت عن هذه النقائص في عالمها ، لا يمكن أن تقوم معها مدنية

فضلى ، هي هدف الانسانية الأسمى . ولا بدّ لهذا المرء متى عقل ووعى ، من أن يبدأ بهدم هذه الانظمة ليبني على أنقاضها ، أو ليساعد في البناء على أنقاضها ، نظماً أفضل ، يكون أساسها الحقيقة العلمية التاريخية ، ومنطق الحقيقة العلمية التاريخية ، ولا شيء آخر غير الحقيقة العلمية .

اهم مصادر الكتاب العربية

●

١ ـ مقدمة ابن خلدون .
٢ ـ المدينة الفاضلة للفارابي .
٣ ـ القانون لابن سينا .
٤ ـ رسالة الغفران للمعرّي .
٥ ـ الطب عند العرب للدكتور خيرالله .
٦ ـ الهلال (جرجي زيدان) .
٧ ـ قصة تجاربي مع الحقيقة للمهاتما غاندي (الترجمة العربية) .
٨ ـ لمحات من تاريخ العالم لجواهر لال نهرو (الترجمة العربية)
وغيرها وغيرها .

اهم مصادر الكتاب الأجنبية

●

1 . Histoire universelle
2 . H. G. Wells . a short history of the world .
3 . Van Luhle . History of mankind .
4 . Carlyle . History of French Revolution
5 . Dialogues of Plato .
6 . Darwin . The origin of Species .
7 . Hitti . The Arabs .
8 . Muir . The life of Mohammed .
9 . Rousseau . Social contract
10. Voltaire . Ecrits philosophiques .
11. Works of Tolstoi , Pouchkine and Dostoievsky .
12. Chunpeter, Capitalism, Socialism and Democracy .
13. Atto Rhube . Karl Marx life and work .
14. Karl Marx , Capital .
15. Engels , Anti duhring
16. Stalin . Materialism Dialectique .
17. History of Russian Revolution

Etc . Etc .

فهرست الاعلام

غ

ف

ق

ك

و

ي

فهرست